مكتبة نوبل

١٩٥٤



ارنست همنغواي

يملكون ولا يملكون

ترجمة توفيق الأسدي

ارنست همنغواي

يملكون ولا يملكون

ترجمة :

توفيق الأسدي



يملكون ولا يملكون



المؤلف: ارنست همنغواي
عنوان الكتاب: يملكون ولا يملكون
المترجم: توفيق الاسدي
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: مؤسسة المدى
الطبعة الاولى: ٢٠١٤

Author: **Ernest Hemingway**
Title: **To Have and Have Not**
Translator: **Tawfic Alasadi**
Cover designed by: **Roula Majed**
P.C. : **Al-Mada**
First Edition: **2014**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الجزء الأول

هاري مورغان

الربيع

الفصل الأول

أتعرفون كيف هي الأمور هناك في الصباح الباكر في هافانا، والمتبطّلون السكّيرون لا يزالون نائمين متكئين على جدران الأبنية، حتى قبل وصول عربات الثلج حاملة الثلج للبارات؟ حسناً، لقد عبرنا الساحة من رصيف الميناء إلى «مقهى لؤلؤة سان فرانسيسكو» لنشرب القهوة و لم يكن هناك سوى شحاذ واحد مستيقظ في الساحة، وكان يشرب من ماء النافورة، ولكننا حين دخلنا إلى المقهى وجلسنا، كان ثلاثتهم في انتظارنا.

جلسنا واقترب أحدهم. قال: حسناً؟

قلت له: أستطيع أن أقوم بالمطلوب. أودّ أن أقوم به كمعروف. ولكني قلت لك في الليلة السابقة إني لا أستطيع. ليس الأمر كذلك.

– لا أستطيع. هذا كل ما في الأمر.

كان الآخران قد اقتربا ووقفا هناك، وقد بدا عليهما الحزن. كانا شخصين لطيفي المظهر، وكنت أودّ لو أسدي إليهما بعض المعروف.

قال الذي يتقن الانكليزية: ألف لكل واحد.

قلت له: لا تجعلني أشعر بالأسف. أقول لك بصدق إني لا أستطيع.

– فيما بعد. حين تتغير الأمور سيعني ذلك الكثير لك.

– أعرف ذلك. أنا طوع أمرك. ولكني لا أستطيع.

– لم لا؟

– أنا أتعيّش من القارب. وإذا فقدته فقدت مورد رزقي.

- بتلك النقود تستطيع شراء قارب آخر.

- ليس وأنا في السجن.

لا بد وأنهم ظنوا أني كنت في حاجة إلى الإقناع لأنه تابع يقول:

- سنعطيك ثلاثة آلاف دولار وهذا المبلغ سيعني الكثير لاحقاً. فهذا كله لن يدوم كما تعرف.

قلت: اسمعوني. لا يهمني من هو «الرئيس» هنا، ولكني لا أنقل أي شيء يقدر على النطق إلى الولايات المتحدة.

قال الذي لم يتكلم بعد غاضباً: تعني أننا سنفشي أمرك؟

- قلت أي شيء «يقدر على» النطق.

- هل تعتقد أننا «لانغوا لارغا»؟

- لا.

- هل تعرف ما هو اللانغوا لارغا؟

- أجل إنه صاحب اللسان الطويل.

- هل تعرف ما الذي نفعله بأمثال هذا؟

قلت: لا تعاملني بقسوة، لقد قدمتم لي اقتراحاً غير مناسب و لم أعرض عليكم شيئاً.

قال الذي كان يتكلم سابقاً مخاطباً الغاضب بينهم: اخرس يا بانتشو.

قال بانتشو: قال إننا سنفشي أمره.

قلت: اسمع. قلت لك إني لا أنقل أي شيء «يقدر على» النطق. الشراب الكحولي المعبأ في أكياس لا يقدر على النطق. الدمجانات لا تقدر على النطق. وهناك أشياء أخرى لا تقدر على النطق. الرجال قادرون على النطق.

قال بانتشو بلهجة تنذر بالشر الخطير: هل الصينيون قادرون على النطق؟

قلت له: قادرون على النطق ولكني لا أستطيع أن أفهمهم.

– إذن، لن تقبل.

كما قلت لكم في الليلة الماضية بالضبط: لا أستطيع.

– ولكنك لن تفشي سرنا؟

كان الشيء الوحيد الذي لم يفهمه على النحو الصحيح قد جعله يصبح كريهاً. أعتقد أن ذلك كان خيبة الأمر أيضاً. لم أجبه.

سألني وهو يتكلم بلهجة تنذر بالشر: لست من أصحاب الألسنة الطويلة. أليس كذلك؟

– لا أظن ذلك.

– ما هذا؟ تهديد؟

قلت له: اسمع. لا تكن خشناً إلى هذا الحد في هذا الوقت المبكر من الصباح. أنا على ثقة من أنك ذبحت الكثيرين. ولكني لم أتناول حتى قهوتي بعد.

– إذن أنت على ثقة من أني ذبحت الكثيرين؟

قلت: لا. لا يهمني ذلك أبداً. ألا تستطيع التعامل مع الناس دون أن تغضب؟

قال: أنا غاضب الآن. أود أن أقتلك.

قلت له: يا للجحيم. لا تتكلم كثيراً.

قال الأول: هيا يا بانتشو.

ثم قال لي: أنا آسف جداً. أتمنى لو أنك تأخذنا.

– أنا آسف أيضاً. ولكني لا أستطيع.

انطلق ثلاثتهم نحو الباب، وراقبتهم يغادرون المكان. كانوا شباناً وسيمين في ملابس جيدة. لم يكن أي منهم يرتدي قبعة، وبدا عليهم أنهم

يملكون الكثير من المال. كانوا يتكلمون عن الكثير من الأموال، على أية حال، ينطقون بالإنكليزية التي ينطق بها عادة الكوبيون الذين يملكون المال.

بدا اثنان منهم أنهما أخوان، وبدا الثالث، بانتشو، أطول قليلاً ولكنه من النوع نفسه من الشبان. كما تعرفون، ذلك النوع النحيل، أنيق الملبس، لامع الشعر. لم أتصور أنه كان دنيئاً بقدر ما ينمّ عنه كلامه. أتصور أنه كان عصبياً جداً.

ما إن خرجوا من الباب والتفوا إلى اليمين، حتى رأيت سيارة مغلقة تعبر الساحة باتجاههم. كان أول شيء حصل هو أن لوحاً زجاجياً انكسر وأصابت الرصاصة جدار خزانة الواجهة إلى اليمين. سمعت صوت مسدس وبوب بوب بوب، كانت الزجاجات تتحطم على امتداد الجدار.

قفزت إلى خلف البار على الجانب الأيسر، واستطعت أن أرى ما يحدث وأنا أتفرج من فوق الحافة. كانت السيارة قد توقفت، وكان هناك شخصان قد جثما إلى القرب منها. كان مع أحدهما بندقية آلية من طراز طومسون ومع الآخر بندقية رش آلية غير محلزنة. كان الذي يحمل بندقية طومسون زنجياً أما الآخر فيرتدي أوفرول السائقين الأبيض.

كان أحد الشبان قد سقط على الرصيف ووجهه نحو الأسفل، خارج الواجهة الكبيرة التي تحطمت . أما الآخران فكانا خلف إحدى عربات الثلج الخاصة بشركة «بيرة تروبيكال» التي كانت متوقفة أمام «بار كونارد» المجاور للمقهى. وكان أحد حصاني عربة الثلج قد سقط هو وعدته وراح يرفس، أما الآخر فكان يتخبّط بعنف.

أطلق أحد الشبان النار من الزاوية الخلفية للعربة وتردّد صداها على الرصيف. أطلّ الزنجي الذي يحمل البندقية الآلية بوجهه إلى الشارع وأطلق صلية إلى مؤخر العربة من الأسفل، وقد سقط أحدهما دون ريب

نحو الرصيف ورأسه فوق الحاجز الحجري. تخبّط هناك وهو يضع يديه فوق رأسه، وأطلق عليه السائق النار من بندقية الرش، بينما كان الزنجي يضع مخزناً جديداً لبندقيته، ولكن ما كان متوقعاً له أن يصيب. كنت تستطيع أن ترى آثار الخردق تغطي الرصيف كله كبقع الفضة.

أما الشخص الآخر فقد جرّ ذاك الذي أصيب من ساقه إلى خلف العربة، ورأيت الزنجي ينزل بوجهه إلى مستوى الرصيف ليوجّه صلية أخرى، ثم رأيت بانتشو يدور من حول زاوية العربة ويحتمي بالحصان الذي كان لا يزال واقفاً. ابتعد عن الحصان ووجهه أبيض كشرشف متسخ، وأطلق النار على السائق بمسدسه الكبير من طراز «لوغر»، وقد أمسك به بيديه كلتيهما ليبقيه ثابتاً. وقد أطلق طلقتين من فوق رأس الزنجي المتقدم وثالثة منخفضة.

لقد أصاب دولاب السيارة لأني رأيت الغبار يهب متدفّقاً من الشارع مع خروج الهواء منه، وقد أصابه الزنجي من مسافة عشرة أقدام بما كان ربما آخر رصاصة في بندقيته، لأني رأيته يرمي بها أرضاً، كما كان بانتشو ذاك قد جلس أرضاً بصعوبة ثم انبطح على وجهه. كان يحاول أن ينهض وهو لا يزال يحمل مسدس اللوغر، ولكنه لم يستطع أن يرفع رأسه، بينما كان الزنجي قد تناول بندقية الرش التي كانت على مقود السيارة قرب السائق ونسف رأسه من الجانب. يا له من زنجي!

شربت جرعة سريعة من أول زجاجة مفتوحة ولا يمكنني أن أعرف حتى الآن ما كان نوع ذلك الشراب. لقد جعلني ذلك كله أشعر بالغثيان. انزلقت من وراء البار وخرجت من باب المطبخ الخلفي. درت من حول جانب الساحة ولم أنظر حتى إلى حيث كان الحشد هناك قادماً بسرعة نحو مقدمة المقهى، ومررت بالبوابة ثم نحو رصيف الميناء وصعدت إلى القارب.

كان الشخص الذي استأجر القارب ينتظرني فوقه. حكيت له ما حدث.

سألني هذا الشخص الذي استأجرناه واسمه جونسون:

– أين «إيدي»؟

– لم أره قط بعد أن بدأ إطلاق النار.

– هل تعتقد أنه أصيب؟

– لا، بحق الجحيم. أقول لك إنَّ الطلقات التي دخلت المقهى أصابت الواجهة فحسب. وكان ذلك حين كانت السيارة تقترب منهم من الخلف. أي حين قتلوا أول واحد منهم أمام الواجهة تماماً. لو جاؤوا بزاوية كهذه...

قال: تبدو واثقاً جداً من ذلك.

قلت له: كنت أراقب.

ثم رفعت رأسي لأرى «إيدي» قادماً يسير على امتداد الرصيف أطول وأقذر من أي وقت سبق. كان يمشي ومفاصله كأنّها مخلّعة.

– ها هو.

كان إيدي يبدو في أسوأ حال. لم يكن جيداً جداً في الصباح، ولكنه يبدو الآن في أسوأ حال.

سألته: أين كنت؟

– منبطحاً على الأرض.

سأله جونسون: هل رأيت ما حدث؟

قال له إيدي: لا تتحدث عن ذلك يا سيد جونسون. أشعر بالغثيان لمجرد التفكير في الأمر.

قال له جونسون: الأجدر بك أن تشرب كأساً.

ثم قال لي: هل سنخرج؟

– هذا يعود إليك.

– كيف هو الطقس اليوم؟

– كالبارحة تقريباً. وربما أفضل.

– هيا نبحر إذن.

– حسناً، حالما تصل الطعوم.

– ها نحن نعمل مع هذا الشخص في صيد السمك منذ ثلاثة أسابيع في الخليج و لم أرَ شيئاً من نقوده إلاّ مئة دولار أعطاني إياها لأدفعها إلى القنصل للحصول على إذن للخروج من الميناء وشراء بعض الطعام وتعبئة القارب بالبنزين قبل العبور. كنت أزوّده بكل عدة الصيد وكان هو قد استأجر القارب بمبلغ خمسة وثلاثين دولاراً في اليوم. كان ينام في الفندق ويأتي إلى القارب كل صباح. وبما أن إيدي هو الذي وجد لي هذا الزبون فقد اضطررت إلى تشغيله لقاء أربعة دولارات في اليوم.

قلت لجونسون: عليّ أن أملأ الخزان بالبنزين.

– حسناً.

– احتاج إلى بعض النقود لأجل ذلك.

– كم؟

– السعر هو ثمانية وعشرون سنتاً للغالون. وعليّ أن أضع فيه أربعين غالوناً على أية حال. أي أحد عشر دولاراً وعشرون سنتاً.

أخرج خمسة عشر دولاراً. سألته:

– هل تريد أن نشتري بالبقية بيرة وثلجاً؟

قال: هذا جميل. ولكن احسمها من المبلغ الذي أدين به لك.

كنت أفكر في أن فترة ثلاثة أسابيع هي فترة طويلة من الانتظار دون

نقود، ولكن إن كان يملك النقود فعلاً، فهل هناك فرق؟ كان عليه أن يدفع أسبوعياً على أية حال. ولكني كنت أنتظر أحياناً شهراً بحاله قبل الحصول على النقود. كانت تلك غلطتي وكنت سعيداً بوجود عمل في البداية. ولكنه جعل أعصابي تتوتّر في الأيام القليلة الأخيرة فقط، لكني ما كنت أريد أن أقول أي شيء خشية إغضابه. وإن كان هو أهلاً لهذا كله فكلّما طال الأمر كانت الأوضاع أفضل.

سألني وهو يفتح الصندوق: هل تريد زجاجة بيرة؟

- لا شكراً.

في ذلك الحين بالضبط وصل الزنجي الذي كان يجلب الطعوم إلى الرصيف وقلت لإيدي أن يستعد للانطلاق.

صعد الزنجي إلى ظهر القارب مع الطعوم وانطلقنا وخرجنا من الميناء، والزنجي يثبت زوجاً من سمك الأسقمري، فيمرّر الخطاف من فمي السمكتين ومن الخياشيم ويشق الجانب ثم يقحم الخطاف ويخرجه من الجانب الآخر ويربط الفم حتى ينغلق على السلك الذي يقود السمك إلى الشرك ويربط الخطاف جيداً حتى لا ينزلق وحتى ينجذب الطعم بيسر دون دوران.

إنه بالفعل زنجي أسود ماهر وكئيب، ويضع خرزات سحرية حول عنقه تحت القميص، ويرتدي قبعة قش قديمة. ما كان يجب أن يفعله على ظهر القارب هو النوم وقراءة الصحف. ولكنه كان يعرف كيف يصنع طعماً جيداً وكان سريعاً في عمله.

سألني جونسون:

- ألا تستطيع أن تضع الطعم هكذا يا قبطان؟

- نعم يا سيدي.

- ولماذا هذا الزنجي إذن؟

قلت له:

– حين يعلق السمك الكبير سترى بنفسك.

– ما الذي تعنيه؟

– الزنجي أسرع مني.

– ألا يستطيع إيدي ذلك؟

– لا يا سيدي.

– يبدو أن هذه كلفة غير ضرورية عليّ تحمّلها.

– كان يدفع دولاراً في اليوم للزنجي، وكان هذا يرقص الرومبا في كل ليلة. كنت أستطيع رؤيته وقد سبق للنعاس أن غلبه.

قلت: إنه ضروري

في ذلك الحين كنا قد مررنا بالمراكب الشراعية وحيدة الصواري وصناديقها المخرّمة العائمة لإبقاء الأسماك حية وقد ثبتت أمام «كابانياس»، والمراكب الشراعية الصغيرة قد رست لتصيد سمك «التن» على قاع الصخور قرب «المورو»، وانطلقت بالقارب خارجاً من حيث كان الخليج يشكل خطاً داكناً. وضع إيدي المواد التي تجذب السمك وركّز الزنجي الطعوم على ثلاث صنارات.

كان التيار قريباً من الشاطئ وحين وصلنا إلى الحيد البحري كان من المستطاع رؤيتها تبدو أرجوانية تقريباً بسبب الدوامات المنتظمة. كان هناك نسيم شرقي خفيف وأفزعنا الكثير من السمك الطيار، تلك الأسماك الكبيرة ذات الأجنحة السوداء التي تبدو كأنها صورة «ليندبيرغ» وهو يعبر الأطلسي، وذلك حين تطير قافزة من الماء.

تلك الأسماك الطيّارة الكبيرة هي أفضل علامة ممكنة. وعلى مد البصر كانت هناك تلك الطحالب الخليجية الصفراء الذاوية في بقع صغيرة والتي

تعني أن التيار الرئيسي موجود هنا، وكانت هناك طيور إلى الأمام تتعامل مع سرب من أسماك الطونة. كنت تستطيع أن تراها تتقافز، سمكات صغيرات تزن الواحدة منها حوالي الكيلو غرام. قلت لجونسون:

– ابدأ بالصيد في أي وقت تشاء!

ارتدى حزامه وعدته وأطلق الصنارة الكبيرة ذات البكرة من طراز «هاردي» ولها ستمائة ياردة مؤلفة من ستة وثلاثين خيطاً. نظرت إلى الخلف ورأيت أن طعمه كان يدور على نحو جيد، يتقافز على البالون، والمواد التي تجذب السمك تغطس وتطفو. كنا نسير بالسرعة الصحيحة واتجهت بالقارب إلى قلب التيار.

قلت له:

– أبق الساحب ذا النهاية الثخينة في تجويف الكرسي. ثم لن تكون الصنارة ثقيلة جداً. أبقِ الساحب بعيداً حتى تستطيع أن ترخيه للسمكة حين تضرب. وإذا ضربت السمكة الساحب وهو مشدود فسوف يوقعك من ظهر القارب.

– في كل يوم أضطر إلى تكرار الشيء نفسه. من بين كل خمسين زبوناً لا تجد إلا زبوناً واحداً يعرف كيف يصطاد. وحتى حين يكونون من العارفين فإنهم في معظم الحالات من الأغبياء، ويريدون استخدام خيط ليس قوياً إلى حد يتحمل معه السمك الكبير.

سألني: كيف يبدو الطقس اليوم؟

قلت له: لا يمكن أن يكون أفضل من هذا.

– كان يوماً جميلاً بالفعل.

أعطيت الزنجي المقود وطلبت منه أن يسير بالقارب على امتداد حافة التيار إلى الشرق ثم عدت إلى حيث كان جونسون جالساً يراقب طعمه وهو يتقافز.

سألته: هل تريدني أن أضع صنارة أخرى؟

قال: لا أظن ذلك. أريد أن أصيد وأصارع السمك ثم أرفعه إلى سطح القارب بنفسي.

قلت: حسناً. هل تريد من إيدي أن يمدّها ثم يعطيها لك إذا علقت إحدى السمكات حتى تستطيع أن تصطادها؟

قال: لا، أفضل أن تكون هناك صنارة واحدة فقط.

- حسناً.

كان الزنجي لا يزال يقود القارب، ونظرت ورأيت أنه رأى بقعة من السمك تندفع إلى الأمام وضد التيار قليلاً. نظرت إلى الخلف فاستطعت أن أرى هافانا تبدو جميلة تحت الشمس وسفينة قد خرجت للتوّ من الميناء عبر «المورو».

قلت: أعتقد أنه ستتاح لك الفرصة لمصارعة إحدى السمكات اليوم يا سيد جونسون.

قال: لقد آن الأوان. منذ متى بدأنا؟

- اليوم نكمل ثلاثة أسابيع.

- هذه فترة طويلة للصيد.

قلت له:

- إنه سمك مضحك. فهو لا يتواجد هنا إلا حين يأتي، وحين يأتي يكون هناك الكثير منه. وهو يأتي دائماً. وإذا لم يأت فهو لن يأتي أبداً. القمر مناسب. هناك تيار جيد وسيكون النسيم جيداً.

- كان هناك بعض السمك الصغير حين وصلنا في البداية.

قلت:

- أجل، كما قلت لك. السمك الصغير يتلاشى ويتوقف قبل أن يصل السمك الكبير.

– أنتم قباطنة القوارب المستأجرة تكررون الأسطوانة نفسها. إما أن الوقت مبكراً جداً، أو أن الريح ليست مؤاتية، أو القمر ليس مناسباً. ولكنكم تقبضون المال على أية حال.

قلت له:

– حسناً المعضلة هي أن الوقت يكون عادة إما مبكراً جداً أو متأخراً جداً، وفي كثير من الأحيان تكون الريح غير مؤاتية. ثم حين يكون لديك نهار ممتاز تكون على الشاطئ دون زبون.

– ولكن، أتظنّ هذا اليوم يوم ممتاز؟

– حسناً، لقد سبق لي وخبرت الكثير. ولكني أراهن أنك ستصيد الكثير اليوم.

قال: آمل ذلك.

أوقفنا القارب للصيد. تقدم إيدي نحو المقدمة واستلقى أرضاً. كنت واقفاً أترقب رؤية ذيل يبرز من الماء. بين الحين والآخر كان الزنجي يغفو، وكنت أراقبه هو أيضاً. أعتقد أنه كان يقضي ليالي رائعة.

سألني جونسون: هل تمانع في ان تجلب لي زجاجة من البيرة أيها القبطان؟

قلت: لا يا سيدي.

ثم فتشت في الثلج لأجد له زجاجة باردة.

سألني: ألا تريد واحدة لك؟

– لا يا سيدي. سانتظر قدوم الليل.

فتحت الزجاجة وكنت أمدّ يدي بها إليه حين رأيت سمكة كبيرة بنيّة اللون لها رمح أطول من ذراعك تندفع فجأة وقد برز نصفها من الماء، ثم تنقضّ على سمك الأسقمري. بدت كبيرة كزند النشر. صرخت:

– ارخه لها!

قال جونسون: لم تعلق بالطعم.

– انتظر إذن!

كانت السمكة قد صعدت من أعماق سحيقة وأخطأت الطعم. ولكني عرفت أنها ستعود وتحاول مرة أخرى. كنت مستعداً لإرخائه لها حين تمسك بالطعم. ثم رأيتها تخرج من الخلف تحت الماء. كان ممكناً مشاهدة زعانفها خارج الماء عريضة كأجنحة أرجوانية، ولها أقلام أرجوانية على لون بني تقدمت كغواصة، وزعنفتها العلوية بارزة وهي تشق الماء. ثم جاءت من خلف الطعم وخرج رمحها أيضاً، وهو يتأرجح نوعاً ما، وقد برز كله من تحت الماء.

قلت: دعه يدخل في فمها!

أبعد جونسون يده عن البكرة فبدأت تئزّ والتفتت الراموحة وغطست، واستطعت أن أرى طولها بالكامل يلتمع كالفضة النيّرة وهي تنقلب على جنبها وتتجه بسرعة نحو الشاطئ.

قلت: جرّه قليلاً! ليس كثيراً.

– أدار اللولب قليلاً.

قلت: ليس كثيراً.

كنت أستطيع رؤية الخيط يميل إلى الأعلى. قلت:

– أغلقه بقوة واضربها! عليك أن تضربها. ستقفز على أي حال.

لفّ جونسون الخيط وعاد ليشدّ الصنارة. قلت له:

– اضربها! أقحمه فيها! اضربها مرات عديدة.

ضربها بقوة مرتين أخريين، ثم انحنت الصنارة نصفين وبدأت البكرة

تصرّ وها هي السمكة تخرج، وتندفع بزخم في قفزة طويلة مستقيمة، تلتمع كالفضة تحت الشمس ثم تطلق رشاشاً كأنها حصان رمي من على جرف.

قلت له: خفف من ضغطك على الساحب!

قال جونسون: لقد هربت.

قلت له: لا يمكن ذلك

قلت له: لا يمكن ذلك. خفف من الضغط على الساحب بسرعة!

استطعت أن أرى انحناء الخيط وفي المرة التالية التي قفزت فيها السمكة كانت عند مؤخرة القارب وتتجه نحو البحر. ثم خرجت ثانية وضربت الماء فابيضّ، واستطعت أن أرى أن الخطاف قد علق بطرف فمها. كانت الخطوط واضحة عليها. كانت سمكة جميلة، بلون فضي لامع الآن، عليها خطوط أرجوانية اللون، كبيرة كجذع شجرة.

قال جونسون: لقد هربت.

كان الخيط رخواً. قلت:

– اسحبها بالبكرة! لقد علقت جيداً.

ثم صرخت بالزنجي: ادفع بالقارب إلى الأمام بكل ما في المحرك من قوة.

ثم خرجت مرة أخرى وأخرى وهي متيبّسة كالعود، وطولها بالكامل يقفز باتجاهنا مباشرة، وترمي الماء عالياً في كل مرة كانت تهبط فيها. أصبح الخيط مشدوداً ورأيت أنها كانت تتجه نحو الشاطئ مرة أخرى واستطعت أن أرى أنها كانت تلتفّ.

قلت: الآن ستسرع. إذا بدأت بالسباحة بسرعة سأطاردها. أبق الساحب خفيفاً! الخيط طويل تماماً.

اتجهت سمكة الراموح باتجاه الشمال الغربي كما تفعل كل الأسماك الكبيرة. ويا أخي، هل علقت؟ لقد بدأت تقفز تلك القفزات الطويلة وكل غطسة قصيرة في الماء كأنها قارب سريع في موجة. طاردناها. مما جعلها تصبح قريبة من جانب القارب وعند مؤخره حين قمنا بالالتفاف. كنت أقوم بالقيادة ورحت أصرخ بجونسون أن يبقي الساحب خفيفاً والبكرة سريعة. وفجأة رأيت صنارته تلتوي والخيط يرتخي. ما كان يمكن أن يبدو مرتخياً إلاّ إذا عرفت بذلك بسبب جذب الجزء المنتفخ من الخيط في الماء. ولكني عرفت.

قلت له: لقد هربت.

كانت السمكة لا تزال تقفز، وظلّت تقفز حتى توارت عن الأنظار. كانت سمكة جميلة بالفعل.

قال جونسون: لا أزال أستطيع الشعور بجذبها.

هذا هو ثقل الصنارة.

لا أكاد أستطيع تدوير البكرة. ربما ماتت.

قلت: انظر إليها! إنها لا تزال تقفز.

كان ممكناً مشاهدتها من مسافة نصف ميل، وهي لا تزال ترمي برشاش الماء.

أحسست بجذبها. لقد لوته جيداً. ما كان ممكناً مدّ المزيد من الخيط. كان لا بدّ له أن ينقطع.

- أوَ لم أقل لك أن تبقي الساحب دون شدّ؟

ولكنها بقيت تشدّ الخيط.

- وماذا يعني ذلك؟

لذلك شددته.

قلت له:

– اسمع! إذا لم تعطها المزيد من الخيط حين تعلق فسوف تقطعه. لا يوجد خيط يمكنه مقاومتها. عليك أن تبقي الساحب دون شدّ. صيّادو السوق لا يستطيعون إبقاءه مشدوداً حتى مع خيط الحربون. إن ما علينا أن نفعله هو استخدام القارب لمطاردتها حتى لا تسحب الخيط كله لدى هروبها. فبعد أن تهرب تغطس، وتستطيع عند ذلك أن تشدّ الساحب وتستعيدها.

– إذن لو لم ينقطع لأمسكت بها؟

– كان ممكناً أن تتاح لك الفرصة لذلك.

– ما كانت قادرة على المتابعة، أليس كذلك؟

– يمكنها أن تفعل الكثير من الأشياء. لا يبدأ الصراع إلاّ بعد ان تكون قد أسرعت في محاولة للهروب.

قال: حسناً، لنصطد واحدة!

قلت له: عليك أن تدوّر البكرة لتستعيد الخيط أوّلاً.

لقد أمسكنا بتلك السمكة وضيّعناها دون أن نوقظ «إيدي». ها هو إيدي العجوز يعود إلى مؤخرة القارب. قال: ما المسألة؟

كان إيدي بحاراً وصياداً ماهراً سابقاً قبل أن يصبح سكيراً، ولكنه لم يعد كذلك الآن. نظرت إليه وهو واقف هناك، طويلاً ذا وجنتين غائرتين وفم مرتخ وذلك الشيء الأبيض في زوايا عينيه، وشعره قد بهت كله تحت نور الشمس. عرفت أنه قد استيقظ متعطشاً للشراب حتى الموت. قلت له:

– الأجدر بك أن تشرب زجاجة بيرة.

– أخرج واحدة من الصندوق وشربها. قال:

– حسناً يا سيد جونسون. أعتقد أنه من الأفضل لي أن أنهي قيلولتي. ممتنّ جداً للبيرة يا سيدي.

– يا له من شخص رائع إيدي ذاك. لم يكن السمك يهمه إطلاقاً.

حسناً، علقنا صنارة أخرى حوالي الظهر فقفز هو. كان يمكنك أن ترى الخطاف يطير مسافة ثلاثين قدماً حين رماه هو. سأل جونسون:

– ما الخطأ الذي ارتكبته إذن؟

قلت: لا شيء. لقد رماه للتو.

قال إيدي الذي استيقظ ليشرب زجاجة أخرى من البيرة:

– يا سيد جونسون. يا سيد جونسون. أنت سيئ الحظ. ربما تكون محظوظاً مع النساء. يا سيد جونسون، ما رأيك بالخروج الليلة؟

ثم عاد لينام.

في حوالي الرابعة وفي طريق عودتنا إلى الشاطئ ضد التيار، وكان التيار قوياً، والشمس خلف ظهورنا، علقت أكبر سمكة راموح سوداء رأيتها في حياتي في طعم جونسون. كنّا قد وضعنا طعماً معدنياً أشبه بالحبّار وله لسان وأمسكنا بأربع من سمك التونة الصغير وقد وضع الزنجي إحداها كطعم. وقد كان الطعم ثقيلاً ويصنع رشاشاً ضخماً في أعقابنا.

أبعد جونسون العدة عن البكرة حتى يستطيع أن يضع الصنارة عبر ركبتيه لأنّ ذراعيه تعبتا من الإمساك بها بالوضعية المناسبة طوال الوقت. ولأنّ يديه تعبتا من الإمساك بملفّ البكرة تجاه ثقل الطعم الكبير، فقد أدار اللولب ساحباً الثقل بينما لم أكن انظر إليه. لم أعرف أنه فعل ذلك. لم تعجبني طريقته في الإمساك بالصنارة على ذلك النحو ولكني كرهت أن أوبّخه طوال الوقت. وعلاوة على ذلك، ومع عدم وجود الثقل الذي يشكّل الفرملة، كان الخيط سيخرج بحيث لا يكون هناك خطر. ولكنها كانت طريقة صبيانية في الصيد.

كنت عند عجلة القيادة وكنت أوجهها نحو حافة التيار قبالة معمل الإسمنت القديم حيث البحر عميق قرب الشاطئ وفيه دوّامة، وحيث يوجد دائماً كثير من الطعوم ثم رأيت رشاشاً قوياً كأنّما صنعته قنبلة أعماق ورأيت السيف والعين والفك السفلي المفتوح ورأساً كبيرة أرجوانية وسوداء، وكانت تخص جميعها سمكة الراموح السوداء. كانت الزعنفة العليا قد خرجت بأكملها من الماء وهي تبدو عالية كأنها سفينة ذات صوار ثلاث. كان منقارها كبيراً كمضرب البيسبول معقوفاً إلى الأعلى، وبينما كانت تمسك بالطعم فقد شقت المحيط شقاً عريضاً. كان لونها أسود أرجوانياً خالصاً وكانت عينها كبيرة كوعاء الحساء. كانت سمكة هائلة الحجم، وأراهن على أن وزنها قد يصل إلى ألف باوند.

صرخت بجونسون حتى يعطيها المزيد من الخيط، ولكني قبل أن أنطق بكلمة واحدة رأيت جونسون يرتفع في الهواء بعيداً عن الكرسي كأنما بواسطة رافعة، وهو يتمسّك بتلك الصنارة لمدة ثانية واحدة والصنارة تنحني كالقوس، ثم ضربه عقب الصنارة في البطن وسقطت العدة كلها من القارب.

كان قد شدّ الثقل كثيراً، وحين ضربت السمكة الطعم، فقد رفعت جونسون في الهواء و لم يستطع هو الإمساك بالصنارة. كان العقب تحت إحدى ساقيه والصنارة في حضنه. ولو كان الطقم مركباً لكان جونسون نفسه قد سقط في البحر أيضاً.

أوقفت المحرك وعدت إلى مؤخر القارب. كان يجلس هناك وهو ممسك ببطنه حيث عقب الصنارة. قلت :

أعتقد أننا نلنا كفايتنا اليوم.

قال: ما كان ذلك؟

قلت: سمكة راموح سوداء.

– وكيف حدث ذلك؟

قلت: هل حسبت الكلفة؟ البكرة ثمنها مائتان وخمسون دولار. وهي أغلى ثمناً الآن. والصنارة كلّفتنْي خمسة وأربعين. وهناك حوالي ستمائة ياردة من الخيطان من قياس ستة وثلاثين.

في هذه اللحظة ربت إيدي على ظهره. قال:

– يا سيد جونسون. أنت سيئ الحظ. أنت تعرف أني لم أر في حياتي شيئاً كهذا يحدث من قبل.

قلت له: اخرس أيها السكير.

قال إيدي: أقول لك يا سيد جونسون إن هذا واحدٌ من أندر الحوادث التي شاهدتها في حياتي.

قال جونسون: وما الذي أستطيع أن أفعله وأنا معلّق إلى مثل تلك السمكة؟

قلت له: هذا ما كنت تريد مقاتلته وحدك.

– كان ذلك أمراً مؤلماً جداً.

قال جونسون: إنها كبيرة جداً. عجباً، الأمر يبدو كعقوبة.

قلت له: اسمع. إن سمكة كهذه قد تقتلك.

– إنهم يصطادونها.

الناس الذين يعرفون كيف يصيدون يمسكون بها. ولكن لا تظنّ أنهم لا يتلقون العقوبة.

رأيت صورة لفتاة أمسكت بواحدة منها.

قلت: بكل تأكيد. ولا زالت تمارس الصيد. لقد ابتلعت الطعم وسحبوا معدتها إلى الخارج فصعدت إلى الأعلى وماتت. أنا أعني صيدها بعد أن يعلق الخطاف بفمها.

قال جونسون: حسناً، إنها كبيرة جداً. ولو لم يكن الأمر ممتعاً فلِمَ نفعلـه؟

قال إيدي: هذا صحيح يا سيد جونسون. لو لم يكن الأمر ممتعاً فلِمَ نفعله؟ اسمع يا سيد جونسون، لقد أصبت المرمى بهذا. لو لم يكن الأمر ممتعاً فَلِمَ نفعله؟

كنت لا أزال منزعجاً من مشاهدة تلك السمكة وأحسّ بالقرف بسبب ضياع العدة فلم أستطع الاستماع إليهما. قلت للزنجي أن يتوجّه بالقارب إلى «المورو». لم أقل لهما شيئاً وقد جلسا هناك، إيدي في أحد الكراسي مع زجاجة بيرة وجونسون مع أخرى.

قال لي بعد فترة:

– أيها القبطان، هل لك أن تمزج لي كأساً؟

مزجت له كأساً دون أن أقول أي شيء ثم مزجت لنفسي كأساً أقوى. كنت أفكر في أن جونسون هذا لا يصطاد شيئاً منذ خمسة عشر يوماً، وأخيراً تعلق بصنارته سمكة من شأن أي صياد أن يمنح سنة من عمره لاصطيادها، فيضيعها، ويضيّع عدتي الثقيلة، ويحوّل نفسه إلى أضحوكة ويجلس مع ذلك راضياً تماماً يشرب مع سكير.

حين وصلنا إلى الرصيف وكان الزنجي واقفاً هناك ينتظر، قلت:

– ماذا عن الغد؟

قال جونسون:

– لا أظن ذلك. لقد شبعت من هذا النوع من الصيد.

– هل تريد أن تدفع للزنجي؟

– بكم أنا مدين له؟

– بدولار واحد. يمكنك أن تمنحه بقشيشاً لو شئت.

وهكذا أعطى جونسون إلى الزنجي دولاراً وقطعتي نقود كوبيتين من فئة العشرين سنتاً.

سألني الزنجي وهو يريني قطعتي النقود: ما هذا؟

قلت بالإسبانية: هذا بقشيش. لقد انتهى العمل. وهو يعطيك هاتين لقاء ذلك.

– ألن أحضر غداً؟

– لا؟

أخذ الزنجي لفّةَ الخيطان التي كان يستخدمها لربط الطعوم ونظارتيه الداكنتين وارتدى قبعة القش وذهب دون أن يقول وداعاً. كان زنجيّاً لا يكنّ احتراماً لأحد منّا.

سألته: متى تريد أن تصفي الحساب يا سيد جونسون؟

قال جونسون:

– سأذهب إلى المصرف صباحاً. سنصفي الحساب بعد الظهر.

– أتعرف كم يوماً عملنا؟

– خمسة عشر.

– لا، ستة عشر يوماً مع هذا اليوم ويوم ذهاب وآخر إياب، فيكون المجموع ثمانية عشر يوماً. ثم هناك الصنارة والبكرة والخيط التي فقدت اليوم.

– العدة على حسابك.

– لا يا سيدي. ليس حين تضيّعها بتلك الطريقة.

– لقد دفعت أجرتها يوميّاً. إنها على حسابك.

قلت:

– لا. لو كسرتها السمكة و لم يكن ذلك بسبب خطأ منك لكان ذلك أمراً مختلفاً. لقد ضاعت تلك العدة كلها بسبب إهمالك.

– لقد جذبتها السمكة من يدي.

– لأنك كنت قد وضعت الساحب للعمل ولم تكن الصنارة في التجويف.

– لا يحق لك مطالبتي بثمن العدة.

– لو استأجرت سيارة وأسقطتها من على الجبل، ألا تظن أنّ عليك أن تدفع ثمنها؟

قال جونسون:

– إن كنت في داخلها، فلن تدفع.

قال إيدي:

– هذا جميل جداً يا سيد جونسون. أنت تفهم ما يرمي إليه يا قبطان، أليس كذلك؟ لو كان فيها لقتل. إذن لن يضطر إلى الدفع. هذه جيدة.

– لم أكترث بما قاله السكّير أبداً. قلت لجونسون:

أنت مدين لي بمائتين وخمسة وتسعين دولاراً لقاء تلك الصنارة والبكرة والخيط.

قال: هذا ليس عدلاً. ولكن إذا كان هذا رأيك فلماذا لا نتقاسم المبلغ؟

– لا أستطيع شراء بدل عنها الآن بثلاثمئة وستين دولاراً. لا أطالبك بكلفة الخيط. فسمكة كهذه قد تأخذ كل الخيط دون أن يكون الحق عليك. ولو كان هناك أي شخص آخر عدا هذا السكير لكان سيشهد أني عادل جداً معك. أعرف أن المبلغ يبدو كبيراً، ولكن حين اشتريت العدة كان المبلغ كبيراً أيضاً. لا يمكنك أن تصطاد هكذا دون أفضل عدة يمكن شراؤها.

قال له إيدي:

– يا سيد جونسون. يقول إني سكير. ربما أكون كذلك، ولكني أقول لك إنه على حق. إنه على حق وطلبه معقول.

قال جونسون أخيراً:

- لا أريد أن أسبّب أية مشاكل. سأدفع المطلوب رغم أني غير مقتنع به. أي ثمانية عشر يوماً وكل يوم بخمسة وثلاثين دولاراً وفوقها مائتان وخمسة وتسعون.

قلت: لقد سبق وأعطيتني مائة. سأعطيك لائحة بما أنفقته وسوف أحسم ما تبقى من طعام خلال الذهاب والإياب.

قال جونسون: هذا معقول.

قال إيدي: اسمع يا سيد جونسون. لو عرفت الطريقة التي يحاسبون بها الغرباء عادة لعرفت أن هذه أكثر من معقولة. هل تعرف ماذا؟ إنها استثنائية. القبطان يعاملك كأنك أمه.

- سأذهب إلى المصرف غداً وأعود بعد الظهر. ثم سأستقل الباخرة بعد غد.

- يمكنك أن تعود معنا وتوفّر أجرة الباخرة.

قال: لا. في الباخرة سأوفر الوقت.

قلت: حسناً. ما رأيك بكأس؟

قال جونسون: جميل. هل صفت القلوب الآن؟

قلت له: أجل يا سيدي.

وهكذا جلسنا ثلاثتنا في مؤخر القارب وشربنا كأساً قوية.

وفي اليوم التالي عملت في القارب طوال فترة الصباح فغيّرت الزيت في القاعدة وأصلحت شيئاً أو شيئين. وعند الظهر ذهبت إلى وسط البلدة وأكلت في مطعم صيني حيث يمكنك تناول وجبة لقاء أربعين سنتاً، ثم اشتريت بعض الحاجيات لآخذها لزوجتي في الوطن لبناتنا الثلاث.

حاجيات من النوع الذي تتوقعونه: عطر وزوج من المراوح وثلاثة

أمشاط من النوع الغالي. وحين انتهيت توقفت في «بار دونوفان» وشربت البيرة وتحدثت إلى صاحب المحل ثم عدت إلى رصيف سان فرانسيسكو، فتوقفت في ثلاثة أو أربعة أمكنة لاحتساء البيرة على الطريق وقد اشتريت لفرانكي كأس شراب في «بار كونارد» ثم صعدت إلى سطح قاربي وأنا أشعر بالارتياح. كان قد تبقى معي لدى صعودي إلى سطح القارب أربعون سنتاً فقط. صعد فرانكي إلى السطح معي، وبينما جلسنا ونحن ننتظر جونسون احتسيت مع فرانكي زجاجتين باردتين من البيرة أخرجتهما من صندوق الثلج.

لم يكن إيدي قد ظهر طوال الليل أو النهار، ولكني كنت أعرف إنه سيحضر أن عاجلاً أو آجلاً، ما أن تنتهي نقوده. لقد حكى لي دونوفان أنه كان في باره في الليلة السابقة برفقة جونسون، وكان إيدي يوزع الشراب على الحساب وقد انتظرنا وبدأت أتساءل عن سبب عدم ظهور جونسون. كنت قد تركت رسالة عند الرصيف أن يطلبوا منه الصعود إلى القارب وانتظاري، ولكنهم قالوا إنه لم يحضر. ومع ذلك فقد تصورت أنه كان قد تأخر في السهر خارجاً و لم ينهض من فراشه إلاّ حوالي الظهر. كانت المصارف تفتح حتى الثالثة والنصف. ثم رأينا الطائرة تخرج، وحوالي الخامسة والنصف ما عدت أشعر بالارتياح وانتابني الكثير من القلق.

في السادسة أرسلت فرانكي إلى الفندق ليرى إنه كان جونسون هناك. كنت ما أزال أظنّ أنّه يقضي وقتاً ممتعاً في مكان ما أو أنه في الفندق هناك، ولكن حالته الصحية لا تسمح له بالنهوض من الفراش. ولكني شعرت بقلق شديد لأنه كان مديناً لي بثمانمائة وخمسة وعشرين دولاراً.

غاب فرانكي أكثر من نصف ساعة بقليل. وحين رأيته قادماً كان يمشي بسرعة ويهز رأسه.

قال: لقد رحل على الطائرة.

حسناً لقد حصل ما حصل. كانت القنصلية قد أغلقت أبوابها. وكان معي أربعون سنتاً، والطائرة أصبحت في ميامي الآن على أية حال. ما كنت أستطيع إرسال برقية. يا له من سيد جونسون رائع ذاك! كانت تلك غلطتي. كان عليّ توقّع ذلك.

قلت لفرانكي: حسناً، فلنشرب زجاجة باردة على أية حال، فقد اشتراها السيد جونسون.

كان قد تبقى ثلاث زجاجات من نوع «تروبيكال».

أحس فرانكي بالغضب مثلي. لا أعرف كيف كان يمكن له أن يشعر بالغضب لكن بدا عليه ذلك. وقد ظلّ يربت على ظهري ويهزّ رأسه.

وهكذا حدث أن أصبت بالإفلاس. لقد خسرت خمسمائة وثلاثين دولاراً لقاء استئجار القارب، والعدة التي لم أعد أستطيع شراء بدل عنها حتى بثلاثمائة وخمسين دولاراً أخرى. كم ستسرّ تلك العصابة التي تتسكع حول الرصيف بسماع ما حدث، هكذا فكرت. سيجعل هؤلاء الفقراء سعيدين. وقبل يوم من ذلك كنت قد رفضت مبلغ ثلاثة آلاف دولار لقاء نقل ثلاثة غرباء للنزول في جزر «كيز»، أي على أية حال إخراجهم من البلد.

حسناً، ما الذي سأفعله الآن؟ لا أستطيع تهريب المشروبات لأني لا أملك النقود لشرائها، ولم يعد تهريبها يكسب نقوداً. فالمدينة قد أتخمتْ وليس هناك من يشتريها. ولكن فلتنزل عليّ اللعنة لو كنت سأعود إلى البيت مفلساً وأبقى جائعاً صيفاً كاملاً في تلك البلدة. وعلاوة على ذلك فانا لديّ أسرة أعيلها. كانت رسوم التخليص في الميناء قد دفعت لدى دخولنا. وفي العادة يتم الدفع للسمسار مقدماً وهو يدخلك ويقوم بالتخليص. يا للجحيم، لم يكن معي من النقود ما يكفي لملء القارب بالبنزين. كان وضعاً سيئاً على نحو غير متوقع. ويل له من شخص السيد جونسون ذاك!

قلت: عليّ أن أنقل شيئاً ما يا فرانكي. يجب أن أكسب بعض المال.

قال فرانكي: سأرى ما يمكنني عمله.

إنه يتسكع عند الشاطئ ويقوم بأعمال متفرقة، وهو من النوع الذي يتظاهر بالصمم ويشرب الكثير كل ليلة. ولكنك نادراً ما ترى شخصاً في مثل طيبة قلبه. لقد عرفته منذ بدأت بالعمل بالتهريب. لقد ساعدني على التحميل مرات عديدة. وحين تخليت عن تهريب المشروبات وبدأت أصطحب الرجال الأغنياء من هواة صيد سمك الراموح، وشرعت بهذا العمل في كوبا، فقد اعتدت أن أراه كثيراً وهو يتسكع عند رصيف الميناء والمقهى. لقد بدا عليه أنه أخرس، وكان يبتسم في العادة بدلاً عن الكلام، ولكن هذا بسبب صممه.

سألني فرانكي: هل تستطيع نقل أي شيء؟

قلت: طبعاً. لا خيار أمامي الآن.

– أي شيء.

– طبعاً وبكل تأكيد.

قال فرانكي: حسناً. أين ستكون؟

– سأكون في بار «بيرلا». عليّ أن آكل.

– يمكنك أن تتناول وجبة جيدة في بار «بيرلا» بخمسة وعشرين سنتاً. فكل شيء على قائمة الطعام سعره عشرة سنتات باستثناء الحساء الذي سعره خمسة سنتات. وقد سرت إلى هناك مع فرانكي، ثم دخلت إلى المطعم واستأنف هو السير. وقبل أن يذهب صافحني وربت على ظهري مرة أخرى.

قال: لا تقلق. أنا فرانكي. الكثير من السياسة. الكثير من العمل. الكثير من الشراب. لا نقود ولكنني صديق كبير. لا تقلق.

قلت: وداعاً يا فرانكي. لا تقلق أنت أيضاً أيها الصديق.

الفصل الثاني

دخلت إلى «البيرلا» وجلست إلى إحدى الموائد. كانوا قد وضعوا زجاجاً جديداً في الواجهة بدلاً عن ذلك الذي تحطم بفعل الرصاص، كما تم إصلاح الواجهة كلها. كان هناك الكثير من الإسبان الذين يشربون عند البار، وكان بعضهم يأكل. كان الجالسون إلى إحدى الموائد قد سبق لهم أن أكلوا وبدؤوا يلعبون لعبة الدومينو. تناولت حساء الفاصولياء السوداء وقطعة من لحم العجل المسلوق والبطاطا المسلوقة لقاء خمسة عشر سنتاً. كما إن زجاجة بيرة من نوع «هاتوي» جعلت المبلغ يصل إلى ربع دولار. وحين تحدثت مع النادل حول إطلاق الرصاص الذي حصل لم يقل أي شيء. كان الكثيرون خائفين.

أنهيت الوجبة واستندت إلى الخلف ودخّنت لفافة وشعرت بقلقٍ كبير. ثم رأيت فرانكي داخلاً من الباب وشخص ما خلفه. شخص من العرق الأصفر، كما فكرت. إذن هو من العرق الأصفر.

قال فرانكي: هذا هو السيد سينغ.

ثم ابتسم. لقد أنجز مهمته بسرعة فائقة وكان يعرف ذلك.

قال السيد سينغ: كيف حالك؟

كان السيد سينغ من أكثر الناس الذين رأيتهم دماثة. كان صينياً بالفعل، ولكنه يتكلم كانكليزي ويرتدي بذلة بيضاء وقميصاً حريرياً وربطة عنق سوداء وقبعة «باناما» من تلك التي يبلغ ثمنها مئة وخمسة وعشرين دولاراً. سألني:

- هل لك ببعض القهوة؟

- إن كنت تريد أنت أيضاً.

قال السيد سينغ: شكراً. أنحن لوحدنا هنا دون تطفل؟

قلت له: باستثناء كل من في المقهى.

قال السيد سينغ: حسناً. هل لديك قارب؟

قلت: نعم، وطوله ثمانية وثلاثون قدماً. وله محرك من طراز «كيرماث» بقوة مئة حصان.

قال السيد سينغ: آه. كنت أظنه أكبر.

- يمكنه أن يحمل مائتين وخمسة وستين صندوقاً دون أن تكون حمولته زائدة.

- هل لك أن تؤجره لي؟

- بأية شروط؟

- لا حاجة بك إلى الذهاب بنفسك. سأدبر أمر القبطان والطاقم؟

قلت: لا. أذهب معه أنّى ذهب.

قال السيد سينغ: حسناً.

ثم التفت إلى فرانكي وقال:

- هل لك أن تتركنا؟

بدا فرانكي مهتماً كما كان طوال الوقت وابتسم له.

قلت:

- إنه أصم. ولا يفهم الانكليزية كثيراً.

قال السيد سينغ:

- حسناً. أنت تتكلم الاسبانية. قل له أن ينضم إلينا لاحقاً.

أشرت لفرانكي بإبهامي. نهض وذهب إلى البار.

قلت: ألا تتكلم الإسبانية؟

قال السيد سينغ:

- أوه، أجل. والآن ما هي الظروف التي... التي من شانها أن تجعلك ترضى..؟

- أنا مفلس.

قال السيد سينغ:

- أوه، أرى ذلك. هل هناك ديون على القارب؟ هل هو عرضة للمصادرة؟

- لا.

قال السيد سينغ:

- حسناً إذن. كم شخصاً من مواطنيّ البؤساء يمكن لقاربك أن يؤوي؟

- تعني يحمل؟

- أجل.

- كم هي المسافة؟

- رحلة نهار واحد.

قلت:

- لا أعرف. يمكن أن يحمل اثني عشر منهم إن لم يكن معهم أمتعة.

- لن يكون معهم أمتعة.

- أين تريد نقلهم؟

قال السيد سينغ: ساترك هذا لك.

- أعني أين تريد مني أن أنزلهم؟

– ستنزلهم عند «تورتوغاس» حيث سيحضر مركب شراعي لنقلهم.

قلت: اسمع. هناك منارة في «تورتوغاس» عند «لوغرهيدكي» مع جهاز راديو يعمل بالاتجاهين.

قال السيد سينغ:

– صحيح. سيكون من الغباء إنزالهم هناك.

– ماذا سنفعل إذن؟

– قلت إنك ستنزلهم هناك. هذا ما يتطلبه عبورهم.

قلت: أجل.

– ستنزلهم في أفضل مكان ترتئيه.

– هل سيأتي المركب الشراعي إلى «تورتوغاس» لأخذهم؟

قال السيد سينغ: طبعاً لا. لكم هذا مضحك.

– كم يساوي الرأس منهم؟

قال السيد سينغ: خمسون دولاراً.

– لا.

– ما رأيك بخمسة وسبعين؟

– كم تحصل أنت عن كل رأس؟

– أوه، هذه مسألة أخرى تماماً. كما ترى فهناك وجوه عديدة أو زوايا إن شئت لقضية إصداري البطاقات. والمسألة لا تتوقف هناك.

قلت: أجل. وما يفترض بي فعله لا يجب أن يدفع شيء لقاءه أيضاً، أليس كذلك؟

قال السيد سينغ: أفهم وجهة نظرك تماماً. هل نقول مئة عن كل رأس؟

قلت: اسمع، هل تعرف كم سأقضي في السجن لو ألقي القبض عليّ لتورطي في هذه القضية؟

قال السيد سينغ: عشر سنوات. عشر سنوات على الأقل. ولكن لا داعي لدخولك السجن أيها القبطان العزيز. أنت ستخاطر بشيء واحد فقط: وذلك حين يصعد مسافروك إلى القارب وكل شيء آخر سيترك لك فيه حرية التصرف.

– ولو عادوا على مسؤوليتك؟

– هذا بسيط تماماً. سأتهمك أمامهم بأنك خنتني. ثم سأقدم دفعة جزئية وأرسلهم مرة أخرى. إنّهم يعرفون طبعاً أنها رحلة صعبة.

– وماذا عني أنا؟

– أعتقد أن عليّ أن أرسل خبراً إلى القنصلية.

– ها هه.

– ألف ومائتا دولار يا قبطان ليس بالمبلغ الذي يزدريه المرء في هذه الظروف؟

– متى سأحصل على النقود؟

– مئتان حين توافق وألف حين تحمّل.

– وإذا افترضنا أني هربت بالمائتين؟

ابتسم قائلاً:

– لن أفعل أي شيء طبعاً. ولكني أعرف أنك لن تفعل شيئاً كهذا يا قبطان.

– هل المائتان معك؟

– طبعاً.

– ضعها تحت الطبق.

– وقد فعل ذلك.

قلت:

- حسناً، سأقوم بالتخليص صباحاً وأرحل عند حلول الظلام. والآن، أين سنحمّل؟

- ما رأيك بالباكورانو؟

- حسناً.

- هل رشوت؟

- طبعاً.

قلت:

- والآن، فيما يخص التحميل. عليك أن تضيء نورين، الواحد منهما فوق الآخر، عند النقطة المحددة. سأدخل حين أراهما. اخرج بزورق وحمّلٍ من الزورق. تعال شخصياً واجلب النقود. ولن أحمل شخصاً واحداً على القارب ما لم أقبض النقود.

قال: لا. نصف المبلغ لدى البدء بالتحميل والنصف الآخر لدى الانتهاء منه.

- حسناً. هذا معقول.

- إذن كل شيء مفهوم؟

قلت: اعتقد ذلك. لا أمتعة ولا أسلحة. لا مسدسات ولا سكاكين أو أمواس. لا شيء. عليّ أن أعرف عن ذلك.

قال السيد سينغ: أيها القبطان، ألا ثقة لديك فيّ؟ ألا ترى أن مصالحنا متطابقة؟

- هل ستتكفّل بذلك؟

- أرجوك لا تحرجني. ألا ترى كيف تتلاقى مصالحنا؟

قلت له: حسناً. متى ستكون هناك؟

- قبل منتصف الليل.

قلت: حسناً. أعتقد أن هذا كل ما في الأمر.

– كيف تريد النقود؟

– بالمئات.

– وقف، وراقبته وهو يخرج. ابتسم له فرانكي وهو يمضي. لم ينظر السيد سينغ إليه. كان صينياً ناعم المظهر فعلاً. صيني رائع.

عاد فرانكي إلى المائدة. قال: حسناً؟

– أين تعرفت إلى السيد سينغ؟

قال فرانكي:

– إنه ينقل الصينيين. تجارة كبيرة.

– منذ متى تعرفه؟

قال فرانكي:

– إنّه هنا منذ عامين. كان هناك شخص يقوم بالعمل قبله. ولكن قتله أحدهم.

– وسيقتل أحدهم السيد سينغ أيضاً.

قال فرانكي:

– بالتأكيد. ولم لا؟ الكثير من التجارة الكبيرة.

قلت: ويا لها من تجارة!

قال فرانكي:

– تجارة كبيرة. نقل الصينيين الذين لا يعودون أبداً. بعض الصينيين يكتبون رسائل ويقولون فيها إن كل شيء على ما يرام.

قلت: رائع!

– هذا النوع من الصينيين لا يعرف الكتابة. كل الصينيين الذين

يستطيعون الكتابة أغنياء. يعيشون على الأرز. هنا مئة ألف صيني. وثلاث نساء صينيات فقط.

– لماذا؟

– الحكومة لا تسمح.

قلت: وضع أشبه بالجحيم.

– وهل اتفقت معه على عمل؟

– ربما.

قال فرانكي:

عمل جيد. أفضل من السياسة. كثير من النقود. كثير من التجارة الكبيرة.

قلت له: اشرب زجاجة بيرة.

– ألم تعد قلقاً الآن؟

قلت: لا بحق الجحيم. الكثير من التجارة الكبيرة. ممتنّ لك كثيراً.

قال فرانكي: حسناً.

ثم ربت على ظهري.

– هذا يجعلني سعيداً أكثر من أي شيء آخر. كل ما أريده هو أن تكون سعيداً. الصينيون تجارة جيدة، أليس كذلك؟

– رائعة.

قال فرانكي: هذا ما يسعدني.

لاحظت أنه كان مستعداً للبكاء فقد كان مسروراً جداً لأن كل شيء سار على ما يرام، ربّت على ظهره. يا له من فرانكي رائع. وكان أول عمل فعلته في الصباح هو أني ذهبت لمقابلة السمسار وطلبت منه التخليص. طلب لائحة بأسماء الطاقم فقلت له إنه لن يكون معي طاقم.

– هل ستعبر وحدك يا قبطان؟

– أجل.

– وما حلّ بمساعدك؟

– إنه سكران.

– ولكن ذهابك وحيداً فيه خطر كبير.

قلت:

– إنها تسعون ميلاً فقط. أتعتقد أن وجود سكّير على القارب سيكون أفضل؟

أسرعت إلى رصيف «ستاندارد أويل» عبر الميناء وملأت الخزانين كليهما. كان القارب يتسع لمائتي غالون لدى ملئه بالكامل. كنت أكره شراء البنزين بثمانية وعشرين سنتاً للغالون ولكنني لم أكن أعرف أين سنذهب.

منذ أن رأيت الرجل الصيني وأخذت النقود منه رحت أشعر بالقلق تجاه هذه الصفقة. لا أعتقد أني نمت طوال الليل. أعدت القارب إلى رصيف سان فرانسيسكو، وهناك رأيت «إيدي» ينتظرني على الرصيف.

قال وهو يلوّح بذراعيه: مرحباً يا هاري.

رميت له بحبل المؤخرة فربطه بسرعة، ثم صعد إلى السطح أطول قامة وأكثر إجهاداً وثمالة من أي وقت مضى. لم أقل له أي شيء. سألني:

– ما رأيك بذلك الشخص جونسون الذي هرب على ذلك النحو يا هاري؟ ما رأيك بذلك؟

قلت: اخرج من هنا. أنت تجلب لي سوء الطالع.

يا أخي، ألا أشعر بالغضب مثلك تماماً من هذه المسألة؟

قلت له: انزل.

ولكنه استقر في الكرسي ومدّ ساقيه. قال:

– سمعت أننا سنعبر البحر اليوم. حسناً، أعتقد أنه لا فائدة من المكوث هنا.

– أنت لن تذهب معي.

– ما الحكاية يا هاري؟ لا فرق عندي إذا ضُربت.

– لا؟ انزل من القارب.

ضربته على وجهه فوقف ونزل إلى الرصيف. قال:

– ما كنت لأفعل بك هذا يا هاري.

– أنت على حق تماماً. لن آخذك معي. هذا كل ما في الأمر.

– حسناً، ولماذا ضربتني إذن؟

– حتى تصدقني.

– ما الذي تريدني أن أفعله هنا؟ أن أبقى وأتضور جوعاً؟

قلت:

– جع بحق الجحيم. يمكنك أن تعود على العبّارة. يمكنك أن تعمل لقاء أجرة العودة.

قال: أنت لا تعاملني بعدل.

قلت له:

– ومن ذا الذي عاملته أنت بعدل أيها السكّير؟ أنت مستعد لخيانة أمك بالذات.

كان ذلك صحيحاً أيضاً. ولكني شعرت بالندم لضربه. أنت تعرف كيف يكون شعورك حين تضرب سكيراً. ولكن ما كان ممكناً حمله معي والأمور على ما هي عليه الآن، ولا حتى لو كنت أريد ذلك.

بدأ يمشي على امتداد الرصيف وهو يبدو أطول من نهار بدون إفطار. ثم التفت وعاد.

– ما رأيك أن تعطيني دولارين يا هاري؟

أعطيته ورقة من فئة الخمسة دولارات من نقود الرجل الصيني.

– أنت شؤم.

– حظك مسدود، هذا كل ما في الأمر. لا يهمّ أيها الرفيق القديم. ستسرّ برؤيتي مرة أخرى.

والآن بعد قبض النقود، ابتعد بسرعة، ولكني أقول لكم إن منظره وهو يمشي يبعث على الغثيان. كان يمشي وكأنّ مفاصله تتجه نحو الخلف.

ذهبت إلى «البيرلا» وقابلت السمسار فأعطاني الأوراق وطلبت له كأساً. ثم تغذيت ودخل فرانكي.

قال وهو يسلمني أنبوباً ملفوفاً ومربوطاً بخيط أحمر:

– أعطاني شخص هذا وقال لي أن أوصله لك.

كان يبدو كصورة فوتوغرافية حين فككته. ثم نشرته وفي ظني أنها صورة التقطها شخص ما للقارب وهو على الرصيف. حسناً، كانت صورة مقرّبة لرأس وصدر زنجي ميت وقد ذبح من الوريد إلى الوريد ثم خيط الجرح على نحو جيد، وقد علقت على صدره بطاقة تقول بالإسبانية: «هذا ما نفعله بأصحاب الألسنة الطويلة».

سألت فرانكي: من أعطاها لك؟

أشار إلى شاب إسباني يعمل على الأرصفة والذي كان السلّ قد أنهكه تماماً. وكان هذا يقف الآن عند نضد وجبات الغداء.

– اطلب منه أن يأتي إلى هنا.

وصل الشاب. قال إن شابين أعطياها له حوالي الساعة الحادية عشرة. وقد سألا، إن كان يعرفني فقال لهما نعم. ثم أعطاها هو إلى فرانكي ليعطيها لي وقد نقداه دولاراً حتى يوصلها لي. كانا يرتديان ملابس جيدة كما قال.

قال فرانكي: سياسة.

قلت: أوه، أجل.

– يعتقدون أنك أبلغت الشرطة بأنك كنت ستقابل أولئك الشبان الثلاثة هنا في ذلك الصباح.

– أوه، أجل.

قال فرانكي: سياسة رديئة. هذا جيد لك.

سألت الشاب الإسباني: هل تركا أي رسالة؟

قال: لا، بل طلباً مني أن أعطيك هذه فحسب.

قلت لفرانكي: سأغادرك الآن.

قال فرانكي: سياسة رديئة. سياسة رديئة جداً.

كانت كل الأوراق التي أعطاني إياها السمسار في رزمة واحدة، فدفعت الفاتورة وخرجت من ذلك المقهى وعبرت الساحة ثم البوابة، وكنت سعيداً جداً لعبوري المستودع والخروج إلى الرصيف. لقد أخافني أولئك الشبان فعلاً. إنهم أغبياء بالفعل إذا ظنّوا أني وشيت بأولئك الشبان. كان هذان الشابان أشبه ببانتشو. فحين شعرا بالخوف استثيرا، وحين استثيرا أرادا أن يقتلا شخصاً ما.

صعدت إلى سطح المركب وشغّلت المحرّك. وقف فرانكي على الرصيف وراح يراقب. كان يبتسم تلك الابتسامة الصمّاء المضحكة. عدت إليه. قلت:

– اسمع. لا أريدك أن تتورط في أية مشكلة تتعلق بهذا.

لم يستطع أن يسمعني. كان عليّ أن أصرخ.

قال فرانكي: أنا سياسة جيدة.

ثم حرّر القارب.

الفصل الثالث

لوّحت لفرانكي الذي رمى بحبل القارب على السطح واتجهت به خارج المزلق ونزلت إلى القناة. كانت سفينة شحن بريطانية تخرج منها وسرت إلى القرب منها ثم تجاوزتها. كانت محمّلة حتى أعماقها بالسكر وكانت ألواحها صدئة. كان بحار إنكليزي في سترة زرقاء عتيقة ينظر إليّ من مؤخر السفينة وأنا أمرّ بها. خرجت من الميناء وعبرت «المورو» ووضعت القارب على المسمار المؤدي إلى «كي وست»، نحو الشمال. تركت العجلة وذهبت إلى المقدمة ولففت الحبل ثم عدت وسرت بالقارب على المسار وهافانا تنتشر عند المؤخرة، ثم لم أعد أراها خلفنا بعد أن أصبحت خلف الجبل.

أصبح «المورو» وراء مرمى النظر بعد فترة، ثم «ناشنال هوتيل» وأخيراً ما عدت أستطيع رؤية قبة «الكابيتول». لم يكن هناك تيار قويّ بالمقارنة مع آخر يوم صدنا السمك فيه، وكان هناك نسيم لطيف فحسب. رأيت زوجاً من المراكب الشراعية وحيدة الصاري يتجهان نحو هافانا قادمين من الغرب، لذا عرفت أن التيار خفيف.

أطفأت المحرك. لم يكن هناك أي جدوى من إهدار البنزين. سأترك القارب تجرفه الأمواج. وحين يحل الظلام أستطيع دائماً أن أرى نور «المورو» أو، إذا انجرف القارب بعيداً جداً، سأرى أنوار «الكوجيمار» فأقوده وأسير به على امتداد «الباكوراناو». تخيّلت من شكل التيار أنّ القارب سينجرف مسافة الأميال الاثني عشر حتى «الباكوراناو» في الظلام وسأرى أنوار «باراكووا».

حسناً، أوقفت المحرك وصعدت إلى المقدمة لأرى ما حولي. كل ما رأيته هناك كان المركبان الشراعيان المنطلقان من جهة الغرب، وقبة الكابيتول البارزة من حافة البحر. كانت هناك بعض الطحالب البحرية في التيار وبعض الطيور التي تعمل عليها، ولكنها قليلة. جلست فترةً فوق سطح الكابين ورحت أراقب، ولكن السمك الوحيد الذي رأيته كان ذلك البني اللون الذي يعيش حول الطحالب. يا أخي، لا تسمح لأحد أن يقول لك إنه لا توجد مياه كثيرة بين هافانا وكي وست. لقد كنت على طرفها فحسب.

بعد برهة نزلت إلى القمرة مرة أخرى وهناك رأيت «إيدي».

– ما الخبر؟ ما حكاية المحرك.

– لقد تعطل.

– لماذا لم ترفع البويب؟

قلت: أوه، يا للجحيم!

– هل تعرف ما الذي فعله؟ لقد عاد مرة أخرى وفتح البويب الأمامي ونزل إلى القمرة ونام. كان معه ربعا غالون من الشراب. فقد كان قد دخل أول دكان لبيع الشراب رآه واشترى الشراب وصعد إلى سطح القارب. وحين انطلقت بالقارب استيقظ ثم عاد إلى النوم مرة أخرى. وحين أوقفته في الخليج وبدأ يتقلّب قليلاً مع الامواج استيقظ مجدداً. قال:

– عرفت أنك ستأخذني يا هاري.

قلت: سآخذك إلى جهنم. أنت تعرف أنك لست حتى على قائمة طاقم القارب. أنا أفكر في جعلك تقفز من السطح الآن.

قال: أنت صاحب نكتة عتيق يا هاري. علينا نحن الفقراء أن نقف يداً واحدة حين نقع في ورطة.

قلت له: أنت يا صاحب الفم الكبير. من سيثق بفمك حين تكون ثملاً؟

- أنا رجل طيب يا هاري.. اختبرني وستعرف أي رجل طيب أنا.

قلت له: هات الربعين.

- كنت أفكر في شيء آخر.

أخرجهما وشربت من الزجاجة المفتوحة ثم وضعتهما عند العجلة. وقف هناك ورحت أنظر إليه. كنت أشعر بالأسف لما سأضطر إلى فعله. يا للجحيم، كنت أعرفه حين كان رجلاً طيباً.

- ما حكايتك يا هاري؟

- أنا على ما يرام.

- ما الحكاية إذن؟ لم تنظر إليّ هكذا؟

قلت وأنا أشعر بالأسف عليه:

- يا أخي، أنت واقع في ورطة كبيرة.

- ما الذي تعنيه يا هاري؟

- لا أعرف بعد. ليس لديّ تصوّر كامل للمسألة بعد.

جلسنا هناك لفترة و لم أعد اشعر بالرغبة في التحدث إليه. ما إن عرفت ذلك حتى أصبح صعباً عليّ التحدث إليه. ثم نزلت إلى الأسفل وأخرجت المسدس متواصل الطلقات والبندقية الونشستر «٣٠-٣٠» اللذين كنت احتفظ بهما دائماً في القمرة وأعلّقهما في محفظتيهما من أعلى القمرة حيث نعلق الصنانير عادة، فوق عجلة القيادة، حيث أستطيع أن أصل إليهما. جرت العادة أن أضعهما في محفظتين لهما الطول نفسه الذي للسلاحين، وهما مصنوعتان من الصوف المجزوز والصوف الذي في الداخل مشرّب بالزيت. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنك بها أن تمنع الصدأ عنهما في القارب.

أنزلت المسدس واختبرته عدة مرات ثم ملأته وأدخلت طلقة في السبطانة. ثم وضعت خرطوشة في غرفة انفجار بندقية الونشستر وملأت مخزنها. أخرجت مسدس «سميث وويسون» الخاص من عيار ثمانية

وثلاثين الذي كان لديّ حين كنت أعمل شرطياً في ميامي، وذلك من تحت الفراش ونظفته وزيّته ووضعته في حزامي.

قال إيدي: ما المسألة؟ ما المسألة بحق الجحيم؟

قلت له: لا شيء.

- ولماذا كل المسدسات اللعينة إذن؟

قلت: أنا أحملها دائماً على القارب. لأضرب الطيور التي تقترب من الطعوم أو سمك القرش أو للإبحار على امتداد الجزر.

قال إيدي: ما الحكاية؟ اللعنة! ما الحكاية؟

قلت له: لا شيء.

جلست هناك والمسدس القديم من عيار ثمانية وثلاثين يرتمي بتثاقل على ساقي حين تأرجح القارب ونظرت إليه. فكرت أنه لا مغزى من ارتكاب الأمر الآن. سأكون في حاجة إليه الآن.

قلت: سنقوم بعمل صغير. في باكوراناو. سأقول لك عنه في الوقت المناسب.

لم أكن أريد أن أخبره مقدماً لأنه سيشعر بالقلق ثم سيروّع إلى حد أنه لا يعود ذا نفع.

قال: لا يمكنك أن تصطحب أحداً أفضل مني يا هاري. أنا الرجل المناسب لك. أنا معك في أي مهمة.

نظرت إليه، كان طويلاً ومنهكاً ومرتجفاً، و لم أقل أي شيء. قال:

- اسمع يا هاري. هل لك أن تعطيني جرعة واحدة؟ لا أريد أن أصاب بالرجفة.

أعطيته جرعة ثم جلسنا وانتظرنا حتى يحلّ الظلام. كان الغروب جميلاً والنسيم عليلاً، وحين غربت الشمس تماماً أدرت المحرك واتجهت بالقارب ببطء نحو البر.

الفصل الرابع

توقفنا بعيداً عن الشاطئ مسافة ميل تقريباً في الظلام. كان التيار قد عاد مجدداً مع غروب الشمس. ولاحظته وهو يدخل. استطعت أن أرى نور «المورو» حتى جهة الغرب وتوهج هافانا؛ والأنوار المقابلة لنا كانت «رينكون» و«باراكووا». سرت به ضد التيار حتى تجاوزت «باكوراناو» ووصلت حتى «كوجيمار» تقريباً. ثم جعلته ينجرف. كان الظلام شديداً إلا أني كنت أستطيع معرفة مكاننا جيداً. أطفأت الأنوار كلها.

سألني إيدي:

– ما الذي سيحدث يا هاري؟

كان الخوف بادياً عليه مجدداً.

– ما هو ظنّك؟

قال: لا أعرف. لقد جعلتني أشعر بالقلق.

كان على وشك أن يصاب بالرجفة وحين اقترب مني كانت له أنفاس كأنفاس الطير الجارح.

– كم الساعة؟

قال: سأنزل وأرى.

عاد إلى السطح وقال إنها التاسعة والنصف.

سألته: أأنت جائع؟

قال: لا. تعرف أني لا أستطيع أن آكل يا هاري.

قلت: حسنا. يمكنك أن تأخذ جرعة.

بعد أن تناول جرعة سألته عن حاله. قال إنه على ما يرام. قلت له:

- سأعطيك جرعتين أخريين خلال فترة قصيرة. أعرف أنك لا تملك الشجاعة إلاّ إذا كنت قد شربت الروم ولا يوجد الكثير منه على القارب. لذا فالأجدر بك أن تتمهّل بشربه.

قال إيدي: قل لي ما الحكاية.

قلت وأنا أحدثه في الظلام:

- اسمع. سنذهب إلى باكورانا لنقل اثني عشر صينياً. خذ عجلة القيادة حين أقول لك وأفعل ما آمرك به. سنأخذ الصينيين الاثني عشر ونحبسهم في الأسفل هناك إلى الأمام. تقدم الآن واربط البويب من الخارج.

ذهب، رأيته كالظل في الظلام. عاد وقال:

- يا هاري، هل لي بإحدى الجرعتين الآن؟

قلت: لا. أريدك شجاعاً من شرب الروم، لا ثملاً لا فائدة ترجى منه.

- أنا رجل طيب يا هاري. سترى ذلك.

قلت: أنت سكير. اسمع. سيجلب شخص صيني الاثني عشر رجلاً صينيا. سيعطيني بعض النقود في البداية. وحين يكون الجميع قد صعدوا إلى المركب سيعطيني نقوداً أخرى. وحين تراه يسلمني النقود في المرة الثانية انطلق بالمركب بأقصى سرعة نحو البحر. لا تكترث بما يحدث. اجعل القارب يخرج إلى البحر مهما يحدث. هل تفهم؟

- أجل.

- إذا حاول أي صيني الخروج من القمرة أو الدخول من البويب، عندما نكون قد انطلقنا في طريقنا، فخذ المسدس واضربه بالرصاص وهو يخرج. هل تعرف كيف تستخدم المسدس؟

– لا، ولكنك تستطيع أن تريني كيف.

– لن تتذكر أبداً. هل تعرف كيف تستخدم الونشستر؟

– أرفع قبضة المغلاق وأطلق النار.

قلت: صحيح. ولكن لا تحدث أي ثقوب في بدن القارب.

قال إيدي: الأفضل أن تعطيني جرعة أخرى.

– حسناً. سأعطيك جرعة صغيرة.

أعطيته جرعة قوية. عرفت أن هذه الجرعات ما كانت لتسكره الآن، ليس بعد صبّها على كل ذلك الخوف. ولكن كل جرعة كانت تعطي تأثيرها لفترة قصيرة. وبعد أن شرب هذه الجرعة قال إيدي وكأنه سعيد:

– إذن سنهرّب صينيين. حسناً، والله لقد كنت أقول دائماً إني سأهرّب الصينيين لو كنت مفلساً.

– ولكنك لم تفلس حتى الآن، أليس كذلك؟

هذا ما قلته له. وقد كان مضحكاً بالفعل.

أعطيته ثلاث جرعات أخريات لأجعله شجاعاً قبل العاشرة والنصف. كان من المضحك مراقبته وكان ذلك يجعلني لا أفكر بالأمر. لم أكن أتصوّر كل هذا الانتظار. كنت قد خطّطت للانطلاق بعد حلول الظلام، أن أسير بعيداً عن التوهّج ثم على امتداد الشاطئ إلى كوجيمار.

قبل الحادية عشرة بقليل رأيت النورين يظهران عند النقطة المحددة. انتظرت قليلاً ثم سرت بالقارب ببطء. كان في باكوراناو جونا رصيف كبير لتحميل الرمل. وهناك نهر صغير يدخله حين تفتح الأمطار الحاجز عبر المدخل. تقوم الرياح الشمالية في الشتاء بتكويم الرمل فتسدّ النهر. وقد اعتادوا دخوله بالمراكب الشراعية الصغيرة وهم يحملون ثمار الجوافة من شاطئ النهر، وكانت هناك بلدة أيضاً. ولكن الإعصار دمرها وأخذها

في طريقه باستثناء منزل واحد بناه الإسبان من الأكواخ حين يخرجون للسباحة والتنزه من هافانا. وهناك منزل آخر يعيش فيه المندوب، ولكنه بعيد عن الشاطئ.

لكل مكان صغير كهذا على امتداد الشاطئ مندوب حكومي، ولكني تصورت أن الصيني سيستخدم قارباً خاصاً به ويرشو المندوب. وحين دخلنا استطعت أن أشمّ رائحة عنب البحر وتلك الرائحة الحلوة للأدغال التي تشمّها بعيداً عن البر.

قلت لإيدي: اذهب إلى المقدمة للمراقبة!

قال: لا يمكنك أن تصطدم بشيء على هذا الجانب. الحيد البحري على الجانب الآخر وأنت داخل.

كما ترون، فقد كان هو بحّاراً جيداً ذات مرة. قلت:

– راقب القارب.

ثم أدخلته إلى مكان أعرف أنهم سيروننا فيه. وإن لم تكن هناك أمواج، سيستطيعون سماع صوت المحرك. ما كنت أريد الانتظار دون أن أعرف إن كانوا قد رأونا أم لا، لذا أضأت الأنوار الكاشفة مرة واحدة، الخضراء والحمراء منها، ثم أطفأتها، ثم درت بالقارب واتجهت خارجاً وجعلته يتوقف هناك، في الخارج، والمحرك لا يزال يتكّ. كانت هناك موجه طويلة أدركتنا.

قلت لإيدي: عد إلى هنا!

ثم أعطيته جرعة قوية. همس لي:

– هل ترفع الديك أوّلاً بإبهامك؟

كان جالساً إلى عجلة القيادة الآن وكنت قد مددت يدي وأنزلت كلا الكيسين وفتحتهما وكان عقبا البندقية خارجين حوالي ستة بوصات.

– هذا صحيح.

– أوه «بوي».

كان رائعاً بالفعل ذلك الذي يمكن للشراب أن يفعله به، وبكل تلك السرعة أيضاً.

مكثنا هناك وكنت قادراً على رؤية نور قادم من حيث المندوب عبر المدخل. رأيت النورين عند النقطة المحددة وهما ينزلان، ثم يتحرك أحدهما من حول النقطة. لا بدّ أنّهم أطفؤوا النور الأول.

ثم، وبعد فترة قصيرة، رأيت زورقاً يخرج من الجون باتجاهنا وعليه رجل يجدِّف. استطعت أن أعرف من الطريقة التي كان يتأرجح بها إلى الخلف وإلى الأمام، عرفت أن معه مجدافاً كبيراً. وقد سررت كثيراً. إن كانوا يجدفون فذاك يعني رجلاً واحداً.

وصلوا إلى القرب منا.

قال السيد سينغ: مساء الخير يا قبطان.

قلت له: تعال إلى المؤخرة، وضع الزورق إلى جانب القارب!

قال شيئاً للصبي الذي كان يجدف ولكنه لم يستطع أن يجد ل ف نحو الخلف، لذا أمسكت بشفير الزورق وقرّبته من مؤخرة القارب. كان في الزورق ثمانية رجال. ستة أشخاص صينيون والسيد سينغ والصبي الذي يجدف. وبينما كنت أشدّ الزورق نحو مؤخر القارب، كنت أنتظر أن يضربني شيء ما على أم رأسي ولكن ذلك لم يحدث. نهضت وجعلت السيد سينغ يتمسك بالمؤخرة.

قلت: لنر كيف تبدو.

– سلّمها إلي فأخذت الرزمة إلى حيث كان إيدي عند عجلة القيادة وأضأت نور البوصلة. نظرت إليها بعناية. بدت الرزمة على ما يرام فأطفأت النور. كان إيدي يرتجف.

قلت: صب لنفسك جرعة.

رأيته يمدّ يده إلى الزجاجة ويقبلها.

عدت إلى مؤخر القارب. قلت: حسناً. دع ستة يصعدون إلى السطح.

كان السيد سينغ والكوبي الذي يجدف يحاولان منع الزورق من الانقلاب ضمن تلك الموجة الطويلة. سمعت السيد سينغ يقول شيئاً بالصينية وبدأ كل الصينيين الذين على الزورق بالصعود إلى مؤخر القارب.

قلت: كل واحد بدوره.

قال شيئاً ما مرة أخرى، ثم صعد الصينيون الستة الواحد في إثر الآخر إلى مؤخر القارب. كانوا من الطول والحجم ذاته.

قلت لايدي: أرهم الطريق.

قال إيدي: من هنا يا سادة.

يا للرب، لقد عرفت أنه تناول جرعة قوية.

قلت له بعد أن دخلوا جميعاً: اقفل باب القمرة.

قال إيدي: حاضر يا سيدي.

قال السيد سينغ: سأعود بالآخرين.

قلت له: حسناً.

دفعت الزورق حتى ابتعد عن القارب وبدأ الصبي يجدف.

قلت لإيدي: اسمع. أبعد تلك الزجاجة. أنت شجاع بما فيه الكفاية الآن.

قال إيدي: حاضر يا رئيس.

- ما خطبك؟

قال إيدي: هذا ما أحبّ أن أفعله. قلت إن عليّ أن أجذبه إلى الخلف بإبهامي؟

قلت له: أيها السكير القذر. أعطني جرعة من تلك.

قال إيدي: لقد فرغت. آسف يا رئيس.

– اسمع. إن ما عليك أن تفعله الآن هو أن تراقب حين يسلمني النقود فتنطلق بالقارب.

قال إيدي: حاضر يا رئيس.

مددت يدي وأخرجت الزجاجة الأخرى وأحضرت مفتاح الزجاجات وجذبت الفلينة. أخذت جرعة قوية ثم عدت إلى مؤخر القارب، وأنا أسدّ الزجاجة وأضعها خلف دورقين مقشّشين مملوءين ماء.

قلت لإيدي: ها هو السيد سينغ قد حضر.

قال إيدي: نعم يا سيدي.

ظهر الزورق والمجداف يقرّبه منا. جلبه حتى المؤخرة فجعلتهم يثبتونه بقاربنا. كان السيد سينغ يمسك بالبكرة التي نضعها في المؤخر لننزلق عليها السمك الكبير.

قلت: دعهم يصعدون واحداً واحداً.

صعد ستة صينيين متجانسين آخرين إلى السطح عبر المؤخر.

قلت لإيدي: افتح الباب ودلّهم على الطريق.

قال إيدي: نعم يا سيدي.

– اقفل باب القمرة.

– نعم يا سيدي.

رأيت أنه قد أصبح عند عجلة القيادة. قلت:

– حسناً يا سيد سينغ. دعنا نرَ البقية.

وضع يده في جيبه ثم مدّها بالنقود نحوي. مددت يدي إليها وأمسكت بمعصمه والنقود في يده، وحين تقدم إلى الأمام باتجاه المؤخر

أمسكت بعنقه باليد الأخرى. أحسست بالقارب يثب ثم يضطرب إلى الأمام وهو ينطلق وكنت منشغلاً جداً بالسيد سينغ، ولكني استطعت أن أرى الكوبي يقف في مؤخر الزورق حاملاً المجداف بينما رحنا نبتعد عنه عبر كل التخبّط والاضطراب اللذين كان السيد سينغ يقوم بهما. كان يتخبط ويضطرب أسوأ من دلفين غرز فيه رمح.

أمسكت بذراعه من الخلف ولويتها ولكن إلى حد بعيد جداً لأني شعرت بها تنفصل وحين طقّت أصدرت صوتاً صغيراً وصار اتجاهها نحو الأمام، وأنا أمسكه من حنجرته وقد عضني في الكتف. ولكني حين شعرت أن ذراعه قد طقّت تركتها تسقط. لم تعد تنفعه الآن. وقد أمسكت به الآن من حنجرته، بيديّ كلتيهما، ويا أخي، لقد تخبّط السيد سينغ ذاك كأنه سمكة، وذراعه المطقوقة تتأرجح. ولكني جلبته على ركبتيه ثم جعلت كلا إبهاميّ خلف فمه ثم لويت هذا كله إلى الخلف حتى طقطق. لا تظنّن أنك لا تستطيع سماعها وهي تطقطق.

أمسكت به وهو ساكن لمدة ثانية، ثم مددته عبر المؤخر. وقد قبع هناك، ووجهه إلى الأعلى، ساكناً في ملابسه الفخمة، وقدماه في قمرة القيادة. ثم تركته.

لملمت النقود من أرض قمرة القيادة ورفعتها ووضعتها على نور البوصلة وعددتها. ثم أخذت عجلة القيادة وطلبت من إيدي أن ينظر تحت المؤخر علّه يجد بعض قطع الحديد التي كنت أستخدمها للرسو كلما كنا نصيد في القاع في بقع صخرية حيث لا يرغب المرء بالمخاطرة بالمرساة.

قال: لا أجد شيئاً.

كان خائفاً من كونه هناك إلى القرب من السيد سينغ.

قلت: خذ العجلة. انطلق بالقارب في عرض البحر.

كانت هناك بعض الحركة في الأسفل ولكني ما كنت خائفاً منهم.

وجدت قطعتين من التي كنت أريد، حديداً من رصيف تحميل قديم للفحم في جزر «التورتوغاس». أخذت قطعة من حبل لصيد السمك النهّاش الضخم وربطت قطعتي الحديد جيداً بكاحلي السيد سينغ. ثم حين كنا بعيدين حوالي الميلين عن الشاطئ جعلته ينزلق من على القارب. وقد انزلق بنعومة على البكرة. لم أكن قد فتشت جيوبه قط. ما كنت راغباً في التعامل معه بعد ما حدث.

كان قد نزف قليلاً على مؤخر القارب من أنفه وفمه، وقد غطست دلواً من الماء كاد يوقعني من المركب بسبب السرعة التي كنا نسير بها، ونظفت القارب جيداً بفرشاة تنظيف أخرجتها من تحت المؤخر.

قلت لإيدي: أبطئ.

قال إيدي: وماذا لو طفا؟

– لقد أسقطته في عمق سبعمائة قامة. وهو سينزل إلى كل ذلك العمق. وهي مسافة طويلة يا أخي. لن يطفو حتى يرفعه الغاز وسوف يمشي مع التيار طوال الوقت ويكون طعماً للسمك. يا لجهنم، ليس عليك أن تقلق على السيد سينغ.

سألني إيدي: وما لديك ضده؟

قلت: لا شيء. كان أكثر الرجال الذين قابلتهم سهولة في التعامل. ظننت أنه لا بدّ وأن يكون في المسألة شيء على غير ما يرام.

– و لم قتلته؟

قلت: حتى لا يقتل اثني عشر صينياً آخرين.

قال: يا هاري. علك أن تعطيني جرعة لأني أستطيع أن أشعر بالرجفة تعود. لقد أصبت بالغثيان لرؤيتي رأسه وهي مدلاّة بتلك الطريقة.

لذا أعطيته جرعة.

قال إيدي: وماذا عن الصينيين الآخرين؟

قلت له: أريد إخراجهم بأسرع ما أستطيع. قبل أن يفسدوا رائحة القمرة.

– أين ستنزلهم؟

– سنسير إلى اليمين على الشاطئ الطويل.

– هل ندخل به الآن؟

قلت: طبعاً. أبطئ.

دخلنا ببطء عبر الحيد البحري وإلى حيث استطعت أن أرى الشاطئ يلتمع. هناك الكثير من الماء فوق الحيد وفي الداخل يكون القعر رملياً وكذلك المنحدرات حتى الشاطئ.

– اذهب إلى المقدمة وأعطني العمق.

ظل يقيس العمق بعمود القياس وهو يشير إليّ بالعمود. وقد عاد فأشار إليّ أن أقف، وقد ذهبت إلى مؤخر القارب.

– لديك حوالي خمسة أقدام.

قلت: علينا أن نرمي المرساة. إذا حدث أي شيء يجعلنا دون وقت كاف للانطلاق به، يمكننا أن نقطع المرساة أو نوقفه.

مدّ إيدي الحبل وحين لم يتحرّك القارب ثبّته. وقد تأرجح القارب والمؤخر نحو البحر. قلت:

– إنه قاع رمليّ كما تعرف.

– كم لدينا من الماء عند المؤخر؟

– ليس أكثر من خمسة أقدام.

قلت: خذ البندقية وكن حذراً.

قال: دعني آخذ جرعة.

- كان عصبياً جداً.

أعطيته جرعة وأخذت المسدس وأنا أنزل. فتحت باب القمرة وقلت:

- اخرجوا.

لم يحدث أي شيء. ثم أبرز أحد الصينيين رأسه ورأى إيدي يقف هناك حاملاً البندقية فتوارى على الفور.

قلت: اخرجوا. لن يؤذيكم أحد.

لم يحدث شيء. سمعت الكثير من الحديث بالصينية فقط.

قال إيدي: اخرجوا.

يا إلهي! عرفت أن الزجاجة معه!

قلت له: أبعد الزجاجة، أو سأنسفك بحيث تطير بعيداً عن القارب.

قلت لهم: اخرجوا، أو سأطلق النار عليكم وأنتم في الداخل.

رأيت أحدهم ينظر إلى زاوية البار فرأى الشاطئ على ما اتضح لي لأنه بدأ يثرثر.

قلت: هيا، اخرجوا أو أطلق النار.

وقد خرجوا.

والآن أقول لك إنه لرجل خسيس جداً ذاك يذبح مجموعة كهذه من الصينيين، وأراهن أنه ستكون هناك مشاكل كثيرة أيضاً، ناهيك عن الورطة.

خرجوا وكانوا خائفين ولم يكون معهم أي مسدسات بل كانوا اثني عشر رجلاً. سرت متراجعاً حتى مؤخر القارب وأنا أمسك بالمسدس.

قلت: انزلوا من القارب. الماء لا يصل إلى ما فوق رؤوسكم.

لم يتحرك أحد.

- هيا انزلوا.

لم يتحرك أحد.

قال إيدي: أيها الغرباء الصفر آكلي الجرذان. هيا انزلوا.

قلت له: أغلق فمك السكّير.

قال أحد الصينيين: لا أعرف السباحة.

قلت: لا داعي للسباحة، ليس عميقاً.

قال إيدي: هيا انزلوا.

قلت: تعال إلى المؤخر هنا. أمسك بمسدسك بيد واحدة وعمود القياس بالاخرى وأرهم كم يبلغ العمق هنا.

أراهم العمق وهو يمسك العمود المبلّل.

سألني أحدهم: لا حاجة إلى السباحة؟

- لا.

- حقا.

- أجل.

- أين نحن؟

- في كوبا.

- أيها اللعين المحتال.

هذا ما قاله ثم قفز من الجانب. تشبّث قليلاً بالقارب ثم أفلت يديه ونزلت رأسه تحت الماء ولكنه برز مجدداً وذقنه خارج الماء. قال:

- محتال لعين. محتال ملعون من الرب.

كان غاضباً جداً وشجاعاً إلى حد كبير. قال شيئاً ما بالصينية وبدأ الآخرون ينزلون إلى الماء من مؤخر القارب.

قلت لإيدي: حسناً. ارفع المرساة.

وحين انطلقنا برز القمر، وكان ممكناً مشاهدة الصينيين ورؤوسهم تبرز من الماء، ثم ها هم يمشون على الشاطئ، ثم التماع الشاطئ والدغل في الخلف.

خرجنا عبر الحيد البحري ونظرت إلى الخلف مرة أخرى ورأيت الشاطئ والجبال وقد بدأت تبرز. ثم وضعت القارب على خط السير إلى «كي وست».

قلت لإيدي:

– يمكنك أن تنام الآن. لا، انتظر، اذهب إلى الأسفل وافتح كل الأبواب حتى تخرج الرائحة العفنة واجلب لي المطهّر.

سألني حين جلبه لي: ما الخطب؟

– لقد جرحت أصبعي.

– هل تريد مني أن أدير دفة السفينة؟

قلت له: اذهب ونم. سأوقظك.

تمدد على السرير المبيّت في جدار القمرة، فوق خزان البنزين، وسرعان ما نام.

الفصل الخامس

أمسكت عجلة القيادة بركبتيّ وفتحت قميصي ورأيت أين عضّني السيد سينغ. كانت عضة قوية ووضعت عليها السائل المطهّر، ثم جلست هناك أوجّه السفينة وأتساءل إن كانت عضة صيني سامّة، وسمعت القارب يسير على نحو جميل وسريع والماء يغسله، وتصوّرت، ويا للجحيم، لا، إن العضّة لم تكن سامّة. ربما كان السيد سينغ يغسل أسنانه بالفرشاة مرتين أو ثلاث مرات يومياً. يا له السيد سينغ ذاك! لم يكن رجل أعمال ناجحاً. ربما كان. ربما وثق بي فحسب. أقول لك إني لم أستطع أن أتصوّره.

حسناً، الآن كان كل شيء على ما يرام باستثناء مسألة «إيدي». جلست هناك أوجّه القارب ونظرت إليه وفكرت، يا للجحيم، إنه أشبه بالميت على هذا النحو الذي أراه فيه، ثم سأكون حراً تماماً. حين اكتشفت وجوده على ظهر القارب قررت أن عليّ التخلّص منه ولكن حين سارت الأمور على ما يرام لم يطاوعني قلبي على قتله. ولكني إذ أنظر إليه الآن متمدّداً هناك أشعر بالإغراء حتماً. ولكني فكرت بعد ذلك بأنه لا مغزى من إفساد الأمر كله بارتكاب شيء سأشعر بالأسف عليه لاحقاً. ثم بدأت أفكر في أنه لم يكن حتى على لائحة الطاقم وعليّ أن أدفع غرامة لقاء إدخاله، و لم أعرف ماذا أفعل.

حسناً، كان لدي متّسع من الوقت للتفكير في الأمر وتركت القارب يسير في طريقه. بين الحين والآخر كنت أتناول جرعة من الزجاجة التي جلبها هو إلى القارب. لم يكن قد تبقى فيها الكثير، وحين أنهيتها، فتحت

الزجاجة الوحيدة التي تبقت لديّ، وأقول لك إني شعرت بالراحة وأنا أقود القارب، وكانت تلك ليلة جميلة للعبور. لقد انتهت مرحلة جيدة على أي حال، رغم أنها بدت في أحيان كثيرة، سيئة جداً.

مع الفجر استيقظ إيدي. قال إنه في أسوأ حال.

قلت له:

– خذ العجلة لدقيقة. أريد أن ألقي نظرة على القارب.

عدت إلى المؤخر ورميت عليه بعض الماء. ولكن القارب كان نظيفاً تماماً.

نظفت الجانب بالفرشاة. أفرغت البنادق من الرصاص وخبأتها في الأسفل ولكنني أبقيت المسدس في حزامي. كان المكان في الأسفل نظيفاً ولطيفاً كما قد تريده، لا رائحة إطلاقاً. كان قليل من الماء قد دخل عبر الباب الأيمن إلى أحد الأسرّة، لذا أغلقت الأبواب. لم يكن هناك موظف جمارك في العالم كله يستطيع أن يشمّ رائحة صيني واحد في القارب الآن.

رأيت أوراق التخليص في السلة الشبكية المعلقة تحت رخصة القارب حيث وضعتها حين صعدت إلى ظهر القارب، فأخرجتها لأدقّقها. ثم صعدت إلى القمرة.

قلت له: اسمع. كيف ذكر اسمك على لائحة الطاقم؟

– قابلت السمسار وهو في طريقه إلى القنصلية وقلت له إني ذاهب معك.

قلت له: الله يعتني بالسكيرين.

ثم أخذت المسدس عيار ثمانية وثلاثين وخبأته في الأسفل.

صنعت له بعض القهوة في الأسفل ثم صعدت وأخذت الدفّة. قلت له:

- هناك بعض القهوة في الأسفل.

- يا أخي، القهوة لا تنفعني أبداً.

- تعرف أنّ عليك أن تشعر بالأسى عليه. لقد بدا عليه أنه منهك.

في حوالي التاسعة رأيت ضوء منارة «ساندي كي» إلى الأمام مباشرة. كما قد رأينا ناقلات النفط تتجه إلى «الخليج» منذ فترة طويلة. قلت له:

- سنصل خلال ساعتين. سأعطيك الأربعة دولارات في اليوم الذي كان على جونسون أن يدفعها.

سألني: كم حصّلت الليلة الماضية؟

قلت له: ستمئة فقط.

لا أعرف إن كان قد صدقني أم لا.

- أليست لي حصة فيها؟

قلت له: هذه حصتك. ما قلته لك تواً، وإذا ما فتحت فمك حول ما حدث في الليلة الماضية سأعرف بذلك وسأقضي عليك.

- تعرف أني لست بالخائن يا هاري.

- أنت سكير. ولكن مهما أخرسك الروم، فإنك لو تكلمت عما حدث، فأنا على وعدي معك.

قال: أنا رجل موضع ثقة. ليس عليك أن تكلمني بهذه الطريقة.

قلت له : لا يمكنهم أن يصنعوا الروم بحيث يكون موثوقاً إلى حد يجعلك أهلاً للثقة.

ولكني لم أعد أشعر بالقلق من ناحيته، فمن سيصدقه؟ السيد سينغ لن يقدم أيّة احتجاجات. ولا أولئك الصينيون أيضاً. وكذلك الصيني الكوبي الذي كان يجدّف. لن يورّط بذاك نفسه. كان إيدي سيفشي السر إن عاجلاً أو آجلاً، ربما، ولكن من سيصدق سكيراً؟

عجباً، من يستطيع أن يثبت أي شيء؟ طبعاً كان من شأن وجود اسمه على لائحة الطاقم أن يتسبب في شائعات أخرى. كان هذا من حسن حظي. كنت أستطيع أن أقول إنه قد سقط من على ظهر المركب، ولكن كان من شأن هذا أن يثير لغطاً كثيراً. إيدي حظه جيد أيضاً. حظه جيد جداً بالفعل.

ثم وصلنا إلى حافة التيار و لم يعد الماء أزرق بل كان فاتحاً ومخضوضراً وفي الداخل استطعت أن أرى الخوازيق على جزر «الصخور الجافة الشرقية والغربية» وأعمدة البرق في «كي وست» وفندق «لاكونتشا» (الصدفة) يعلو على كل المنازل الواطئة، وكذلك دخاناً كثيفاً حيث كانوا يحرقون القمامة. كان ضوء منارة «ساندكي» قريباً جداً الآن وبإمكانك أن ترى المنزل/ القارب والرصيف الصغير إلى جانب المنارة وعرفت أننا لا نبعد سوى أربعين دقيقة تقريباً الآن، وشعرت أني في أحسن حال بسبب عودتي، ولدي مال كاف لفترة الصيف. سألته:

– ما رأيك بجرعة يا إيدي؟

قال: آه يا هاري. كنت أعلم دائماً بأنك صديقي.

في تلك الليلة كنت جالساً في غرفة الجلوس أدخّن سيجاراً وأشرب الويسكي والماء وأصغي إلى «غراسي آلن» على الراديو. كانت الفتيات قد ذهبن إلى السينما وكنت جالساً هناك أشعر بالنعاس وبأني على ما يرام. على الباب الأمامي كان شخص ما ونهضت ماري، زوجتي، من حيث كانت جالسة وذهبت إلى الباب. عادت وقالت:

– إنه ذلك السكّير، إيدي مارشال. يقول إنه يريد أن يراك.

قلت لها:

– قولي له أن يخرج قبل أن أطرده.

عادت وجلست. من حيث كنت جالساً وقدماي مرفوعتان نظرت

إلى خارج النافذة فاستطعت أن أرى إيدي على الطريق تحت النور القوسي ومعه سكير آخر جلبه معه، وكلاهما يترنّحان وظلاّهما يتأرجحان تحت النور القوسيّ على نحو أسوأ.

قالت ماري:

- سكيرون بائسون ملعونون من الرب. أشفق عليهم.

- إنه سكّير محظوظ.

قالت ماري: لا يوجد سكيرون محظوظون. أنت تعرف ذلك يا هاري.

قلت: لا. أعتقد أنه لا يوجد.

الجزء الثاني

هاري مورغان

الخريف

الفصل الأول

وصلوا عبر الليل، وكان نسيم قويّ يهبّ من الشمال الغربي. وحين ارتفعت الشمس رأى ناقلة نفط تدخل «الخليج» ووقفت هناك عالية وبيضاء والشمس تنعكس عليها في ذلك الهواء البارد فبدت كأبنية بيضاء عالية تبرز من البحر وقال للزنجي:

– أين نحن بحق الجحيم؟

– لا شيء كهذا على هذا الجانب من ميامي.

قال للزنجي: أنت تعرف جيداً أننا لم ننجرف إلى ميامي.

– كل ما أقوله إنه لا توجد أبنية كهذه على شاطئ «فلوريدا كيز».

– كنا نوجهه إلى «ساند كي».

– علينا أن نراه إذن. هو أو المياه الأمريكية الضحلة.

ثم رأى خلال برهة قصيرة أن تلك كانت ناقلة نفط وليس أبنية، وفي أقل من ساعة رأى منارة «ساندكي» المستقيمة النحيلة ذات اللون البني تبرز من البحر حيث يتوجب لها.

قال للزنجي: عليك أن تكون واثقاً من نفسك خلال توجيه الدفة.

– لدي الثقة. ولكن مسار هذه الرحلة جعلني أفقد الثقة.

– كيف هي ساقك؟

– توجعني طوال الوقت.

قال الرجل: إنها لا شيء. أبقها نظيفة وملفوفة وسوف تشفى من تلقاء نفسها.

كان يتوجّه بالقارب نحو الغرب ليدخل وينتظر خلال النهار في الشجر الاستوائي حيث لن يرى أحداً وحيث يمكن للزورق أن يخرج للقائهم.

قال للزنجي: ستكون على ما يرام.

قال الزنجي: لا أعرف. إنها تؤلمني كثيراً.

قال له: سأعتني بك جيداً حين نصل إلى المكان المنشود. ليست إصابتك سيئة. توقف عن القلق.

– لقد أصبت بالرصاص. لم يسبق لي أن أصبت من قبل. وعلى أية حال فإن كوني قد أصبت يعني أنه أمر سيئ.

– أنت خائف فحسب.

– لا يا سيدي. أنا مصاب بالرصاص. وإني أتألم كثيراً. كنت أرتجف طوال الليل.

استمر الزنجي يدمدم ويتذمر على هذا المنوال ولم يكن قادراً على الامتناع عن رفع الضمادة لينظر إلى الجرح.

قال له الرجل الذي يدير الدفة: اتركها بحالها.

كان الزنجي ممدداً على أرض القمرة وكانت هناك أكياس مليئة بزجاجات الشراب ولها شكل فخذ الخنزير، ومكوّمة في كل مكان. كان قد وسّع لنفسه بينها مكاناً حتى يتمدد فيه. وفي كل مرة كان يتحرك فيها كان يسمع صوت الزجاج المكسور في الأكياس ورائحة الشراب المسفوح. كان الشراب قد جرى فغطى كل شيء. كان الرجل يقود القارب في «وومان كي» الآن. كان قادراً على رؤيتها بوضوح.

قال الزنجي:

– أنا أتألم. ألمي يزداد مع الوقت.

قال الرجل:

– أنا آسف يا ويزلي ولكن عليّ أن أقود القارب.

قال الزنجي: أنت تعامل البشر كأنهم كلاب.

كان قد بدأ يغضب الآن. ولكن الرجل كان لا يزال يشعر بالأسف تجاهه. قال:

– سأجعلك تشعر بالراحة يا ويزلي. اهدأ الآن.

قال الزنجي: أنت لا تكترث بما قد يحدث لي. أنت تقريباً لست انساناً.

قال الرجل: سأعتني بك جيداً. اهدأ الآن فحسب.

قال الزنجي: لن تعتني بي.

لم يقل الرجل الذي كان اسمه هاري مورغان أي شيء حينذاك لأنه كان يحب الزنجي و لم يكن هناك ما يفعله الآن سوى أن يضربه، وما كان قادراً على ضربه. تابع الزنجي الكلام:

– لماذا لم نتوقف حين بدؤوا بإطلاق النار؟

لم يجب الرجل.

– ألا تساوي حياة إنسان أكثر من شحنة من المشروبات؟

كان الرجل منكبّاً على توجيه الدفّة.

– كل ما كان علينا أن نفعله هو أن نتوقف وندعهم يأخذون المشروبات.

قال الرجل:

– لا، إنهم يأخذون المشروبات والقارب وتذهب أنت إلى السجن.

قال الزنجي:

– لا يهمني السجن. ولكني لم أرغب قط بأن أصاب بالرصاص.

كان قد بدأ يثير أعصاب الرجل الآن، وكان الرجل قد بدأ يشعر بالتعب من سماعه الزنجيّ وهو يتذمر. سأله:

– من إصابتُه أسوأ بحق الجحيم؟ أنت أم أنا؟

قال الزنجي:

– أنت إصابتك أسوأ. ولكني لم أصب من قبل. لم أكن قد حسبت حساب الإصابة. لم يُدفع لي حتى أصاب بالرصاص. لا أريد أن أصاب.

قال له الرجل:

– هوّن عليك يا ويزلي. لن ينفعك مثل هذا الكلام.

كانا يقتربان من «الكي» الآن. كان في المياه الضحلة وحين اتجه بالقارب إلى القنال كان من الصعب أن يرى جيداً والشمس على الماء. كان الزنجي يجنّ أو يصبح ورعاً بسبب إصابته. وعلى أية حال فقد كان يتكلم طوال الوقت.

قال: لماذا يهرّبون المشروبات الآن؟ لقد ألغي «قانون الحظر». لماذا لا يزالون يهرّبون؟ لماذا لا ينقلون المشروبات على العبّارة؟

كان الرجل الذي يوجّه الدفّة يراقب القنال عن كثب.

لماذا لا يكون الناس شرفاء ومحترمين ويعيشون عيشة كريمة شريفة؟

رأى الرجل أين كان الماء يتموّج بنعومة مبتعداً عن الضفّة حتى حين لم يكن قادراً على رؤية الضفّة تحت وهج الشّمس فحوّل مساره. دار بالقارب وهو يلفّ العجلة بذراع واحدة، ثم انفتح القنال أمامه فأخذ القارب ببطء حتى حافة الأشجار الاستوائية. ذهب إلى مؤخر القارب فوق المحرّك ورمى بالكلاّبين. قال:

أستطيع أن أرمي بالمرساة ولكني لا أستطيع رفعها.

قال الزنجي: لا أستطيع حتى الحراك.

قال له الرجل: أنت دون شكّ في حالة رهيبة.

وجد صعوبة في إخراج ورفع وإسقاط المرساة الصغيرة ولكنّه استطاع أن يفعل ذلك ودفع لها بالكثير من الحبال، وتأرجح مصطدماً بالأشجار الاستوائية حتى لقد دخلت أغصانها إلى القمرة. ثم عاد ونزل إلى القمرة. وقد كان منظر القمرة رهيباً بالفعل.

طوال الليل، وبعد أن ضمّد هو جرح الزنجي وقام الزنجي بتضميد ذراع الرجلِ، كان يراقب البوصلة، ويوجّه الدفّة، وحين حلّ النهار رأى الزنجي ممدداً هناك على الأكياس في وسط القمرة، لكنه كان آنذاك يراقب البحر والبوصلة ويبحث عن منارة «ساند كي». ولم يلاحظ قط باهتمام كيف كانت الأمور. وقد كانت سيئة بالفعل.

كان الزنجي متمدداً في وسط كومة المشروبات الموضوعة في أكياس وساقه إلى الأعلى. كان في جدران القمرة ثمانية ثقوب واسعة من أثر الطلقات. كما كان الزجاج الواقي من الريح قد تحطم. لم يكن يدري كم تكسّر من زجاجات المشروبات، وحيث لم يكن الزنجي قد نزف فقد نزف هو نفسه. ولكن أسوأ شيء كان يحسب ما شعر به في تلك اللحظة، هو رائحة الشراب. كان كل شيء قد تشرّب به. كان القارب هادئاً وهو واقف بين الأشجار الاستوائية ولكنه لم يستطع أن يغالب الشعور بحركة البحر الكبير الذي كانا فيه طوال الليل خلال وجودهما في «الخليج».

قال للزنجي: سأغلي بعض القهوة. ثم سأضمّد لك جرحك مرة أخرى.

– لا أريد قهوة.

قال له الرجل: ولكنني أريدها.

ولكنه بدأ يشعر هناك في الأسفل بالدوخة لذا عاد إلى السطح مجدداً.

قال:

– أعتقد أننا لن نتناول القهوة.

– أريد بعض الماء.

– حسناً.

– أعطى الزنجي فنجاناً من الماء من الدمجانة.

– لماذا تابعت الهرب حين بدؤوا بإطلاق النار؟

أجاب الرجل: ولماذا أطلقوا النار؟

قال له الزنجي: أريد طبيباً.

– ما الذي كان في وسع الطبيب أن يفعله غير الذي فعلته أنا؟

– الطبيب سيشفيني.

– سيصل الطبيب الليلة حين يأتي الزورق.

– لا أريد انتظار أي زورق.

قال الرجل: حسناً سنقوم بتفريغ هذا الشراب الآن.

بدأ يفرّغه وكان عملاً شاقاً بيد واحدة. وزن الكيس يصل إلى أربعين باونداً فقط ولكنه لم يكن قد أسقط الكثير منها إلاّ وقد أصيب بالدوخة مجدداً. جلس في القمرة ثم تمدّد.

قال الزنجي: ستقتل نفسك.

تمدّد الرجل بهدوء في القمرة ورأسه على أحد الأكياس. كانت أغصان الأشجار الاستوائية قد دخلت إلى القمرة وظلّلته حيث كان متمدّداً. كان قادراً على سماع الريح فوق الأشجار وإذ نظر إلى السماء العالية الباردة رأى الغيوم الرقيقة القادمة مع ريح الشمال.

فكّر: «لا أحد سيخرج مع مثل هذه الريح. لن يبحثوا عنّا إذ سيظنّون أننا لم ننطلق مع مثل هذه الريح».

سأله الزنجي: هل تعتقد أن أحداً سيخرج للبحث عنا؟

قال الرجل: طبعاً. و لم لا؟

الريح تعصف بشدّة.

– إنهم يبحثون عنّا.

– لن يفعلوا ذلك ومثل هـذه الريح تهبّ. لماذا تريد أن تكذب عليّ؟

كان الزنجي يتكلّم وفمه على أحد الأكياس تقريباً.

قال له الرجل: هوّن عليك يا ويزلي.

تابع الزنجي قائلاً:

– تقول لي هوّن عليك. هوّن عليك. كيف أهوّن عليّ: أهوّن على نفسي الموت ككلب؟ لقد أوصلتني إلى هنا. أخرجني.

جلس الرجل في مكانه وهو يشعر بالفراغ وعدم الثبات. راقبته عينا الزنجي وهو ينهض على ركبة واحدة، ذراعه اليمنى مدلاّة ثم يأخذ يده اليمنى في يده اليسرى ويضعها بين ركبتيه ثم ينهض نفسه مستنداً إلى الحافة العليا من جانب القارب حتى يستطيع الوقوف، كان ينظر إلى الأسفل، إلى الزنجي، ويده اليمنى لا تزال بين ركبتيه. كان يفكر في أنه لم يشعر بالألم فعلياً من قبل. قال:

– إذا أبقيتها مبسوطة أمامي، ممدودة باستقامة، لا تؤلمني كثيراً.

قال له الزنجي: دعني أربطها لك في معلاق.

قال الرجل: لا أستطيع ثنيها عند المرفق. لقد تيبست على هذا النحو.

– ما الذي ستفعله؟

قال الرجل:

– سننزل المشروبات. ألا تستطيع أن تنزل من القارب ما تستطيع أن تصل إليه يداك يا ويزلي؟

حاول الزنجي أن يتحرك ليصل إلى أحد الأكياس، ثم ما لبث أن عاد ليتمدّد.

– هل تؤلمك إلى هذا الحدّ يا ويزلي؟

قال الزنجي: يا إلهي.

– ألا تظنّ أنّك ما أن تحرّكها حتى لا تعود تؤلمك إلى هذا الحدّ؟

قال الزنجي: أنا مصاب بالرصاص. لن أتحرّك. يريد منّي أن أقوم بتنزيل أكياس المشروبات وأنا مصاب.

– هوّن عليك.

– إذا قلتها مرّة أخرى سأصاب بالجنون.

أصدر الزنجي صوتاً كالنباح وتحرّك بتثاقل ويداه على ظهر القارب، ورفع حجر الشحذ من تحت الإطار.

قال: سأقتلك. سأنتزع قلبك.

– ليس بحجر الشحذ. هوّن عليك يا ويزلي.

انتحب الزنجي ووجهه على أحد الأكياس. تابع الرجل ببطء رفع الرزم ذات الأكياس الحاوية للمشروبات ثم راح ينزلها من على جانب القارب.

الفصل الثاني

بينما كان ينزل المشروبات سمع صوت محرك فنظر، ورأى زورقاً يتجه نحوهما نازلاً عبر القناة من حول نهاية «الكي». كان زورقاً أبيض ذا قمرة مطلية بلون أصفر برتقالي وواقية زجاجية. قال:

– زورق قادم. هيا يا ويزلي.

– لا أستطيع.

قال الرجل: من الآن فصاعداً سأتذكر. من قبل، كان الأمر مختلفاً.

قال الزنجي: هيا وتذكّر. لم أنس شيئاً أنا بدوري.

ها هو يعمل بسرعة الآن، والعرق يجري على وجهه، دون أن يتوقف ليراقب الزورق المتقدّم ببطء عبر القناة، وها هو يرفع الرزم بذراعه السليمة ويرميها من فوق الجانب.

وصل إلى الرزمة التي تحت رأس الزنجي وقال:

– ابتعد.

ثم جرّها إلى جانب. جلس الزنجيّ في مكانه.

قال: ها هم قد وصلوا.

كان الزورق مقابلاً لمنتصف جانب القارب الآخر.

قال الزنجي: إنه القبطان ويلي. ومعه مجموعة.

في مؤخر الزورق الأبيض كان رجلان في ملابس الفانيلة وقبعات

قماشية يجلسان في كرسيين للصيد وهما يصيدان بالصنارة، ورجل عجوز في قبعة من اللباد وسترة قصيرة من الجلد يمسك بذراع الدفة ويوجه الزورق قريباً من الأشجار الاستوائية حيث كان القارب الذي يحمل المشروبات.

نادى العجوز وهو يمر بهما: ما تقول يا هاري؟

لوّح الرجل المدعو بهاري بذراعه السليمة رداً على العجوز. مرّ الزورق والرجلان اللذان كانا يصيدان السمك ينظران نحو قارب المشروبات ويتحدثان إلى العجوز. لم يستطع هاري أن يسمع ما كانوا يقولونه.

قال هاري للزنجي: سيقوم بالتفاتة عند المدخل ثم يعود أدراجه.

نزل إلى الأسفل وصعد ومعه بطانية.

– دعني أدثرك.

– لقد آن أوان ذلك. لا يمكن لهم إلاّ أن يروا تلك المشروبات. ما الذي سنفعله؟

قال الرجل:

– «ويلي» شخص طيب. سيقول لهم في البلدة إننا هنا. هذان الشخصان اللذان يصيدان السمك لن يزعجانا. ما الذي يهمهما من أمرنا؟

أحس بضعف شديد الآن، فجلس على مقعد توجيه الدفة وأمسك بذراعه اليمنى بين فخذيه. كانت ركبتاه ترتجفان ومع الرجفة شعر بنهايتي العظم في أعلى ذراعه تصرّان. فتح ركبتيه ورفع ذراعه وجعلها تتدلّى إلى جانبه. كان جالساً هناك وذراعه مدلاّة حين مر بهما الزورق وهو عائد من مدخل القناة. كان الرجلان الجالسان في كرسي الصيد يتحدثان. كانا قد رفعا الصنانير وراح أحدهما ينظر إليه عبر منظار. كانوا أبعد من مدى

السمع فلم يستطع معرفة ما يقولانه. ولو سمعهما لما كان من شأن ذلك أن يعينه.

على ظهر زورق الأجرة «ساوث فلوريدا» الذي يمارس ركابه صيد السمك على امتداد قناة «وومان كي» لأن الجو كان عاصفاً إلى حد كان معه الخروج إلى الحيد البحري خطراً، كان القبطان ويلي آدامز يفكر: إذن فقد عبر هاري في هذه الليلة التي مضت. ذلك الرجل يتحلّى بالشجاعة. لا بدّ وأنه تلقى العاصفة كلها. إنه قارب يتحمل مخاطر البحر بالفعل. ولكن كيف كسر الواقية الزجاجية يا ترى؟ فلأكن ملعوناً إن كنت سأعبر في ليلة كالليلة الماضية. ولأكن ملعوناً لو كنت مستعداً لتهريب المشروبات من كوبا. إنهم يجلبون كل شيء من «مارييل» الآن. من المفترض أن يكون مفتوحاً تماماً.

– ما الذي تقوله يا قبطان؟

سأل أحد الرجلين في كرسي الصيد:

– ما هذا القارب؟

– ذلك القارب.

– أجل، ذلك القارب.

– آه، إنه قارب «كي وست».

– ما عنيته هو لمن هذا القارب؟

– لا أعرف يا قبطان.

– هل المالك صياد سمك؟

– حسناً، البعض يقولون ذلك.

– ما الذي تعنيه؟

– إنه يمارس أعمالاً كثيرة.

– ألا تعرف اسمه؟

– لا يا سيدي.

– لقد ناديته بهاري.

– لم أفعل.

– سمعتك تناديه بهاري.

نظر القبطان ويلي آدامز جيداً إلى الرجل الذي كان يحدثه. رأى وجنتين ناتئتين وشفتين رقيقتين ووجهاً شديد التورّد بعينين رماديتين غائرتين وفماً شديد الازدراء ينظر إليه من تحت قبعة قماشية بيضاء.

قال القبطان ويلي: لا بدّ وأني ناديته خطأ.

قال الرجل الآخر وهو يسلّم المنظار إلى رفيقه:

– يمكنك أن ترى أن الرجل جريح يا دكتور:

قال الرجل الذي خوطب بلقب الدكتور:

– أستطيع أن أرى ذلك دون منظار. من ذلك الرجل؟

قال القبطان ويلي: لا أعرف.

قال الرجل ذو الفم المزدري:

– حسناً. ستعرف. سجّل الأرقام التي على مقدمة القارب.

– لقد سجلتها يا دكتور.

قال الدكتور: سنذهب لنلقي نظرة.

سأله القبطان ويلي: هل أنت دكتور؟

أجاب الرجل ذو العينين الرماديتين: ليس في الطب.

– إن لم تكن دكتوراً في الطب فلن أذهب إلى هناك.

– و لم لا؟

– لو كان يريدنا لأشار لنا. وإذا لم يكن يريدنا فليس هذا من شأننا. هنا يهتمّ كل شخص بأموره الخاصة.

– حسناً. لنفرض أنك تهتمّ بأمورك الخاصة. خذنا إلى ذلك القارب.

تابع القبطان ويلي طريقه صاعداً القناة، ومحرّكه ذو السلندرين يكحّ بثبات.

– ألم تسمعني؟

– نعم يا سيدي.

– لم لا تطيع أمري؟

سأله القبطان ويلي: ومن تظنّ نفسك بحق الجحيم؟

– هذه المسألة شأن آخر. افعل كما آمرك!

– من تظنّ نفسك؟

– حسناً. لمعلوماتك أنا واحد من أهم ثلاثة رجال في الولايات المتحدة اليوم.

– ما الذي تفعله في «كي وست» إذن بحق الجحيم؟

اتكأ الرجل الآخر إلى الأمام وقال على نحو مؤثر:

– إنه فريدريك هاريسون.

قال القبطان ويلي:

– لم أسمع به قط.

قال فريدريك هاريسون:

– حسناً، ستسمع. وكذلك كل واحد في هذه البلدة الحقيرة ولو كنت سأضطر إلى استئصالها من جذورها.

قال القبطان ويلي: أنت شخص لطيف. كيف حصل أن أصبحت هاماً إلى هذا الحد؟

قال الرجل الآخر: إنه واحد من أكبر الشخصيات في «الإدارة».

قال القبطان ويلي: لا أصدّقك. إن كان هو كذلك فعلاً فما الذي يفعله في «كي وست»؟

شرح السكرتير: إنه هنا في إجازة. سيصبح الحاكم العام لـ...

قال فريدريك هاريسون: يكفي يا ويليس. والآن ستأخذنا إلى ذلك القارب.

وابتسم ابتسامة كان يحتفظ بها لمثل هذه المناسبات.

– لا يا سيدي.

– اسمع أيها الصياد المخبّل. سأجعل حياتك بائسة إلى حدّ...

قال القبطان ويلي: أجل

– أنت لا تعرفني.

قال القبطان: لا شيء من هذا يعني أي شيء لي.

– ذلك الرجل مهرّب مسكرات، أليس كذلك؟

– ما رأيك أنت؟

– ربما تكون هناك مكافأة على رأسه.

– أشكّ في ذلك.

– إنه خارج عن القانون.

– لديه أسرة وعليه أن يأكل ويطعمها. كيف ستطعم نفسك وعائلتك والناس تعمل هنا في كي وست لدى الحكومة لقاء ستة دولارات ونصف في الأسبوع؟

– إنه جريح. هذا يعني أنه تورط في مشكلة ما.

– ما لم يكن قد أطلق النار على نفسه من باب التسلية.

- يمكنك أن تحتفظ بتلك النكتة لنفسك. ستذهب إلى ذلك القارب وسوف نحجز على ذلك الرجل وعلى القارب.

- سوف تفعلون ماذا؟

- نحجز عليه في كي وست.

- أأنت شرطي؟

قال السكرتير: لقد قلت لك من هو.

قال القبطان ويلي: حسناً.

دفع بذراع الدفة بقوة فالتفّ الزورق واقترب كثيراً من حافة القناة حتى أن المروحة رمت بغيمة مدوّمة من الطين. ثم عاد أدراجه على امتداد القناة محدثاً صوتاً كالانفجار إلى حيث كان القارب الآخر عند الشجيرات الاستوائية.

سأل فريدريك هاريسون القبطان ويلي:

- هل لديك مسدس على الزورق؟

- لا يا سيدي.

كان الرجلان في ملابس الفانيلا يقفان الآن ويراقبان قارب المسكرات.

قال السكرتير:

- هذا أكثر إمتاعاً من الصيد، أليس كذلك يا دكتور؟

قال فريدريك هاريسون:

- الصيد لغو فارغ. إذا اصطدمت سمكة ضخمة من نوع «سيلفش» فما الذي ستفعله بها؟ لا يمكنك أن تأكلها. هذا ممتع حقاً. أنا مسرور لمشاهدتي ما يحدث هنا مباشرة. هذا الرجل جريح ولا يمكنه الهرب. البحر مضطرب جداً. نعرف هذا القارب.

قال السكرتير بإعجاب:

– أنت تقوم بالقبض عليه لوحدك بالفعل.

قال فريدريك هاريسون: وأعزل من السلاح أيضاً.

قال السكرتير: دون داع إلى لغو رجال مكتب المباحث الفدرالي.

قال فريدريك هاريسون:

– إن إدغار هوفر يبالغ في شعبيته. أشعر أننا قد منحناه قدراً وافراً من حرية العمل. اقترب بزورقك من القارب الآخر.

هذا ما قاله للقبطان ويلي الذي رمى بمرساته فانجرف الزورق.

قال القبطان ويلي منادياً القارب الآخر:

– هاي. أبقوا رؤوسكم منخفضة.

قال هاريسون بغضب: ما هذا؟

قال القبطان ويلي: اخرس.

ثم نادى القارب الآخر:

– هاي. اسمعوا. تابعوا حتى البلدة وهوّنوا عليكم. لا تهتموا بالقارب. سيأخذون القارب. أنزلوا حمولتكم واذهبوا إلى البلدة. لديّ شخص هنا يعمل جاسوساً وهو قادم من واشنطن. يقول إنه أهم من رئيس الجمهورية. إنه يريد إلقاء القبض عليكم. يظن أنكم مهربو مسكرات. لقد أخذ رقم القارب. لم أركم من قبل لذا لا أعرف من أنتم. لم أستطع تمييزكم...

كان القارب والزورق قد تباعدا. تابع القبطان ويلي صراخه:

– لا أعرف هذا المكان الذي رأيتكم فيه. ولن أعرف كيف أعود إلى هنا.

وصلت صرخة من قارب المسكرات: حسناً.

صرخ القبطان ويلي:

- سآخذ هذا الرجل ذا الأحرف الأبجدية وسنظل نصيد حتى يحلّ الظلام.

- حسناً.

صاح القبطان ويلي وصوته يكاد يبحّ:

- إنه يحب الصيد ولكن ابن القحبة يدعي أنه لا يمكن أكل السمك.

جاء صوت هاري: شكراً يا أخي.

سأله فريدريك هاريسون: ذلك الرجل أخوك؟

كان وجهه شديد الاحمرار ولكن حبه للمعلومات كان لا يزال دون إشباع.

قال القبطان ويلي:

- لا يا سيدي. معظم الذين يقودون القوارب يدعون واحدهم الآخر بأخي.

قال فريدريك هاريسون: سندخل إلى كي وست.

ولكنه قالها دون قناعة كبيرة.

قال القبطان ويلي:

- لا يا سيدي. أنتم أيها السادة استأجرتم زورقي لمدة يوم كامل. سأبذل جهدي لأجعلكم تنالون حقكم تماماً لقاء النقود التي دفعتموها. لقد قلتم لي إني مخبّل ولكنني سأحرص على أن تتمتعوا بيوم كامل من أيام الصيد.

قال هاريسون: خذنا إلى كي وست!

قال القبطان ويلي:

- أجل يا سيدي. فيما بعد. ولكن اسمع. إن سمك السيلفيش جيد للأكل بقدر ما هو «ملك السمك». حين كنا نبيعه لشركة «ريوس» من أجل سوق هافانا كنا نحصل على عشرة سنتات لقاء الباوند منه شأنه شأن «ملك السمك».

قال فريدريك هاريسون: أوه. اخرس!

- ظننت أنك مهتم بهذه الأمور كرجل حكومة. ألست على علاقة بأسعار المواد التي نأكلها أو ما شابه؟ أليس الأمر كذلك؟ ترفعون سعرها أو ما شابه. تجعلون الخبز أغلى والسمك أرخص؟

قال هاريسون: أوه، اخرس!

الفصل الثالث

على قارب المسكرات كان هاري قد أنزل آخر رزمة.

قال للزنجي: أعطني سكين السمك.

– لقد ضاعت.

ضغط هاري على مُبدئي الحركة الذاتية فدار المحركان. كان قد وضع للقارب محركاً ثانياً حين عاد إلى تهريب المسكرات حين جعل «الكساد» قوارب صيد الأجرة بدون عمل. أمسك بالبلطة وبيده اليسرى قطع حبل المرساة. ستغرق وسوف يتمسكون بها حين يرفعون الحمولة، هكذا فكر. وسأسير بالقارب إلى «غاريسون بايت»، وإذا ما كانوا سيحجزون عليه فسوف يحجزون عليه على أية حال. يجب أن أصل إلى الطبيب. لا أريد أن أفقد ذراعي والقارب كليهما. والحمولة يساوي سعرها سعر القارب أيضاً. لم ينكسر الكثير منها. إن القليل إذا ما انكسر سيفوح منه الكثير من الرائحة.

دفع الدبرياج اليساري وابتعد عن الأشجار الاستوائية وسار مع المدّ. دار المحرّكان على نحو جيّد. كان قارب القبطان ويلي على مسافة ميلين متّجهاً نحو «بوكا غرانده». أعتقد أن المدّ كان عالياً بما يكفي للدخول إلى البحيرات الآن. هكذا فكّر هاري.

دفع بالدبرياج اليميني فزمجر المحرّكان وهو يرفع ذراع المخنق.

استطاع أن يشعر بمقدمة القارب ترتفع وراحت الأشجار الاستوائية

تهبط بسرعة على امتداد الشاطئ والقارب يمتص الماء من جذورها. آمل ألاّ يحجزوا عليه. هكذا فكّر. آمل أن يستطيعوا شفاء ذراعي. كيف كان لي أن أعرف أنهم سيطلقون علينا النار في «ماريِيل» بعد أن استطعنا أن نذهب ونرجع إلى هناك على المكشوف مدة أشهر ستة؟ هؤلاء هم الكوبيون. ربما لم يدفع شخص ما إلى شخص آخر فحصل إطلاق النار. هكذا هم الكوبيون فعلاً.

قال وهو ينظر إلى القمرة حيث كان الزنجي يتمدد والبطانية فوقه:

هاي يا ويزلي. كيف أنت؟

قال ويزلي:

– يا إلهي، لا يمكن أن أشعر بأسوأ ممّا به الآن.

– ستشعر بما هو أسوأ حين يتلمّس الطبيب العجوز بحثاً عنها.

قال الزنجي: لست بشراً. ليست لديك مشاعر إنسانية.

«ويلي» ذاك شخص طيب، هكذا يفكّر هاري. شخص طيب ويلي العجوز ذاك. الدخول إلى هنا أفضل من الانتظار. كان الانتظار غباء. لقد عانيت من الدوخة والغثيان إلى حد فقدت معه قدرتي على الحكم الصحيح.

كان قادراً على أن يرى إلى الأمام الآن بياض فندق «لا كونتشا»، أعمدة البرق ومنازل البلدة. كان قادراً على رؤية العبّارات حاملة السيارات عند رصيف «ترومبو» حيث كان سيدور ليتجه نحو «غاريسون بايت». «ويلي» العجوز ذاك كان يقول لهما رأيه فيهما بصراحة. أتساءل من كان هذان يا ترى. اللعنة إن لم أكن أشعر بأني في أسوأ حال الآن. أحس بالدوخة. كان أمراً صحيحاً قدومنا إلى هنا. كان أمراً جيداً ألاّ تنتظر.

قال الزنجي: يا سيّد هاري. يؤسفني أني لم أستطع مساعدتك بإنزال الحمولة.

قال هاري: يا للجحيم. حين يكون الزنجي مصاباً لا ينفع لشيء. أنت زنجي حقيقي يا ويزلي.

فوق هدير المحركين والاندفاع المنقذف للقارب عبر الماء أحسّ بغناء غريب أجوف في قلبه كان يشعر بهذا الشعور دائماً لدى عودته إلى البيت في نهاية رحلة ما. أمل أن يستطيعوا علاج هذه الذراع. هكذا كان يفكر. لا أستطيع الاستغناء عنها.

* * *

الجزء الثالث

هاري مورغان

الشـتاء

الفصل الأول

آلبرت يتكلم:

كنا جميعاً هناك في «بار فريدي»، ودخل المحامي الطويل النحيل وقال:

– أين «خوان»؟

قال أحدهم: لم يعد بعد.

– أعرف أنه عاد وأنا مضطر للتحدث معه.

قال هاري:

– طبعاً، لقد زودتموهم بمعلومات سرية عنه، ثم أدنتموه والآن ستدافعون عنه. لا تأت إلى هنا وتسأل عن مكانه. ربما يكون في جيبك.

قال المحامي: اذهب إلى الجحيم! لديّ عمل له.

قال هاري: حسناً، اذهب وابحث عنه في مكان آخر! إنه ليس هنا.

قال المحامي: أقول لكم إنَّ لديّ عملاً له.

– ليس لديك عمل لأحد. أنت سمّ ولا شيء آخر.

في هذه اللحظة بالذات دخل الرجل العجوز ذو الشعر الرمادي الطويل المتدلّي على ظهر قبته، والذي يبيع أشياء مطاطية، ليأخذ ربع «باينت» من الشراب ويصبه له فريدي في زجاجة، فيسدّها بفلّينة ثم يسرع خارجاً ويعبر الشارع بها.

سأل المحامي موجهاً السؤال إلى هاري.

– ما الذي حدث لذراعك؟

كان هاري قد ثبّت كم القميص بدبوس إلى الكتف.

– لم يعجبني منظرها فبترتها.

– أنت بترتها مع من؟

قال هاري: أنا وطبيب.

كان يشرب وكان قد ثمل قليلاً.

– لقد وقفت بثبات وبترها هو. لو كانوا يبترونها لأنها في جيوب الناس الآخرين لما كان لديك يدان ولا قدمان.

سأله المحامي: ما الذي حدث لها حتى اضطروا إلى بترها؟

قال له هاري: هوّن عليك.

– لا، أنا أطرح عليك السؤال فحسب. ما الذي حدث لها وأين كنت؟

قال له هاري: اذهب وازعج شخصاً آخر! أنت تعرف أين كنت وتعرف ما حدث. ابق فمك مغلقاً ولا تزعجني!

قال له المحامي: أريد أن أحادثك.

– حادثني إذن.

– لا، هناك في الخلف.

– لا أريد محادثتك. لا يمكن أن يصدر عنك أي خير. أنت سمّ.

– لديّ شيء لك. شيء جيد.

قال له هاري: حسناً. سأصغي إليك مرة واحدة. ما الموضوع؟ «خوان»؟

– لا. لا يتعلق الموضوع بخوان.

ذهبا إلى وراء منعطف في البار إلى حيث كانت مائدة بين مقعدين طويلين مرتفعي الظهر، وقد غابا فترة طويلة. خلال ذلك دخلت ابنة «بيغ لوسي» مع فتاة أخرى ترافقها دائماً، وجلستا إلى البار وشربتا الكوكا كولا.

قال فريدي لابنة بيغ لوسي: يقولون لي إنهم لن يدعوا البنات يخرجن إلى الشوارع بعد السادسة مساء ولن يسمحوا لأي منهن بالدخول إلى أي من الأماكن.

– هذا ما يقولونه.

قال فريدي: ستتحول هذه البلدة إلى جحيم.

– جحيم حقاً. اخرج إلى مكان لتناول السندويش والكوكا كولا! فيقبضون عليك وتدفع غرامة قدرها خمسة عشر دولاراً.

تقول ابنة بيغ لوسي:

– هذا هو ما يبحثون عنه الآن. أي نوع من الناس الرياضيين، أي شخص له مظهر يدلّ على المرح.

– إذا لم يحدث شيء في هذه البلدة بالسرعة الفورية فإنّ الأمور ستسوء.

في تلك اللحظة بالذات عاد هاري والمحامي إلى الظهور وقال المحامي:

– ستكون هناك إذن؟

– لم لا تجلبهم إلى هنا؟

– لا. إنهم لا يريدون الدخول. سنلتقي في الخارج هناك.

قال هاري: حسناً.

ثم صعد إلى البار وخرج المحامي.

سألني: ما تريد أن تشرب يا «آل»؟

- باكاردي.

- أعطنا اثنين باكاردي يا فريدي.

ثم التفت إليّ وقال:

- ما الذي تعمله الآن يا «آل»؟

- أعمل كبديل.

- وما الذي تعمله؟

- أحفر المجاري. أرفع قضبان سكة الترام القديمة.

- كم تقبض؟

- سبعة ونصف.

- في الأسبوع؟

- ما كان ظنّك إذن؟

- وكيف تشرب هنا؟

قلت له: لم أكن أشرب حتى سألتني.

انحنى قليلاً نحوي: ما رأيك أن تقوم برحلة؟

- هذا يعتمد على ماهيتها.

- سنتحدث عن ذلك.

- حسناً.

قال: تعال إلى السيارة. وداعاً يا فريدي.

تنفّس بسرعة بعض الشيء كما يفعل بعد أن يشرب الكحول، ومشيت إلى حيث كانت أرض الشارع مقلوبة، حيث كنا نعمل طوال النهار، وحتى الزاوية حيث كانت سيارته متوقفة. قال: اركب!

سألته: إلى أين ستذهب؟

– لا أعرف. سأكتشف.

سرنا بالسيارة على امتداد شارع وايتهد، ولم يقل أي شيء. وعند نهاية الشارع انعطف إلى اليسار وعبرنا رأس البلدة إلى شارع وايت ثم إلى الشاطئ. خلال ذلك الوقت كله لم يقل هاري أي شيء، ثم انعطفنا الطريق الرملية وسرنا عليها حتى البولفار. وعلى البولفار أوقف سيارته عند الرصيف وتوقف. قال:

– هناك بعض الغرباء الذين يريدون استئجار قاربي للقيام برحلة.

– ولكن الجمارك حجزت على قاربك.

– الغرباء لا يعرفون ذلك.

– أي نوع من الرحلات؟

– يقولون إنهم يريدون أن ينقلوا شخصاً ما يريد الذهاب إلى كوبا للقيام بعمل ما، ولا يستطيع الدخول بالطائرة أو السفينة. كان «بيليبس» هو الذي أخبرني بذلك.

– وهل يقومون بذلك؟

– طبعاً. منذ اندلاع الثورة. يبدو أن كل شيء على ما يرام في هذا الأمر. كثيرون يذهبون بهذه الوسيلة.

– وماذا عن القارب؟

– سيكون علينا أن نسرقه. تعرف أنهم لم يعطلوه لذا أستطيع تشغيل المحرك.

– وكيف ستخرجه من قاعدة الغواصات؟

– سأخرجه.

– وكيف سنعود؟

– سيكون عليّ التفكير في حلّ لذلك. إذا كنت لا تريد الذهاب فقل.

– أنا مستعد للذهاب إن كان في العملية نقود.

قال:

– اسمع. أنت تكسب سبعة دولارات ونصف في الأسبوع. لديك ثلاثة أطفال في المدرسة يجوعون في الظهيرة. لديك أسرة جائعة وأنا أمنحك فرصة لكسب بعض النقود.

– لم تقل كم من النقود. عليك أن تكسب نقوداً إذا أردت المخاطرة.

– لا يوجد الكثير من النقود في أي نوع من المخاطرات الآن يا «آل». اسمعني. لقد اعتدت أن أكسب خمسة وثلاثين دولاراً في اليوم عبر الموسم كله، وأنا أصطحب الناس للصيد. والآن أصبت بالرصاص وفقدت ذراعي وقاربي وأنا أهرب شحنة قذرة من المسكرات لا تكاد تساوي قيمتها قيمة القارب. ولكن اسمح لي أن أقول إنّي لن أدع أطفالي يجوعون ولن أحفر للحكومة لقاء راتب أقل من أن يسدّ رمقهم. وعلى أية حال لست قادراً على الحفر الآن. لا أعرف من هو الذي وضع القوانين ولكني أعرف أنه ليس هناك قانون ينص على أن تجوع.

قلت له: لقد أضربت بسبب تلك الأجور.

قال: ثم تعود إلى العمل. قالوا إنك كنت مضرباً ضد الإحسان، كنت تعمل باستمرار، أليس كذلك؟ لم تطلب إحساناً من أحد.

قلت: لا يوجد أي عمل براتب كاف في أي مكان.

– لماذا؟

– لا أعرف.

قال: ولا أنا. ولكن أسرتي ستجد طعاماً تأكله، طالما يجد أي شخص طعاماً. إنّ ما سيحاولون فعله هو تجويعكم أنتم الفقراء حتى تخرجوا من

هنا، فيحرقون أكواخكم ويبنون بدلاً عنها الشقق الفخمة، ويحوّلون هذه البلدة إلى بلدة سياحية. هذا ما سمعته. وسمعت أنهم يشترون العقارات، وبعد أن يجوع الفقراء فيهربون إلى أماكن أخرى ليجوعوا أكثر، سيقوم أولئك بالقدوم ويحولونها إلى بقعة جميلة للسياح.

- تتكلّم كأنك أحمر متطرف.

قال: لست متطرفاً. أنا متألّم. وأنا متألّم منذ وقت طويل.

- إنّ فقدك لذراعك لا يجعلك تشعر بأنك في أفضل حال.

- إلى الجحيم بذراعي. إن فقدت ذراعاً فهذا يعني أن لديك ذراعين، ولديك اثنان من شيء آخر. والرجل يبقى رجلاً بذراع واحدة أو بواحدة من تلك. إلى الجحيم بها. لا أريد أن أتكلّم عنها.

وبعد دقيقة قال: لا زال لديّ ذانك الشيئان.

ثم شغّل السيارة وقال: هيّا، لنذهب ونقابل أولئك الأشخاص.

سرنا على امتداد البولفار والريح تهبّ وقليل من السيارات تمرّ بنا ورائحة الأعشاب الميتة على الإسمنت حيث تجاوزت الأمواج سور البحر بسبب المدّ العالي. كان هاري يقود السيارة بيده اليسرى. لقد أحببته دائماً، فعلاً، وقد ذهبت معه مرات كثيرة فيما مضى، ولكنه تغيّر الآن بعد أن فقد ذراعه، كما إن ذلك الشخص القادم من واشنطن قدّم شهادة خطّية بقسم أنه رأى القارب يفرغ المشروبات الروحية في تلك المرة، فقامت الجمارك بالحجز عليه. حين يكون في القارب يشعر أنه على ما يرام، وبدون قاربه يكون في أسوأ حال. أعتقد أنه كان سعيداً لوجود سبب يدعوه إلى سرقته. كان يعرف أنه لا يستطيع الاحتفاظ به، ولكن ربما كان قادراً على كسب بعض المال به بينما يكون في حوزته. كنت في حاجة ماسة إلى النقود ولكنني لم أكن راغباً في التورط في المشاكل. قلتُ له:

- أنت تعرف أني لا أريد التورط في أي مشكلة فعلية يا هاري.

- وأي مشكلة أسوأ مما أنت فيه الآن؟ ما الأسوأ بحق الجحيم من الجوع؟

قلت:

- لست جائعاً. لماذا تتكلم دائماً عن الجوع بحق الجحيم؟

- ربما لا تكون، ولكن أطفالك جائعون.

قلت: كفى! سأعمل معك ولكنك لا تستطيع أن تتكلم معي بهذه الطريقة.

قال: حسناً. ولكن كن واثقاً من أنك تريد هذا العمل. يمكنني الحصول على كثير من الرجال في هذه البلدة.

قلت: أريده. قلت لك إني أريده.

- إذن ابتهج!

قلت له: ابتهج أنت! أنت الوحيد الذي يتكلم كمتطرف.

قال: أوه، ابتهج! ليس لدى أي منكم أنتم الفقراء أي شجاعة.

- ومنذ متى لم تعد أنت فقيراً؟

- منذ أوّل وجبة جيدة تناولتها.

كان لئيماً في كلامه الآن، بالفعل، ومنذ أن كان صبياً ما كان يشفق على أحد. ولكنه لم يكن يشفق على نفسه هو أيضاً.

قلت له: حسناً.

قال: هوّن عليك.

إلى الأمام منّا كنت أستطيع أن أرى أنوار المكان.

قال هاري: سنقابلهم هناك. أبقِ فمك مغلقاً!

- إلى الجحيم بك.

قال هاري ونحن ننعطف نحو الدرب وندور من حول مؤخرة المنزل:

- أوه، هوّن عليك.

كان متنمّراً وكان سليط اللسان ولكني كنت أحبّه دائماً بالفعل.

أوقفنا السيارة في مؤخرة المنزل، ودخلنا من المطبخ حيث كانت زوجة الرجل تطبخ على الموقد. قال لها هاري:

- مرحباً يا فريدا. أين بيليبس؟

- إنه هناك يا هاري. مرحباً يا ألبرت.

قلت: مرحباً يا سيدة ريتشاردز.

كنت أعرفها منذ أن اعتادت أن تسكن في بلدة دغلية، ولكن اثنتين أو ثلاثاً من أكثر النساء المتزوجات كداً ودأباً في البلدة كنّ نساء رياضيات، وكانت هذه امرأة كدوداً دؤوباً بالفعل.

سألتني: هل الأسرة على ما يرام؟

- كلهم بخير.

عبرنا المطبخ ودخلنا الغرفة الخلفية. كان هناك بيليبس المحامي ومعه أربعة من الكوبيين جالسين إلى منضدة.

قال أحدهم بالإنكليزية: تفضلا بالجلوس.

كان رجلاً خشن المظهر له وجه كبير وصوت يصدر من مكان عميق في حنجرته وكان يشرب الكثير كما هو واضح عليه.

- ما اسمك؟

قال هاري: ما اسمك أنت؟

قال الكوبي: حسناً. فليكن الأمر كما تشاء. أين القارب؟

قال هاري: إنه عند حوض اليخوت.

سأله الكوبيّ وهو ينظر إليّ: من هذا؟

قال هاري: مساعدي.

كان الكوبي يفحصني، وكان الكوبيون الآخرون يتفحصوننا كلينا.

قال الكوبي: يبدو جائعاً.

وضحك. ولكن الآخرين لم يضحكوا.

– أتريد شراباً؟

قال هاري: حسناً.

– ماذا؟ باكاردي؟

قال له هاري: الذي تشربون منه.

– هل يشرب مساعدك؟

قلت: سأشرب كأساً.

قال الكوبي الضخم: لم يسألك أحد بعد لقد سألت إن كنت تشرب فحسب.

قال واحد من الكوبيين الآخرين، وهو شاب صغير السن، مجرد غلام:

– أوه كفى يا روبرتو. ألا يمكنك أن تفعل شيئاً دون أن تكون بغيضاً؟

– ما الذي تعنيه بالبغيض؟ لقد سألت إن كان يشرب فحسب. إن كنت ستستخدم شخصاً ألا تسأل إن كان يشرب؟

قال الكوبي الآخر: أعطه كأساً. هيا نتحدث في العمل.

– سأل الكوبي عميق الصوت، المسمى روبرتو، موجهاً سؤاله إلى هاري:

– ما الذي تريده لقاء القارب أيها الضخم؟

قال هاري: هذا يعتمد على الأمر الذي تريد أن تفعله به.

– أن تأخذنا أربعتنا إلى كوبا.

– أين في كوبا؟

– كابانياس. قريباً من كابانياس. نزولاً على امتداد الشاطئ من ماريل. هل عرفت أين؟

قال هاري: طبعاً. تريدون مني اصطحابكم إلى هناك فحسب؟

– هذا كل ما في الأمر. خذنا إلى هناك وأنزلنا على الشاطئ.

– ثلاثمائة دولار.

– هذا كثير. ماذا لو استأجرنا على أساس يوميّ وكفلنا لك أجرة أسبوعين؟

– أربعون دولاراً في اليوم ومبلغ ألف وخمسمائة دولار إذا حدث أي شيء للقارب. هل عليّ أن أقوم بإجراءات التخليص؟

– لا.

قال هاري: ستدفعون ثمن البنزين والزيت.

– سنعطيك مائتي دولار لتأخذنا إلى هناك وتنزلنا على الشاطئ.

– لا.

– كم تريد؟

– قلت لك.

– هذا كثير.

قال له هاري:

– لا، ليس كثيراً. لا أعرف من أنتم. ولا أعرف ما هو عملكم ولا أعرف من يمكن أن يطلق النار عليكم. عليّ أن أعبر الخليج (يقصد خليج المكسيك) مرتين خلال الشتاء. وعلى أية حال فهذه مخاطرة بالقارب. سأنقلكم لقاء مائتي دولار وتضعون ألف دولار ككفالة في حال حصول شيء للقارب.

قال له بيليبس: هذا معقول. هذا أكثر من معقول.

بدأ الكوبيون يتكلمون بالإسبانية. لم أستطع أن أفهم ما كانوا يقولونه ولكني أعرف أن هاري فهم عليهم.

قال الرجل الضخم، روبرتو:

– حسناً. متى يمكن البدء؟

– في أي وقت من ليلة الغد؟

قال أحدهم: ربما لا نريد أن ننطلق حتى الليلة التالية.

قال هاري: حسناً. ولكن أبلغوني في الوقت المناسب.

– هل قاربك في حالة جيدة؟

قال هاري: طبعاً.

قال الشاب فيهم: إنه قارب جميل.

– أين رأيته؟

– السيد سيمونز، المحامي هذا، أراه لي.

قال هاري: أوه.

قال واحد آخر من الكوبيين:

– خذ كأساً. هل كنت تسافر كثيراً إلى كوبا؟

– مرات قليلة.

– هل تعرف بالإسبانية؟

قال هاري:

– لم يسبق لي أن تعلّمتها.

رأيت بيليبس المحامي ينظر إليه، ولكنه هو نفسه كان من النوع المخادع إلى حد أنه كان يشعر بالمزيد من السرور إذا رأى شخصاً لا يقول

الحقيقة. كما حدث حين دخل ليتحدث إلى هاري عن هذه العملية فلم يكن صريحاً معه. كان عليه أن يتظاهر بأنه يريد أن يرى أن خوان رودريغز وكان هذا عبارة عن إسباني فقير سكّير مستعد أن يسرق، وقد جعله بيليبس يدان مرة أخرى كي يستطيع أن يرافع عنه.

قال الكوبي: السيد سيمونز يتكلم الإسبانية جيداً.

- إنه متعلّم.

- هل تستطيع أن تقود سفينة؟

- أستطيع الذهاب وأستطيع العودة.

- هل أنت صياد سمك؟

قال هاري: أجل يا سيدي.

سأله ذو الوجه الضخم:

- وكيف تصيد بذراع واحدة؟

قال له هاري:

- في مثل هذه الحالة يصيد المرء بسرعة مضاعفة. هل تريدني في أمر آخر؟

- لا.

كانوا يتكلمون بالإسبانية معاً. قال هاري:

- إذن سأرحل.

قال بيليبس لهاري:

- سأبلغك عن القارب.

قال هاري: يجب وضع نقود كضمانة له.

- سنفعل ذلك غداً.

قال لهم هاري:

- حسناً. ليلتكم سعيدة:

قال الشاب ذو الكلام اللطيف: ليلة سعيدة.

لم يقل ذو الوجه الضخم أي شيء. وكان هناك إثنان آخران بوجهين هنديين لم يقولا شيئاً على الإطلاق طوال الوقت باستثناء تكلمهم بالإسبانية مع ذي الوجه الضخم.

قال بيلييس: سأراك لاحقاً.

- أين؟

- في بار فريدي.

خرجنا عبر المطبخ مرة أخرى وقالت «فريدا»:

- كيف هي ماري يا هاري؟

قال لها هاري: إنها بخير. تشعر بأنها على ما يرام الآن.

ثم خرجنا من الباب. ركبنا السيارة وقادها هو عائداً بها إلى البوليفار، ولم يقل أي شيء إطلاقاً. كان يفكر في شيء ما بالفعل.

- هل أنزلك عند البيت؟

- حسناً.

- أنت تسكن على الطريق الريفية الآن؟

- أجل. وماذا عن الرحلة؟

قال: لا أعرف. لا أعرف إن كانت الرحلة ستجري. أراك غداً.

أنزلني أمام مسكني ودخلت، وما إن فتحت الباب حتى كانت زوجتي العجوز قد أرتني الجحيم لسهري في الخارج، وتناولي المشروبات، وتأخري عن وجبة الطعام. سألتها كيف يمكنني أن أشرب وليس معي نقود فقالت إني أستدين دون ريب. فسألتها من تعتقد أنه سيقرضني وأنا

أعمل كبديل فطلبت مني أن أبعد أنفاسي المخمورة عنها، وأن أجلس إلى المائدة. وهكذا جلست. كان الأطفال قد ذهبوا لمشاهدة مباراة البيسبول، فجلست هناك إلى المائدة وجلبت لي هي العشاء رافضة أن تكلمني.

الفصل الثاني

هاري يتكلم:

لا أريد أن أبدّد وقتي بهذه المسألة ولكن أي خيار أمامي؟ إنهم لا يمنحونك أي خيار الآن. لا أستطيع تبديد هذه الفرصة، ولكن ما هو الشيء التالي؟ لم أكن أطلب مثل هذا ولكن إن كان عليك أن تفعله فعليك أن تفعله. ربما يجب ألاّ أصطحب آلبرت. إنّه ليس قوياً ولكنه مستقيم وهو بحّار جيد. إنه لا يرتاع بسهولة ولكني لا أعرف إن كان عليّ أن أصطحبه.

ولكني لا أستطيع أن أصطحب سكّيراً أو زنجيّاً. يجب أن يكون معي شخص أستطيع الاعتماد عليه. ولو نجحت فسوف أعطيه نصيبه. ولكني لا أستطيع أن أخبره بخطتي وإلاّ فإنه لن يذهب معي وأنا مضطر إلى أن يكون شخص إلى جانبي. كنت أفضل أن أكون لوحدي، أي شيء أفضل لوحدي، ولكني لا أعتقد أني أستطيع معالجة هذا الأمر لوحدي. سيكون أفضل بكثير أن أكون لوحدي. وآلبرت سيكون في حال أفضل إن كان لا يعرف شيئاً عن الموضوع. ولكن العائق الوحيد هو بيليبس. بيليبس سيعرف كل شيء. ولكن لا بدّ وأنهم حسبوا حساب ذلك أيضاً. لا بدّ أنهم قد قرروا أمر ذلك. هل تعتقدون أن بيليبس أحمق إلى حد أنه لا يعرف ما الذي يفعلونه؟ أتساءل. ربما لا يكون ذلك هو ما قرروا فعله. ربما لن يفعلوا أي شيء من هذا القبيل. ولكن من الطبيعي أنهم سيفعلون ذلك حين يدنو، أو سيضطرون إلى استعمال طائرة خفر السواحل المنطلقة

من ميامي. في السادسة يكون الظلام قد حلّ في مثل هذه الأيام. لا يمكن للطائرة أن تقطع المسافة كلها في أقلّ من ساعة. ما أن يحلّ الظلام حتى يكونوا في أمان. حسناً، إن كنت سأنقلهم فعليّ أن أقرر مسألة القارب. لن يكون من الصعب إخراجه، ولكن لو أخرجته الليلة واكتشف أنه مفقود فسوف يجدونه ربما، وعلى أية حال ستكون هناك جَلَبة كبرى. والليلة هي الفرصة الوحيدة لإخراجه. يمكنني أن أبحر به مع المدّ وأخفيه. ثم سأرى ما هو في حاجة إليه إن كان يحتاج إلى أي شيء، هذا إن كانوا قد أخذوا منه شيئاً ما. ولكن عليّ أن أملأ الخزّان بالبنزين والماء. ستكون تلك الليلة ليلة مليئة بالفعل. ولكن ما أن أخفيه، سيكون على آلبرت أن يجلبهم في زورق سريع. ربما زورق «والتون». يمكنني استئجاره. أو يمكن لبيليبس استئجاره. هذا أفضل. يمكن لبيليبس أن يساعدني في الخروج بالقارب الليلة. بيليبس هو الشخص المناسب. لقد قرروا مصير بيليبس دون شكّ. لا شكّ أنّهم قرروا مصير بيليبس. ولكن لنفترض أنهم قرروا مصيرنا أنا وآلبرت؟ هل بدا على أي منهم أنه كان بحاراً؟ فلأفكر. ربما ذاك الشاب اللطيف. ربما هو، ذاك الشاب صغير السنّ. عليّ أن أتحقق من ذلك لأنهم لو قرروا التخلص من آلبرت ومني منذ البداية فلا مجال هناك. سيقررون مصيرنا إن عاجلاً أو آجلاً. ولكن في «الخليج» هناك وقت كاف. وأنا أفكر طوال الوقت. عليّ أن أفكر على نحو صحيح طوال الوقت. لا يمكنني ارتكاب غلطة واحدة. ولا حتى غلطة واحدة. ليس مرة واحدة. حسناً، عليّ أن أفكر بشيء ما الآن بالفعل. هناك شيء أفعله وشيء أفكر به إلى جانب التساؤل عما سيحدث. وكذلك هناك التساؤل عمّا سيحدث لهذا الأمر اللعين كله. ما أن يتمّ تدبير الأمر. ما أن تقامر على ذلك. ما أن تتاح لك فرصة. بدلاً من مراقبة كل شيء يذهب إلى الجحيم. دون أي قارب للاسترزاق منه. يا له بيليبس ذاك. إنه لا يعرف ما تورّط فيه. ليست لديه أدنى فكرة عمّا سيؤول إليه الأمر. وآمل أن يظهر بسرعة في بار فريدي. لديّ الكثير من العمل الليلة. يجب أن أتناول طعاماً.

الفصل الثالث

كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف حين دخل بيليبس المكان. كان واضحاً أنهم قد سقوه كثيراً من الشراب عند «ريتشارد» لأنه حين يشرب يصبح مزهواً بنفسه وها هو يدخل مزهواً بنفسه جداً.

يقول لهاري:

– حسناً. ضربة كبيرة.

قال له هاري:

– لا تحاول خداعي بمثل هذا الكلام.

– أريد أن أتحدث معك. ضربة كبيرة.

سأله هاري:

– أين؟ في مكتبك هناك في الخلف؟

– أجل هناك. هل يوجد أحد هناك في الخلف يا فريدي؟

– لا، ليس منذ أن طبّق ذلك القانون. قل لي كم سيدوم نظام الساعة السادسة ذاك؟

يقول بيليبس:

– لماذا لا توكّلني في هذه القضيّة؟

يقول له فريدي:

– سأوكلك إلى جهنّم.

ثم يذهب كلاهما إلى الخلف حيث المقصورات والخزائن ذات الزجاجات الفارغة.

* * *

كان هناك مصباح كهربائي واحد في السقف ونظر هاري في كل الاتجاهات في المقصورات حيث كان الظلام سائداً ورأى أنه لا يوجد أحد. قال:

– حسناً؟

قال له بيليبس:

– يريدون القارب في وقت متأخّر من عصر يوم بعد غد.

– ما الذي سيفعلونه؟

قال له بيليبس:

– أنت تعرف الإسبانية.

– ولكنك لم تخبرهم، أليس كذلك؟

– لا. أنا صديقك. أنت تعرف ذلك.

– أنت مستعد لخيانة أمك بالذات.

– هيا توقف عن هذا الكلام. انظر إلى هذه المعلومات التي أشاركك المعرفة بها.

– منذ متى أصبحت شجاعاً؟

– اسمع. أنا في حاجة إلى النقود. عليّ أن أخرج من هنا. لقد فشلت تماماً هنا. أنت تعرف ذلك يا هاري.

– ومن ذا الذي يعرف ذلك؟

– أنت تعرف كيف كانوا يموّلون هذه الثورة بالاختطاف وما شابه.

- أعرف.

- هذا نوع مشابه من الأمور. إنهم يمارسون هذه الأفعال لسبب وجيه.

- أجل. ولكننا هنا. هذا مسقط رأسك. أنت تعرف كل شخص يعمل في المصرف.

- لن يحدث أي شيء لأي شخص.

- مع أولئك الأشخاص؟

- ظننت أنه كان لديك ضمانات.

- لديّ ضماناتي. لا تقلق حول الضمانات. ولكني أفكر في البقاء هنا.

قال بيليبس:

- أما أنا فلا.

فكّر هاري في نفسه: يا للمسيح.

قال بيليبس:

- سأخرج. متى ستخرج القارب.

- الليلة.

- من سيساعدك؟

- أنت.

- أين ستضعه؟

- حيث أضعه دائماً.

* * *

لم تكن هناك صعوبة في إخراج القارب. كان الأمر سهلاً بقدر ما

توقعه هاري. كان الحارس الليلي يقوم بجولاته مرة كل ساعة وخلال الفترة المتبقية كان عند البوابة الخارجية لحوض البحرية القديم. دخلا إلى الحوض في زورق بخاري صغير وحررا القارب مع الجزر فانطلق القارب والزورق يجره. وبينما كان القارب ينجرف في القناة، فحص هاري المحركين فوجد أن كل ما فعلوه كان فصل رؤوس الموزّع. فحص البنزين فوجد أنّ في القارب ما يعادل مئة وخمسين غالوناً تقريباً. لم يكونوا قد سرقوا البنزين من الخزانات وكانت فيها الكمية نفسها التي بقيت فيها في نهاية آخر رحلة. كان قد ملأها تماماً قبل الانطلاق و لم يكن القارب قد استهلك إلاّ القليل من الوقود فقد ساروا به ببطء عبر البحر المائج.

قال لبيلبيس:

– لديّ بنزين في المنزل وضعته في خزان. يمكنني إخراج حمولة من الدمجانات في السيارة ويمكن لآلبرت إحضار حمولة أخرى في حال الحاجة إليها. سأضع القارب في النهر حيث يتقاطع مع الطريق. يمكنهم أن يأتوا في سيارة.

– يريدونك أن تكون عند «دوك بورتر» تماماً.

– كيف يمكنني المكوث هناك مع القارب؟

– لا يمكنك ذلك. ولكن لا تظنّن أنهم سيرغبون في قيادة أي سيارة.

– حسناً، سنضعه هناك الليلة ويمكنني أن أملأ الخزان، وأفعل ما تقتضيه الحاجة ثم أنقله. يمكنك أن تستأجر زورقاً سريعاً لإحضارهم إلى القارب. عليّ أن أضعه هناك الآن. لديّ الكثير من الأعمال. ستجدّف وتسير حتى الجسر وتأخذني. سأكون على الطريق هناك بعد حوالي ساعتين. سأترك القارب وأخرج إلى الطريق.

– قال له بيلبيس:

– سآخذك.

وقام هاري بالدوران بالقارب والمحركان مخنوقان حتى يسير بهدوء، وجرّ الزورق إلى حيث كان نور المركب الشراعي. رمى بالخطاف وأمسك بالزورق حتى نزل بيليبس. قال:

– بعد حوالي الساعتين.

قال بيليبس:

– حسناً.

وراح هاري يفكّر، وهو جالس على مقعد توجيه الدفة، ومتحركاً ببطء بالقارب عبر الظلام، مبتعداً عن الأنوار عند رأس الرصيف، راح يفكّر في أن بيليبس يقوم بعمل لكسب النقود فعلاً. كم يا ترى يظنّ أنه سيقبض؟ أتساءل كيف يا ترى حصل أن تورط مع هؤلاء الأشخاص. ها هو شخص ذكي كان حظه طيباً لمرة واحدة. إنه محام جيد أيضاً. ولكنني أصبت بالقشعريرة لسماعها منه بالذات. لقد أورد نفسه موارد التهلكة بفمه. إنه لعجيب كيف يستطيع المرء أن يتلفظ بشيء ما. حين سمعته يورد نفسه موارد التهلكة، فقد أخافني ذلك.

* * *

الفصل الرابع

حين دخل المنزل لم يشعل النور، بل خلع حذاءه في البهو وصعد الدرجَ العاري بقدميه المغطاتين بالجوارب. خلع ملابسه ودخل السرير مرتدياً قميصه التحتاني فقط، وذلك قبل أن تستيقظ زوجته. قالت في الظلام:

– هاري؟

فقال:

– نامي أيتها المرأة العجوز.

– هاري، ما المسألة؟

– سأقوم برحلة.

– مع من؟

– لا أحد. ربما آلبرت.

– بقارب من؟

– لقد استعدت القارب.

– متى؟

– الليلة.

– ستذهب إلى السجن يا هاري.

– لا أحد يعرف أني استعدته.

- أين هو؟

- مخبأ.

أحسّ بشفتها على وجهه، وأحسّ بها تبحث عنه ويدها عليه فاقترب منها.

- هل تريد؟

- نعم. الآن.

- كنت نائمة. هل تتذكر حين كنا نفعلها ونحن نائمان؟

- اسمعي. هل تنزعجين من الذراع؟ ألا تجعلك تشعرين بشيء مضحك؟

- أنت أحمق. أحبها. أحب أي شيء يخصك. ضعها هناك. عرضاً. ضعها طولاً. هيا. أحبها، حقاً.

- إنها كزعنفة على سلحفاة بحرية ضخمة.

- أنت لست بالسلحفاة البحرية (وتعني أيضاً الأبله- المترجم). هل صحيح أن هذه السلاحف تمارس ذلك الشيء مدة ثلاثة أيام متواصلة؟

- طبعاً. اسمعي، أخفضي صوتك. سنوقظ البنات.

- لا يعرفن ما لديّ. لن يعرفن أبداً ما لديّ. آه يا هاري. أتمنى لو أنك لن تذهب. أتمنى لو أنك لست مضطراً للذهاب فحسب. من كانت أفضل امرأة مارسته معها؟

- أنت.

- أنت تكذب. أنت تكذب عليّ دائماً. هيا. هيا. هيا.

- لا. أنت الأفضل.

- أنا عجوز.

- لن تصبحي عجوزاً أبداً.

– كنت أعاني من ذلك المرض.

– لا فرق حين تكون المرأة صالحة.

– هيا. هيا الآن. ضع الجدعة هناك. أمسك بها هنا. أمسك بها. أمسك بها الآن. أمسك بها. أمسك بها الآن أمسك بها.

– نحن نصدر الكثير من الضجيج.

– نحن نهمس.

– عليّ أن اخرج قبل الفجر.

– نم. سأوقظك. حين تعود سيكون لدينا الوقت الكافي. سنذهب إلى فندق في ميامي كما في الماضي. كما اعتدنا أن نفعل. إلى مكان لم يسبق لأي منا أن شوهد فيه. لم لا نذهب إلى نيو أورليانز؟

قال هاري:

– ربما. اسمعي يا ماري. عليّ أن أنام الآن.

– هل سنذهب إلى نيو أورليانز؟

– لم لا؟ ولكن عليّ أن أنام الآن.

– هيا نم! أنت حبيبي الضخم. نم! سأوقظك. لا تقلق.

نام وجدعة ذراعه على الوسادة، وتمددت هي هناك لفترة طويلة تنظر إليه. كانت قادرة على رؤية وجهه في نور الشارع الداخل من النافذة. أنا محظوظة. هكذا كانت تفكر. وأولئك البنات. إنهم لا يعرفن ما سيفعلنه. أنا أعرف ما فعلته وما امتلكته. كنت امرأة محظوظة. إنه يتكلم كالحمقى. أنا سعيدة أنّها ذراع وليست ساقاً. ما كنت أريد له أن يفقد ساقاً. ولماذا كان عليه أن يفقد تلك الذراع؟ من الغريب أني لا أكترث، لقد كنت امرأة محظوظة. لا يوجد رجال آخرون مثله. من لم يجربوهم لا يعرفون. لقد كان لدي الكثير منهم. أنا محظوظة لأني نلته. هل تعتقدون أن تلك

السلاحف البحرية تشعر كما نشعر؟ هل تعتقدون أنها تشعر هكذا طوال الوقت؟ أم هل تعتقدون أن هذا يؤذي مشاعر الإناث بينها؟ أنا أفكر بألعن الأمور. أنظر إليه، نائماً كطفل صغير. أفضل البقاء مستيقظة حتى أستطيع إيقاظه. يا للمسيح، أنا قادرة على فعل ذلك طوال الليل إن كان الرجل ذا بنية كبنيته. أحب أن أفعلها ولا أنام أبداً. أبداً، أبداً، لا، أبداً. لا، أبداً، أبداً، أبداً. حسناً فكروا في ذلك، هل لكم؟ أنا في مثل هذه السنّ. لست بالعجوز. قال إنّي لا أزال جيدة. في الخامسة والأربعين لا تكون المرأة عجوزاً. أنا أكبره بعامين. انظروا إليه نائماً! انظروا إليه وهو نائم كطفل!

* * *

قبل ساعتين من الفجر كانا عند خزان البنزين في المرآب يملآن الدمجانات ويسدانها بالفلينات ويضعانها في مؤخرة السيارة. لبس هاري خطافاً مثبتاً إلى ذراعه اليمنى وراح ينقل ويرفع الدمجانات المغطاة بالقش ببراعة.

– ألا تريد أن تفطر؟

– حين أعود.

– ألا تريد قهوتك؟

– هل هي جاهزة؟

– طبعاً. وضعتها على النار حين خرجنا.

– اجلبيها!

جلبت القهوة من المنزل فشربها في العتمة وهو جالس إلى مقود السيارة. أخذت الفنجان ووضعته على الرف في المرآب. قالت:

– سأرافقك لأعاونك على نقل القوارير.

– قال لها: حسناً.

وكان أن جلست إلى جانبه في السيارة، امرأة ضخمة طويلة الساقين كبيرة اليدين ضخمة العجز، لا تزال جميلة، وقد ارتدت قبعة غطت بها شعرها الأشقر المائل إلى البياض. وفي عتمة وبرد الصباح انطلقا بالسيارة إلى الطريق الريفية عبر الضباب السميك الذي كان يجثم ثقيلاً فوق الشقة.

– ما الذي يقلقك يا هاري؟

– لا أعرف. أنا قلق فحسب. اسمعي، هل أنت تطيلين شعرك؟

– فكرت في ذلك. البنات يطلبن مني ذلك.

– إلى الجحيم بهنّ. أبقيه كما هو!

– هل تريد ذلك مني حقاً؟

قال:

– نعم. هكذا أحبه.

– ألا تظنّ أني أبدو عجوزاً جداً؟

– تبدين أفضل من أي واحدة منهن.

– سأرتّبه إذن. سأجعله أكثر شقرة إن أحببت.

قال هاري:

– ولماذا تتدخل البنات في أمورك؟ ليس من شأنهن إزعاجك.

– أنت تعرف كيف هن البنات. أنت تعرف أن الفتيات الصغيرات يكنّ هكذا. اسمع، إذا كانت رحلتك موفقة فسوف نذهب إلى نيو أورليانز، أليس كذلك؟

– ميامي.

– حسناً، ميامي على أية حال. وسنتركهن هنا.

– عليّ أن أقوم برحلة أولاً.

– لست قلقاً، أليس كذلك؟

- لا.

- أنت تعرف أني بقيت مستيقظة أربع ساعات تقريباً وأنا أفكر بك.

- أنت امرأة عجوز رائعة.

- يمكنني أن أفكر بك في أي وقت وأستثار.

قال لها هاري:

- حسناً. علينا أن نملأ هذا البنزين الآن.

* * *

الفصل الخامس

في العاشرة صباحاً في بار فريدي كان هاري واقفاً عند البار مع أربعة أو خمسة أشخاص آخرين، وكان موظفان جمركيان قد غادرا للتوّ. كانا قد سألاه عن القارب فأجاب بأنه لا يعرف شيئاً عنه .

سأله أحدهما:

– أين كنت في الليلة الماضية؟

– هنا وفي البيت.

– إلى أي ساعة مكثت هنا؟

– حتى أغلق المحل أبوابه.

– هل رآك أحد هنا؟

قال فريدي:

– كثيرون.

سألهما هاري:

– ما الحكاية؟ هل تعتقدان أني أسرق قاربي؟ ما الذي سأفعله به؟

قال موظف الجمارك:

– سألتك أين كنت فحسب. لا تغضب.

– لست غاضباً. لقد غضبت حين صادروا القارب دون أي دليل على أنه كان ينقل المشروبات.

قال موظف الجمارك:

– هناك شهادة خطية بقسم. و لم تكن تلك شهادتي أنا. أنت تعرف الرجل الذي قدّمها.

قال هاري:

– حسناً. ولكن لا تقل إنّي غاضب منك لأنك توجّه الأسئلة إليّ. أفضّل لو تقوموا بالأحرى بربط القارب جيداً. عندها ستكون لديّ فرصة لاستعادته. وإلاّ فما هي الفرصة التي لديّ لو سرق؟

قال موظف الجمارك:

– ليست هناك أي فرصة على ما أعتقد.

قال هاري:

– هيا اذهب وانصرف إلى عملك.

قال موظف الجمارك:

– لا تكن وقحاً. رتبت لك شيئاً يجعلك وقحاً بالفعل.

قال له هاري:

– بعد خمسة عشر عاماً.

– لم تكن وقحاً منذ خمسة عشر عاماً.

– لا، و لم أدخل السجن أيضاً.

– حسناً، لا تكن وقحاً وإلاّ دخلته.

قال هاري:

– هوّن عليك.

في هذه الأثناء دخل الكوبيّ الأبله سائق التاكسي وهو يحضر شخصاً وصل بالطائرة فقال له «بيغ رودجر»:

– يا «خيسوس»، يقولون لي انك رزقت بولد.

قال خيسوس باعتزاز شديد:

– أجل يا سيدي.

سأله رودجر:

– متى تزوجت؟

– في الشهر الماضي. بل قبل الشهر الماضي. هل حضرت الزفاف؟

قال رودجر:

– لا. لم أحضر الزفاف.

قال خيسوس:

– لقد فاتك الكثير. لقد فاتك زفاف جميل فعلاً. و لم لم تحضر؟

– لم تدعني.

قال خيسوس:

– أوه. أجل لقد نسيت. لم أدعك...

ثم سأل الغريب:

– هل حصلت على ما تريد؟

– أجل، أعتقد ذلك. هل هذا آخر سعر عندك للباكاردي؟

قال له فريدي:

– نعم يا سيدي. هذا هو المعيار الذهبي الحقيقي.

وجه رودجر سؤالاً إلى خيسوس:

– اسمع يا خيسوس، ما الذي يجعلك تظنّ أن ذاك الطفل ابنك؟ إنه ليس كذلك.

- ما الذي تعنيه بأنه ليس ابني؟ ما الذي تعنيه؟ أقسم بالله أني لا أسمح لك أن تتكلم هكذا! ما الذي تعنيه بأنه ليس ابني؟ أنت تشتري البقرة فلا يكون عجلها لك؟ إنّه طفلي. طفلي بحق الله. طفلي. إنّه لي. أجل يا سيدي!

يخرج مع الغريب وزجاجة الباكاردي والضحك على رودجر بالفعل. خيسوس ذاك شخص غريب الأطوار فعلاً. هو وذاك الكوبي الآخر «سويت ووتر» (الماء العذب).

في هذه اللحظة يدخل بيليبس المحامي فيقول لهاري:

- لقد خرج رجال الجمارك الآن لحجز قاربك.

ينظر إليه هاري وكان ممكناً أن نرى القتل في وجهه. تابع بيليبس الكلام باللهجة نفسها دون أي تعبير فيها:

- رآه شخص ما عند الأشجار الاستوائية من أعلى واحدة من تلك الشاحنات العالية التابعة «لإدارة تقدم الأعمال»، وقام بزيارة لدار الجمارك من موقع البناء في «بوكوتشيكا» لقد رأيت «هرمان فريدريكس» للتو. هو الذي أخبرني.

لم يقل هاري شيئاً، ولكن كان ممكناً رؤية القتل في وجهه، وعادت عيناه إلى طبيعتهما مرة أخرى، ثم قال لبيليبس:

- أنت تسمع كل شيء، أليس كذلك؟

قال بيليبس بذلك الصوت نفسه الخالي من التعبير:

- ظننت أنك قد تحب أن تعرف.

قال هاري:

- ليس هذا من شأني. عليهم أن ينتبهوا على نحو أفضل للقارب.

وقف كلاهما هناك عند البار و لم يقل أي منهما شيئاً حتى خرج «بيغ رودجر» واثنان أو ثلاثة آخرون. ثم ذهبا إلى المؤخرة.

قال هاري:

– أنت سمّ. كل ما تلمسه يصبح سمّاً.

– هل كانت تلك غلطة أن شخصاً رآه من فوق شاحنة؟ أنت الذي اختار المكان لقد خبأت قاربك بنفسك.

قال هاري:

– اخرس. هل سبق أن كان عندهم شاحنات عالية إلى ذلك الحد سابقاً؟ هذه آخر فرصة لي لكسب أية نقود شريفة. هذه آخر فرصة لي للذهاب في قارب وكسب نقود.

– لقد أبلغتك لحظة حدوث ذلك.

– أنت كالطير الجارح.

قال بيلبيس:

– كفى. يريدون الذهاب في وقت متأخر من عصر اليوم.

– إلى الجحيم.

– إنهم عصبيون بخصوص أمر ما.

– في أي ساعة يريدون الرحيل؟

– الخامسة.

– سأحصل على قارب. سأنقلهم حتى إلى جهنم.

– ليست هذه بالفكرة السيئة.

– لا تقل ذلك الآن. أبعد فمك عن شؤوني.

قال بيلبيس:

– اسمع أيها الجلف القاتل الضخم. أنا أحاول مساعدتك للحصول على...

– كل ما تفعله هو أنك تسمّمني. اخرس. أنت سمّ لأي شخص يلمسك.

– كفى أيها المتنمّر.

قال هاري:

– هوّن عليك. عليّ أن أفكّر. كلّ ما فعلته هو أن أفكّر بشيء ما كمخرج. والآن عليّ أن أفكر بشيء ما.

– لم لا تسمح لي بمساعدتك؟

– تعال إلى هنا في الساعة الثانية عشرة واجلب تلك النقود لتضعها رهناً للقارب.

* * *

لدى خروجهما وصل آلبرت إلى المكان واتجه نحو هاري.

قال هاري:

– أنا آسف يا آلبرت. لا أستطيع استخدامك.

كان قد فكر في ذلك سابقاً.

قال آلبرت:

– مستعد للذهاب بأجر بخس.

قال هاري:

– آسف. لم أعد في حاجة إليك الآن.

قال آلبرت:

– لا يمكنك أن تجد رجلاً جيداً بسعري.

– سأذهب وحدي.

قال آلبرت: أنت لا تودّ القيام برحلة كتلك وحدك.

قال هاري:

– اخرس. ما الذي تعرفه عن الموضوع؟ هل يعلّمونك مهنتي في عملك ذاك كبديل؟

قال آلبرت:

– اذهب إلى الجحيم.

قال هاري:

– ربما سأفعل ذلك.

كان بمقدور أي شخص ينظر إليه أن يعرف أنه كان يفكّر بسرعة كبيرة، و لم يكن يريد أن يزعجه احد.

قال آلبرت:

– أريد الذهاب.

قال هاري:

– لا أستطيع استخدامك. اتركني بحالي، هل لك؟

خرج آلبرت ووقف هاري هناك عند البار وهو ينظر إلى آلة الخمسة سنتات وآلتي العشرة سنتات وآلة ربع الدولار وصورة «آخر موقعة لكاستر» على الجدار كأنه لم يسبق له أن رآها من قبل.

قال له فريدي وهو يضع كاسات القهوة في دلو الماء والصابون:

– كان ذلك رداً جيداً من خيسوس على رودجر حول الطفل، أليس كذلك؟

قال هاري:

– أعطني علبة لفافات «تشيستر فيلد».

أمسك بالعلبة تحت جدعة ذراعه وفتحها من زاوية وأخرج لفافة ووضعها في فمه، ثم أسقط العلبة في جيبه وأشعل اللفافة. سأل:

– كيف حال قاربك يا فريدي؟

– لقد خرج للتو من الإصلاح. إنّه في حال جيدة.

– هل تودّ تأجيره؟

– لماذا؟

– لرحلة إلى كوبا.

– بشرط أن يدفع رهنه.

– كم يساوي؟

– ألفاً ومائتي دولار.

قال هاري:

– سأستأجره. هل لك أن تضعه في عهدتي؟

قال له فريدي:

– لا.

– سأضع لك المنزل كرهن.

– لا أريد منزلك. أريد ألفاً ومائتي دولار.

قال هاري:

– حسناً.

قال فريدي:

– اجلب المبلغ!

قال هاري:

– حين يأتي بيليبس قل له أن ينتظرني.

ثم خرج.

الفصل السادس

في المنزل كانت ماري تتناول الغداء مع البنات.

قالت الكبرى:

– مرحباً يا بابا. ها هو بابا قد وصل.

سأل هاري:

– ماذا لديك للأكل؟

قالت ماري:

– لدينا شرائح لحم بقر.

– قال أحدهم إنهم سرقوا قاربك يا بابا.

قال هاري:

– لقد وجدوه

نظرت ماري إليه. سألته:

– من وجده؟

– الجمارك.

قالت بلهجة مشفقة:

– أوه يا هاري.

سألت الثانية بين البنات:

– أليس ذلك أفضل؟ أعني أنهم وجدوه؟

قال لها هاري:

– لا تتكلمي وأنت تأكلين. أين غدائي؟ ما الذي تنظرين إليه؟

– ها أنا أجلبه لك.

قال هاري:

– أنا على عجلة من أمري. كلن أيتها البنات واخرجن. علي أن أكلّم أمكن.

– هل يمكن أن تعطينا نقوداً لنذهب إلى السينما عصر هذا اليوم يا بابا؟

– لماذا لا تذهبين للسباحة؟ إنها مجانية.

– أوه يا بابا، الجو بارد على السباحة ونحن نريد الذهاب إلى السينما.

قال هاري:

– حسناً، حسناً،

حين خرجت البنات من الغرفة قال لماري:

– قطّعي اللحم. هل لك؟

– طبعاً يا حبيبي.

قطعت له اللحم كأنه صبي صغير. قال هاري:

– شكراً أنا رجل مزعج لعين، أليس كذلك. أولئك البنات لسن بالشيء العظيم، أليس كذلك؟

– لا يا حبيبي.

– من الغريب أننا لم نرزق بصبيان.

– هذا لأنك رجل هائل. الرجال الحقيقيون لا يرزقون إلا بالبنات.

قال هاري:

– لست رجلاً هائلاً. ولكن اسمعي. سأذهب في رحلة جهنمية.

– احك لي عن القارب.

– رأوه من فوق شاحنة عالية.

– اللعنة.

– أسوأ من ذلك. خـ...

– أوه يا هاري. لا تقل مثل هذا الكلام في البيت.

– تتكلمين على نحو أسوأ من ذلك في الفراش أحياناً.

– هذا أمر مختلف. لا أريد أن أسمع خـ... على مائدتي.

– أوه، خـ...

قالت ماري:

– أوه يا عزيزي أنت لست على ما يرام.

– لا أنا أفكر فحسب.

– حسناً، فكّر في ذلك. لديّ ثقة بك.

– لديّ الثقة. إنها الشيء الوحيد الذي أملكه.

– هل تريد أن تحكي لي عنه؟

– لا. ولكن لا تقلقي مهما سمعت من أشياء.

– لن أقلق.

– اسمعي يا ماري. اصعدي إلى باب السقيفة الأفقي واجلبي لي بندقية تومسون، وانظري في ذلك الصندوق الخشبي الذي يحوي الطلقات وعبئي كل الأمشاط.

– لا تأخذها معك.

– أنا مضطر إلى أخذها.

– هل تريد أي علب ذخيرة؟

- لا لا أستطيع تعبئة أي أمشاط. لديّ أربعة منها فقط.

- لا يا حبيبي، أنت لن تذهب في رحلة من ذلك النوع، أليس كذلك؟

- أنا ذاهب في رحلة شريرة؟

قالت:

- يا إلهي. أوه يا ربي، أتمنى لو أنك لا تضطر إلى فعل مثل هذه الأشياء.

- هيا اجلبيها وانزليها إلى هنا. وأحضري لي بعض القهوة!

قالت ماري:

- حسناً.

انحنت من فوق المائدة وقبلته على فمه.

قال هاري:

- اتركيني لوحدي. عليّ أن أفكر.

جلس إلى المائدة ونظر إلى البيانو، إلى الخوان والراديو، وإلى لوحة «صباح أيلول» وصور الكيوبيدات الممسكة بالأقواس خلف رؤوسها، والطاولة اللامعة المصنوعة من خشب السنديان الأصلي والستائر على النوافذ، وراح يفكر. أية فرصة لديّ للتمتّع بيتي؟ لماذا أعود إلى ما وراء نقطة انطلاقي؟ سيذهب هذا البيت أيضاً إذا لم أمارس لعبتي كما يجب. يا للجحيم. ليس معي ستون دولاراً خارج هذا البيت، ولكني سأكسب من هذه المغامرة. أولئك البنات اللعينات. هذا كل ما استطعنا، تلك المرأة العجوز وأنا، الحصول عليه بما هو لدينا. هل تعتقد أن الصبيان الذين فيها قد نفدوا قبل أن أعرفها؟

قالت ماري وهي تحمل البندقية من نطاق كيسها:

- ها هي. والأمشاط كلها مليئة.

قال هاري:

- عليّ أن أذهب.

رفع الوزن الثقيل للبندقية المفكّكة في كيسها القماشي المبقع بالزيت. قال:

- ضعيها تحت المقعد الأمامي للسيارة.

قالت له ماري:

- وداعاً.

- وداعاً أيتها المرأة العجوز.

- لن أقلق. ولكن أرجوك أن تعتني بنفسك.

- كوني طيبة.

- أوه يا هاري:

ثم ضمته إليها.

- اتركيني. ليس لديّ وقت.

ربت على ظهرها بجدعة ذراعه.

قالت له:

- أنت وزعنفتك الحمقاء. أوه يا هاري. كن حذراً.

- عليّ أن أذهب. وداعاً أيتها المرأة العجوز.

وداعاً يا هاري.

راقبته وهو يخرج من المنزل، طويلاً، عريض المنكبين، منبسط الظهر، ضيق الوركين، متحركاً، ثابتاً، فكرت: إنه كنوع من الحيوانات، رشيق وسريع وليس عجوزاً بعد، ويتحرك بخفة وليونة، هكذا فكرت. وعندما ركب السيارة رأته أشقر بشعر سفعته الشمس، ووجهه ذو عظام نائة الوجنتين كالمغول، وعيناه ضيقتان، والأنف مكسور عند القصبة، وفمه واسع وفكّه مدوّر. وقد ابتسم لها حين دخل السيارة فبدأت تبكي.

فكرت: «وجهه الملعون من الرب. كل مرة أرى فيها وجهه الملعون من الرب يجعلني أبكي».

***

الفصل السابع

كان في بار فريدي ثلاثة من السيّاح، وكان فريدي يقدّم لهم الشراب. كان أحدهم رجلاً طويلاً جداً، نحيل الجسم، عريض المنكبين، يرتدي الشورت، ويضع نظارات طبية سميكة. كان أسمر البشرة من التعرض للشمس، له شاربان صغيران مشذبان جيداً ولهما لون الرمل. أما المرأة التي في صحبته فكانت قد قصت شعرها الأشقر المجعّد قصيراً كالرجال، وكانت لها بشرة لا توحي بالعافية، ولها وجه وبنية سيدة تمارس المصارعة وكانت هي أيضاً ترتدي الشورت.

كانت تقول للسائح الثالث الذي كان له وجه منتفخ وشارب بلون الصدأ، ويرتدي قبعة قماشية بيضاء لها حافة خضراء من السيلولويد، ويتمتّع بخاصيّة الكلام بحركة استثنائية من شفته كأنه يأكل شيئاً ساخناً جداً لا يجعله يشعر بالراحة.

– اذهب إلى الجحيم!

قال الرجل ذو القبعة ذات الحافة الخضراء:

– لكم هذا فاتن، لم يسبق لي أن سمعت هذا التعبير يقال فعلاً خلال المحادثة. لقد حسبتها عبارة لم تعد قيد الاستعمال، شيئاً يراه الإنسان مطبوعاً في المجلات الكوميدية المصورة ولكنه لا يسمعها أبداً.

قالت السيدة المصارعة في نوبة مفاجئة من الفتنة وهي تريه جانب وجهها المليء بالبثور:

– اذهب إلى الجحيم مضاعفاً،

قال الرجل ذو القبعة ذات الحافة الخضراء:

– لكم هذا جميل. أنت تلفظينها على نحو جميل جداً. أليس هذا التعبير من «بروكلين» في الأصل؟

قال السائح الطويل:

– عليك ألا تعيرها كل هذا الاهتمام. إنها زوجتي. هل سبق لكما وتعارفتما؟

قالت الزوجة:

– ليذهب إلى الجحيم هو والتعرف عليه. كيف حالك؟

قال الرجل ذو القبعة ذات الحافة الخضراء:

– ليس سيئاً جداً. وأنت كيف حالك؟

قال الطويل:

– إنها في حال رائعة. عليك أن تراها.

في تلك اللحظة دخل هاري فقالت زوجة السائح الطويل:

– أليس رائعاً؟ هذا ما أريده. ابتعه لي يا بابا.

قال هاري لفريدي:

– هل يمكنني أن أحدثك؟

قالت زوجة السائح الطويل:

– بكل تأكيد. هيا قل أي شيء تريده.

قال هاري:

– اخرسي يا عاهرة. تعال إلى الخلف يا فريدي!

في الخلف كان بيليبس ينتظر عند المائدة. قال لهاري:

- مرحباً يا هاري الضخم.

قال هاري:

- اخرس!

- اسمع. توقف عن هذا الكلام. لا يمكنك أن تتصرف هكذا. لا يمكنك أن تنادي زبائني بمثل تلك الأسماء. لا يمكنك أن تسمّي سيدة بالعاهرة في مكان محترم كهذا.

قال هاري:

- عاهرة. أسمعت ما قالته لي؟

- ولكن على أية حال لا تدعها بمثل هذا في وجهها.

- حسناً. هل النقود معك؟

قال بيليبس:

- طبعاً. ولماذا لا تكون النقود معي؟ ألم أقل لك إني سأحصل عليها؟

- فلنرها إذن.

سلّم بيليبس النقود. عدّها هاري عشر أوراق من فئة المائة دولار وأربعة من فئة العشرين.

- يجب أن تكون ألفاً ومائتين.

قال بيليبس:

- ناقصة عمولتي.

- هيا أخرجها.

- لا.

- هيا.

- لا تتحامق.

– أيها الشيء الصغير التافه البائس.

قال بيليبس:

– أيها المتنمّر الضخم. لا تحاول أن تأخذها مني بالقوة لأنها ليست معي.

قال هاري:

– أرى ذلك، كان عليّ أن أفكّر به وآخذه بالحسبان. اسمع يا فريدي. أنت تعرفني منذ فترة طويلة. وأنا أعرف أن القارب يساوي ألفاً ومائتين. ولكنني سأعطيك هذا المبلغ الذي ينقص مئة وعشرين. خذه وخاطر بالمائة والعشرين وعقد الإيجار.

قال فريدي:

– أي ثلاثمئة وعشرون دولاراً.

كان يؤلمه أن يغامر بمبلغ كهذا وراح يتعرّق وهو يفكر.

– لدي سيارة وراديو في المنزل تعادل قيمتها هذا المبلغ.

قال بيليبس:

– يمكنني أن أعدّ وثيقة بهذا الخصوص.

قال فريدي:

– لا أريد أي أوراق.

راح يتعرق مجدداً وأصبح صوته مشوباً بالتردّد. ثم قال:

– حسناً، سأخاطر ولكن أستحلفك بالمسيح أن تعتني بالقارب جيداً. هل لك يا هاري؟

– كأنه قاربي.

قال فريدي وهو لا يزال يتعرق:

– لقد فقدت قاربك.

كانت معاناته قد تضاعفت الآن بسبب تلك الذكرى.

– سأعتني به.

قال فريدي:

– سأضع النقود في صندوقي في المصرف.

نظر هاري إلى بيليبس. قال:

– هذا مكان جيد.

ثم ابتسم.

نادى أحدهم من الأمام:

– أيها الساقي.

قال هاري:

– إنهم ينادون عليك.

وصل الصوت مرة أخرى.

– أيها الساقي.

خرج فريدي إلى الأمام.

سمع هاري الصوت العالي يقول:

– ذلك الرجل أهانني.

ولكنه كان يكلم بيليبس.

– سأكون مرابطاً عند الرصيف، هناك عند أول الشارع. ليس المكان بعيداً ولا حتى نصف مجموعة من الأبنية.

– حسناً.

– هذا كل ما في الأمر.

– حسناً أيها العظيم الشأن.

- لا تخاطبني بهذا الأسلوب.

- كما تريد.

- سأكون هناك اعتباراً من الساعة الرابعة.

- أي شيء آخر؟

- عليهم أن يأخذوني بالقوة، أفهمت؟ لا أعرف أي شيء حول الموضوع. أنا أعمل على المحرّك فقط. لا شيء لديّ على ظهر القارب للقيام برحلة. لقد استأجرته من فريدي لأؤجره لصيد السمك. عليهم أن يجبروني بالمسدس على تشغيل المحرك ثم يقطعون الحبال.

- وماذا عن فريدي؟ لم تستأجر القارب منه للذهاب إلى الصيد به.

- سأكلم فريدي

- الأجدر بك ألا تفعل.

- بل سأفعل.

- الأجدر بك ألاّ تفعل.

- بل سأفعل. ألاّ تفعل.

- بل سأفعل.

- الأجدر بك ألاّ تفعل.

- اسمع. لقد تعاملت مع فريدي خلال الحرب. وقد كنت شريكاً له مرتين و لم تكن هناك مشاكل. أنت تعرف كم هرّبت له من المشروبات. إنه ابن القحبة الوحيدة الذي أثق به في هذه البلـدة.

- ما كنت لأثق بأحد.

- ليس عليك. ليس بعد التجارب التي مررت بها.

- اتركني بحالي.

– حسناً. اخرج وابحث عن أصدقائك. كيف سيكون تفسيرك للأمور، إذا ألقي القبض عليك؟

– إنهم كوبيون. قابلتهم في نزل على الطريق. كان أحدهم يريد أن يصرف شيكاً مصدقاً. ما العيب في ذلك؟

– وأنت لا تلاحظ شيئاً؟

– لا. طلبت منهم أن يقابلوني في المصرف.

– من سيقود السيارة بهم؟

– أحد سائقي التاكسي.

– وهل سيحسبهم عازفي كمان؟

– سنختار واحداً لا يفكّر. هناك الكثير ممّن لا يفكرون في هذه البلدة. انظر إلى خيسوس.

خيسوس ذكي. ولكنه يتكلم بطريقة مضحكة فحسب.

– سأجعلهم ينادون على سائق غبي.

– ليكن سائقاً دون أطفال.

– كلهم لديهم أطفال. هل سبق لك ورأيت سائق تاكسي دون أطفال؟

– وأنت جرذ لعين.

قال بيلييس:

– حسناً، ولكن لم يسبق لي أن قتلت أي شخص.

– ولن تفعل أبداً. هيا، فلنخرج من هنا. إن وجودي معك بالذات يجعلني أحس بالقذارة.

– ربما تكون أنت قذراً.

– هل تستطيع منعهم من الكلام؟

– إذا لم تقم بإغلاق فمك بالصمغ.

– أغلق فمك بالصمغ.

– أغلق فمك أنت إذن.

قال هاري:

– سأتناول كأساً.

* * *

في الأمام كان السوّاح الثلاثة جالسين على كراسٍ عالية. وحين وصل هاري إلى البار أشاحت المرأة بوجهها عنه لتعبّر عن اشمئزازها.

سأله فريدي:

– ما الذي ستشربه؟

سأل هاري:

– ما الذي تشربه السيدة؟

– «كوبا ليبرة».

– إذن أعطني كأساً من الويسكي الصرف.

انحنى السائح الطويل ذو الشارب الصغير الذي بلون الرمل والنظارات السميكة بوجهه الكبير ذي الأنف المستقيم نحو هاري وقال:

– قل لي، لماذا كلمت زوجتي بتلك الطريقة؟

رفع هاري نظره إليه ثم نظر إلى أسفل وقال لفريدي:

– أي نوع من البارات تدير؟

قال الطويل:

– وماذا عن ذلك؟

قال له هاري:

– هوّن عليك.

– لا يمكنك أن تتصرف معي هكذا.

قال هاري:

– اسمع، لقد جئت إلى هنا لتصبح معافى وقوياً، أليس كذلك؟ هوّن عليك.

ثم خرج.

قال السائح الطويل:

– كان عليّ أن أضربه. ما رأيك يا عزيزتي؟

قالت زوجته:

– أتمنى لو كنت رجلاً.

قال الرجل ذو القبعة ذات الحافة الخضراء وهو يحتسي البيرة:

– بهذه البنية التي لديك فأنت قد سبق لك وقطعت نصف الطريق إلى ذلك.

قال الطويل:

– ما الذي قلته؟

– قلت إنّ بإمكانك أن تعرف اسمه وعنوانه وتكتب له رسالة تقول له فيها رأيك به.

– قل لي ما اسمك أنت على أي حال؟ ما الذي تفعله، أأنت تسخر مني؟

– سمّني البروفسور ماك وولزي.

– اسمي لوتون. أنا كاتب.

قال البروفسور ماك وولزي:

– يسرني أن أتعرف عليك. هل تكتب غالباً؟

نظر الرجل الطويل فيما حوله وقال:

– هيا نخرج يا عزيزتي. الكل هنا إمّا يهيننا أو هو مجنون.

قال البروفسور ماك وولزي:

– إنه مكان غريب. ولكنه آسر بالفعل. إنهم يسمونه جبل طارق أمريكا. إنه يبعد ثلاثمئة وسبعين ميلاً إلى الجنوب من القاهرة، مصر. ولكن هذا المكان هو الجزء الوحيد منه الذي أتيح لي أن أراه حتى الآن. ولكنه مكان جميل على أية حال.

قالت الزوجة:

– أستطيع أن أرى جيداً أنك بروفسور. أتعرف؟ أنت تعجبني.

قال البروفسور ماك وولزي:

– أنت تعجبينني أيضاً يا حبيبتي. ولكن عليّ أن أغادر الآن.

نهض وخرج يبحث عن دراجته.

قال الرجل الطويل:

– الكل مجانين هنا. هل نشرب كأساً أخرى يا عزيزتي؟

قالت الزوجة:

– لقد أحببت البروفسور. إنّ أسلوبه حلو.

– ذلك الشخص الآخر...

قالت الزوجة:

– أوه، له وجه جميل. كوجه تَتريّ أو ما شابه. أتمنى لو أنّه لم يوجّه الإهانات إلينا. لقد بدا وجهه كوجه جنكيز خان. يا إلهي، لقد كان ضخم الجثّة.

قال زوجها:

- كان بذراع واحدة فقط.

قالت الزوجة:

- لم ألاحظ ذلك. هل نتناول كأساً أخرى؟ أتساءل من سيكون التالي؟

قال الزوج:

- ربما تيمورلنك.

قالت الزوجة:

- يا إلهي، أنت مثقّف. ولكن جنكيز خان ذاك كان سيكفيني. لماذا أحب البروفسور سماع عبارة «اذهب إلى الجحيم» مني؟

قال لوتون الكاتب: لا أعرف يا عزيزتي. لم أحببها أنا قط.

قالت الزوجة: بدا عليه أنه يحبني كما أنا. عجباً، لقد كان لطيفاً.

- ربما سترينه مرة أخرى.

قال فريدي:

- سترونه في أي مرة تأتون بها إلى هنا. إنه يعيش هنا. إنه هنا منذ أسبوعين.

- من الآخر الذي كان وقحاً؟

- هو؟ أوه، إنه شخص من سكان البلدة.

- وما عمله؟

- إنه يعمل أشياء كثيرة. إنه صياد سمك.

- وكيف فقد ذراعه؟

- لا أعرف. لقد أصيبت بطريقة ما.

قالت الزوجة:

- يا إلهي.. إنه جميل.

ضحك فريدي.

– لقد سمعت الناس يسمونه بأسماء كثيرة، ولكنّي لم أسمعهم يسمونه بالجميل قط.

– ألا تعتقد أن له وجهاً جميلاً؟

قال فريدي:

– هوّني عليك يا سيدتي. إن له وجهاً أشبه بفخذ خنزير وعليه أنف مكسور.

قالت الزوجة:

– يا إلهي، الرجال أغبياء. إنه رجل أحلامي.

قال فريدي:

– إنه رجل الأحلام الشريرة.

خلال ذلك الوقت كله كان الكاتب يجلس ونوع من النظرة الغبية على وجهه باستثناء تلك المرات التي كان ينظر بها إلى زوجته بإعجاب. كان ممكناً لكل شخص أن يكون كاتباً أو عضواً في «الإدارة الفدرالية للإغاثة في حالات الطوارئ» حتى تكون له مثل هذه الزوجة، هكذا فكّر فريدي. يا إلهي، أليست هي رهيبة؟

في هذه اللحظة دخل آلبرت.

– أين هاري؟

– على رصيف الميناء.

قال آلبرت:

– شكراً.

خرج آلبرت وظلت الزوجة والكاتب جالسين هناك، ووقف فريدي قلقاً بشأن القارب ومفكراً بساقيه اللتين تؤلمانه لوقوفه طوال اليوم. كان

قد وضع حاجزاً مشبكاً فوق إسمنت الأرضية ولكن لم يبد أنه قد أدى إلى نتيجة. فساقاه تؤلمانه طوال الوقت. ومع ذلك فإن تجارته رابحة، شأنه شأن أي شخص في البلدة مع نفقات غير مباشرة أقل من غيره. كانت المرأة حمقاء بالفعل. ولكن أي نوع من الرجال هو الذي يختار امرأة كهذه ليعيش معها؟ حتى لو كانت عيناك مغلقتين، هكذا فكر فريدي. ولا حتى بعينين معارتين. ومع ذلك فهما لا يزالان يشربان الكوكتيل، مشروبات غالية الثمن. هذا مهمّ. قال:

- أجل يا سيدي. فوراً.

دخل رجل قويّ البنية ذو وجه لوّحته الشمس وشعر بلون الرمل، ويرتدي قميص صيادي السمك المخطط وشورتاً خاكي اللون ومعه فتاة جميلة جدّاً، كانت ترتدي جاكتة صوفية بيضاء رقيقة وبنطالاً أزرق داكن اللون.

قال لوتون وهو ينهض:

- إنه دون شك ريتشارد غوردون ومعه السيدة هيلين الجميلة.

قال ريتشارد غوردون:

- مرحباً لوتون. هل رأيت بروفسوراً سكيراً هنا؟

قال فريدي:

- لقد خرج للتو.

سأل ريتشارد غوردون زوجته:

- هل تريدين كأساً من الفيرموت يا حبيبتي؟

قالت:

- إن كنت تريد أنت.

ثم سلّمت على الزوجين لوتون، وأردفت:

– أجعل كأسي فرنسي الثلثين إيطالي الثلث الثالث.

جلست على كرسي مرتفع وحشرت ساقيها تحتها، وراحت تتطلع إلى الشارع عبر النافذة. نظر فريدي إليها بإعجاب. كان يعتقد أنها أجمل غريبة في «كي وست»، في ذلك الشتاء. كانت برادلي الشهيرة بجمالها. كانت السيدة برادلي تعاني من بعض السمنة مؤخراً. كان لهذه الفتاة وجه أيرلندي جميل وشعر داكن مجعّد حتى الكتفين وبشرة صافية ناعمة. نظر فريدي إلى يدها السمراء الممسكة بالكأس.

سأل لوتون ريتشارد غوردون:

– كيف هو العمل؟

قال غوردون:

– أموري جيدة. وأنت كيف عملك؟

قالت السيدة لوتون:

– جيمس لا يعمل. إنه يشرب فقط.

سأل لوتون:

– قل، من هو البروفسور ماك وولزي هذا؟

– أوه، إنه بروفسور في الاقتصاد على ما أعتقد، وهو في سنة راحة من التدريس أو ما شابه. إنه صديق هيلين.

قالت هيلين غوردون:

– أحبه.

قالت السيدة لوتون:

– وأنا أيضاً.

قالت هيلين غوردون بسعادة:

– لقد أحببته أنا أولاً.

قالت السيدة لوتون:

– أوه، يمكنك أن تأخذيه. أنتن الفتيات الصغيرات الجيدات تنلن دوماً ما تطلبنه.

قالت هيلين غوردون:

– هذا ما يجعلنا جيدات إلى هذا الحد.

قال ريتشارد غوردون:

– سأتناول كأساً أخرى من الفرموت.

ثم سأل الزوجين لوتون:

– هل تشربان كأساً أخرى؟

قال لوتون:

– ولم لا؟ قل، هل ستذهبان إلى ذلك الحفل الكبير الذي يقيمه آل برادلي غداً؟

قالت هيلن غوردون:

– طبعاً سيذهب.

قال ريتشارد غوردون:

– أحبها كما تعرف. إنها تعجبني كامرأة وكظاهرة اجتماعية.

قالت السيدة لوتون:

– يا إلهي. يمكنك أن تتكلّم كمثقّف شأنك شأن البروفسور.

قال لوتون:

– لا تتباهي بأميّتك يا عزيزتي.

سألت هيلين غوردون وهي تنظر إلى الخارج عبر الباب:

– هل يذهب الناس إلى الفراش مع ظاهرة اجتماعية؟

قال ريتشارد غوردون:

– كفاك هراء!

سألت هيلين:

– أعني هل هو جزء من الوظيفة المنزلية لكاتب؟

قال ريتشارد غوردون:

– على الكاتب أن يعرف كل شيء. لا يمكنه أن يقصر تجربته بحيث تنطبق على المعايير البورجوازية.

قالت هيلين:

– أوه. وما الذي تفعله زوجة الكاتب؟

قالت السيدة لوتون:

– الكثير على ما أظنّ. كان عليكما أن تريا الشخص الذي غادر المكان للتوّ وقد شتمني أنا وجيمس. لقد كان رائعاً.

قال لوتون:

– كان عليّ أن أضربه.

قالت السيدة لوتون:

– كان رائعاً بالفعل.

قالت هيلين غوردون:

– أنا ذاهبة إلى البيت. هل ستأتي يا ديك؟

قال ريتشارد غوردون:

– فكرت في أن أبقى في وسط البلدة قليلاً.

قالت هيلين غوردون وهي تنظر في المرآة خلف رأس فريدي:

– ماذا؟

قال ريتشارد غوردون:

- أجل.

ظنّ فريدي الذي كان ينظر إليها أنها ستبكي. كان يأمل ألاّ يحدث ذلك في باره.

سألها ريتشارد غوردون:

- ألا تريدين كأساً أخرى؟

هزت رأسها قائلة:

- لا.

سألت السيدة لوتون:

- قولي، ما حكايتك؟ ألا تستمتعين بوقتك؟

قالت هيلين غوردون:

- إنه وقت ممتاز ولكني أعتقد أن ذهابي إلى البيت هو شيء مشابه.

قال ريتشارد غوردون:

- سأعود باكراً.

قالت له:

- لا تكترث!

خرجت. لم تبك. ولم تجد جون ماك وولزي أيضاً.

* * *

الفصل الثامن

عند الرصيف كان هاري مورغان قد قاد سيارته إلى المكان الذي كان القارب واقفاً فيه، ولم ير أحداً في المكان فرفع المقعد الأمامي لسيارته وأخرج الكيس المسطّح ذا الشبكة المثقل بالزيت وأسقطه في قمرة القارب.

دخل هو الآن بنفسه وفتح غطاء المحرك ووضع كيس البندقية الآلية في الأسفل بعيداً عن الأنظار. أدار صمامات البنزين فاشتغل كلا المحركين. انطلق المحرك الأيمن جيداً بعد دقيقتين، ولكن المحرك الأيسر أخفق عند الأسطوانتين الثانية والرابعة، فوجد أنَّ السدادات كانت متصدعة. فتش عن سدادات جديدة لم يجدها.

فكّر: «عليّ أن أشتري سدادات وأملأه بالبنزين.»

في الأسفل عند المحركين فتح كيس البندقية الآلية ووضع مخزن الطاقات في البندقية. وجد قطعتين من «حزام» مروحة وأربعة براغ، ففتح شقوقاً في «الحزام» وصنع حاملاً ليعلّق البندقية تحت أرض القمرة إلى يسار الفتحة فوق المحرك اليساري تماماً. كانت ممددة هناك نائمة في مهدها براحة، ثم دفع بمشط من أمشاط الطلقات الأربع الموجودة في جيوب الشبكة، دفع به إلى البندقية. ثم ركع بين المحركين ومدّ يده لأخذ البندقية.

كان عليه أن يتحرك حركتين فقط ليتناولها. أوّلاً عليه أن يفكّ نطاق

الحامل الذي يلتفّ حول كتلة المغلاق خلف الرتاج. ثم يجذب البندقية إلى خارج الأنشوطة الثانية. أعاد المحاولة ونجح في ذلك بيد واحدة. دفع بالعتلة الصغيرة من الحركة نصف الآلية إلى الحركة الآلية وتأكد من أن ماسكة الأمان في وضعها الصحيح. ثم ثبّت البندقية مرة أخرى. لم يستطع أن يتصور أين يضع أمشاط الطلقات الإضافية، فدفع بالكيس تحت خزان الوقود في الأسفل حيث يستطيع الوصول إليها، مع أعقاب الأمشاط باتجاه يده. لو نزلت لأول مرة بعد أن ننطلق، أستطيع أن أضع زوجاً منها في جيبي، هكذا كان يفكر. الأفضل ألاّ أضعها معي وإلاّ انطلقت هذه اللعينة فجأة لسبب من الأسباب.

نهض واقفاً. كان عصر يوم رائق جميل، لطيف، ليس بارداً، تشوبه ريح شمالية خفيفة. كان عصراً جميلاً بالفعل. كان المدّ آخذاً بالانحسار ورأى طائرين من فصيلة البجع يجلسان على أعمدة عند حافة القناة. تحرك زورق لصيد سمك النعّار مطلي باللون الأخضر في طريقه إلى سوق السمك، وصياد السمك الزنجي جالس في مؤخر القارب وهو يمسك بذراع الدفة. تطلع هاري إلى الماء الناعم والريح تهبّ مع المدّ، الماء الأزرق الرمادي تحت شمس العصر، ثم إلى الجزيرة الرملية التي تشكلت حين حفرت القناة حيث اكتشف معسكر القرش. كانت هناك نوارس بيضاء تحوّم فوق الجزيرة.

فكّر هاري: «ستكون ليلة جميلة. ستكون ليلة لطيفة للعبور».

كان يتعرق قليلاً لكونه قريباً من المحركين، ثم نهض ومسح وجهه بخرقة.

ها هو آلبرت على الرصيف. قال:

– اسمع يا هاري. أتمنى أن تصطحبني.

– ما حكايتك الآن؟

- سيعطوننا عملاً ثلاثة أيام فقط في الأسبوع الآن نحن البدلاء. لقد سمعت ذلك هذا الصباح. عليّ أن أفعل شيئاً ما حيال ذلك.

قال هاري:

حسناً.

كان يفكر مجدداً الآن.

- حسناً.

قال آلبرت:

- لا بأس. كنت أخشى الذهاب إلى البيت لمقابلة زوجتي. لقد فتحت عليّ أبواب جهنم ظهر هذا اليوم وكأني أنا الذي سرّح البدلاء.

سأله هاري بمرح:

- ما حكاية زوجتك؟ لماذا لا تضربها؟

قال آلبرت:

- اضربها أنت! أود أن أسمع ما ستقوله لك. إنها امرأة رهيبة حين تتكلم.

قال هاري:

- اسمع يا آل. خذ سيارتي واذهب ودر من حول مستودع الخردة البحرية واحصل على ستة سدادات مترية كهذه. ثم اشتر قطعة ثلج بعشرين سنتاً ونصف دزينة من سمك الجرن، واشتر كذلك علبتي قهوة وأربع علب لحم عجل ورغيفين وبعض السكر وعلبتي حليب مجفّف. وتوقف عند محطة سنكلير وقل لهم أن يأتوا إلى هنا ويملؤوا القارب بمئة وخمسين غالوناً. وعد بأسرع ما تستطيع وغيّر السدادتين رقم (٢) و(٤) في المحرك اليساري وعدّها بدءاً من جهة دولاب تعديل السرعة. وقل لهم أني سأعود لأدفع ثمن البنزين. يمكنهم الانتظار أو سيجدونني في

بار فريدي. هل تستطيع أن تتذّكر هذا كله؟ سنأخذ فريقاً لصيد سمك الطربون وسنصطحبه غداً.

قال آلبرت:

– الجو بارد لا يناسب صيد الطربون.

قال له هاري:

– ليس الفريق من هذا الرأي.

قال آلبرت:

– أليس من الأفضل أن أشتري اثنتي عشرة سمكة؟ في حال قام القرش بنهشها؟ هناك الكثير من القرش في تلك القنوات الآن.

– حسناً أجعلها اثنتي عشرة. ولكن عد خلال ساعة واملأ الخزان.

– ولماذا يجب أن تملأه بكل ذلك البنزين؟

– قد ننطلق مبكرين أو متأخرين فلا يكون لدينا وقت لذلك.

– ما الذي جرى لأولئك الكوبيين الذين كانوا يريدون منك نقلهم؟

– لم أسمع منهم شيئاً جديداً.

– كانت تلك صفقة جيدة.

– وهذه صفقة جيدة أيضاً. هيا انطلق.

– وكم سأتلقى لقاء عملي؟

قال هاري:

– خمسة دولارات في اليوم. إذا كنت لا تريد يمكنك أن تتخلى عنه.

– حسناً. أي السدادات كانت تلك؟

– الثانية والرابعة من جهة دولاب تعديل السرعة.

أومأ آلبرت برأسه.

- أعتقد أني أستطيع تذكر ذلك.

صعد إلى السيارة ودار بها دورة كاملة ثم انطلق على امتداد الشارع.

من حيث كان هاري واقفاً في القارب وكان قادراً على رؤية البناء الآجري الحجري والمدخل الأمامي لمصرف «فيرست ستيت أند سيفنغز بنك». كان يبعد مسافة مجموعة واحدة من الأبنية عن أسفل الشارع. لم يستطع أن يرى المدخل الجانبي. نظر إلى ساعته. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل. أغلق غطاء المحرك وصعد إلى الرصيف. حسناً، ستنجح المحاولة وقد لا تنجح، هكذا راح يفكر. لقد فعلت ما بوسعي الآن. سأذهب لأرى فريدي ثم سأعود وأنتظر. التفّ نحو اليمين وهو يغادر الرصيف وسار في شارع خلفي حتى لا يمرّ بالمصرف.

* * *

الفصل التاسع

حين أصبح في بار فريدي أراد أن يحكي له عن الموضوع لكنه لم يستطع. لم يكن في البار أحد فجلس على كرسي مرتفع وأراد أن يبلغه ولكن استحال عليه ذلك. وبينما كان يستعد لإبلاغه كان يعرف أن فريدي لن يتحمل ذلك. فيما مضى من الأيام ربما ولكن ليس الآن. وربما ليس فيما مضى من الأيام أيضاً. لم يدرك مدى سوء الحالة حتى فكر في إبلاغ فريدي بها. فكّر: أستطيع البقاء هنا ثم أتناول بضع كؤوس ولن يحدث أي شيء. أستطيع البقاء هنا وتناول بضع كؤوس ثم أعود إلى البيت ولا أتورط في هذه القضية. إلاّ أن بندقيتي على القارب. ولكن لا يعرف أحد أنها لي باستثناء زوجتي العجوز. لقد حصلت عليها في كوبا خلال رحلة وذلك حين تعاملت مع هؤلاء الآخرين. لا أحد يعرف أني أملكها. أستطيع البقاء هنا وسأكون خارج هذه المسألة. ولكن مّ سَيَقْتَتْن؟ من أين النقود للإنفاق على ماري والبنات؟ ليس لديّ قارب ولا نقود و لم أنل قسطاً من تعليم. ما الذي يستطيع رجل بذراع واحدة أن يعمله؟ كل ما تبقى لديّ لأبيعه هو شجاعتي. أستطيع أن أبقى هنا وأشرب خمس كؤوس أخرى وسيكون كل شيء قد انقضى. سيكون الوقت قد فات. يمكنني أن أترك كل شيء ينزلق مبتعداً ولا أفعل شيئاً.

قال لفريدي:

– هات كأساً.

أستطيع بيع المنزل ثم سنستأجر منزلاً حتى أجد نوعاً من العمل. أي

نوع من العمل؟ ولا أي نوع من العمل. يمكنني أن أذهب إلى المصرف وأشي بهم، ولكن ما الذي سأناله؟ سيقولون لي شكراً بكل تأكيد. شكراً. زمرة من أنغال الحكومة الكوبية كلفتني فقد ذراعي وهي تطلق النار عليّ لأنه كانت معي حمولة مهرّبة دون داع لذلك، وزمرة أخرى من الأنغال الأمريكيين أفقدتني قاربي. والآن أستطيع أن أتخلى عن البيت وأحصل على «شكراً». لا أريد شكراً. إلى الجحيم بكل ذلك. هكذا فكّر. ليس لديّ خيار في هذا.

أراد أن يبلغ فريدي حتى يكون هناك شخص ما يعرف ما كان يفعله. ولكنه لم يستطع أن يبلغه لأن فريدي لن يقبل. كان يحقق ربحاً جيداً الآن. لم يكن هناك الكثير من الزبائن في النهار ولكن كان البار يحتشد بالزبائن في الليل وحتى الثانية صباحاً. لم يكن فريدي يعاني من صعوبات. كان يعرف أن فريدي لن يقبل. فكر: عليّ أن أفعل ذلك لوحدي، مع آلبرت المسكين اللعين ذاك. يا للمسيح، لقد بدا حين رأيته على الرصيف أكثر جوعاً من أي وقت مضى. عرفت فقراء كانوا مستعدين للموت جوعاً قبل أن يمدّوا أيديهم ليسرقوا. هناك الكثيرون ممّن تصيح بطونهم من الجوع في هذه البلدة. إنهم يجوعون قليلاً كل يوم. وقد بدؤوا بالجوع منذ أن ولدوا؛ البعض منهم.

قال:

– اسمع يا فريدي. أريد ربعي غالون.

– من أي شراب؟

– باكاردي.

– حسناً.

– هل لك أن ترفع الفلينة؟ أنت تعرف أني أريد استئجاره لنقل بعض الكوبيين.

– هذا ما تقوله.

– لا أعرف متى يريدون الانطلاق ربما الليلة. لم أسمع منهم بعد.

– القارب جاهز للانطلاق في أي وقت. ولديك ليلة جميلة للعبور إن أردته هذه الليلة.

– كانوا يتكلمون عن الذهاب لصيد السمك عصر هذا اليوم.

– على القارب عدة لصيد السمك إن لم تكون طيور البجع قد سرقتها.

– لا زالت هناك.

قال فريدي:

– حسناً أتمنى لك رحلة طيبة.

– شكراً. أعطني كأساً أخرى، هل لك؟

– ممّ؟

– ويسكي.

– ظننت أنك تشرب الباكاردي.

– سأشرب ذاك إذا شعرت بالبرد خلال العبور.

قال فريدي:

– ستعبر وهذه الريح تدفعك من الخلف طوال الطريق. أودّ لو أعبر أنا الليلة.

– ستكون ليلة جميلة بالفعل. أعطني جرعة أخرى، هل لك؟ في هذه اللحظة بالذات دخل السائح الطويل وزوجته. قالت:

– أوليس هذا رجل أحلامي؟

وجلست على الكرسي العالي إلى القرب من هاري.

نظر إليها مرة واحدة ثم نهض. قال:

– سأعود يا فريدي. سأنزل إلى القارب حتى أكون مستعداً في حال أرادت المجموعة صيد السمك.

قالت الزوجة:

– لا تذهب. أرجوك ألا تذهب.

قال لها هاري:

– أنت مضحكة.

ثم خرج.

في الشارع كان ريتشارد غوردون في طريقه إلى منزل آل برادلي الشتوي الكبير. كان يأمل أن يجد السيدة برادلي وحدها. وهي ستكون وحدها. كانت السيدة برادلي مولعة بجمع الكتّاب وكتبهم أيضاً، ولكن ريتشارد غوردون لم يكن على علم بذلك بعد. وكانت زوجته في طريقها إلى البيت الآن وهي تمشي على امتداد الشاطئ. لم تصادف جون ماك وولزي. ربما سيأتي إلى البيت.

* * *

الفصل العاشر

كان آلبرت على ظهر القارب وقد تمت تعبئته بالبنزين. قال هاري:

– سأشغله وأرى كيف تعمل هاتان الاسطوانتان. هل رتبت الأشياء؟

– أجل.

– حضّر بعض الطعوم إذن.

– هل تريد طعماً كبيراً؟

– صحيح. لسمك الطربون.

كان آلبرت في مؤخر القارب يحضّر الطعوم، وهاري عند الدفّة يحمّي المحرّكين حين سمع ضجة أشبه بمحرك يشتعل قبل فوات الأوان. نظر إلى الشارع فرأى رجلاً يخرج من المصرف. كان يحمل مسدساً في يده وراح يعدو. ثم اختفى عن الأنظار. بعد ذلك خرج رجلان آخران يحملان حقائب جلدية ومسدسات في أيديهم وركضا بالاتجاه نفسه. نظر هاري إلى آلبرت المشغول بتقسيم الطعوم. خرج الرجل الرابع، الضخم، من باب المصرف، بينما هاري يراقب، وكان هذا يحمل بندقية من طراز طومسون، وبينما راح يخرج من الباب وظهره إلى الوراء دوّت صفارة الإنذار في المصرف في صرخة طويلة تبهر الأنفاس ورأى هاري فوهة البندقية تقفز– تقفز– تقفز– تقفز وسمع بوب– بوب– بوب– بوب، أصوات صغيرة وجوفاء ضمن عويل صفارة الإنذار. التفت هذا الرجل وركض، ثم توقف ليطلق النار مجدداً على باب المصرف، بينما كان آلبرت

يقف في مؤخر القارب ويقول: «يا للمسيح، إنهم يسرقون المصرف. يا للمسيح ما الذي نستطيع أن نفعله؟» سمع هاري التاكسي من طراز «فورد» وهي تخرج من الشارع الجانبي ورآها تميل إلى جانب وهي تتجه إلى رصيف الميناء.

كان في المقعد الخلفي للسيارة ثلاثة كوبيين والرابع إلى القرب من السائق.

صرخ أحدهم بالإسبانية:

– أين القارب؟

قال آخر:

– هناك أيها الغبي.

– ليس هذا هو القارب.

– هذا هو القبطان.

– هيا تعالوا بحق المسيح.

قال الكوبي للسائق:

– اخرج. ارفع يديك.

حين وقف السائق قرب السيارة وضع سكيناً داخل حزامه وقطعه وشقّ بنطاله حتى الركبة تقريباً. ثم جذب البنطال إلى الأسفل. قال له: «قف ثابتاً». رمى الكوبيان اللذان يحملان الحقائب بالحقائب إلى قمرة القارب وصعدا إليه يتعثران.

قال أحدهما:

– هيا انطلق.

قام الضخم ذو البندقية الرشاشة بدسها في ظهر هاري. قال:

– هيا يا قبطان. لننطلق.

قال هاري:

– هوّن عليك. وجّه هذه إلى مكان آخر.

قال الضخم:

– ارم بهذه الخيوط.

ثم وجّه كلامه إلى آلبرت:

– أنت!

قال آلبرت:

– انتظر دقيقة. لا تجعله ينطلق. هؤلاء هم لصوص المصرف.

التفت الكوبي الضخم وأرجح البندقية الطومسون ووجهها إلى آلبرت. قال آلبرت:

– لا. لا تطلق، لا تطلق النار.

كانت الرصاصات قريبة جداً من صدره حتى أنها بدت كثلاث صفعات. تهاوى آلبرت على ركبتيه وعيناه مشدوهتان وفمه فاغر. بدا كأنه لا يزال يحاول أن يقول: «لا تطلق.»

قال الكوبي لهاري:

– لست في حاجة إلى مساعد يا ابن القحبة ذا الذراع الوحيدة.

ثم أردف بالإسبانية:

– اقطع تلك الخيوط بسكين السمك.

وتابع بالانكليزية:

– هيا انطلق.

ثم قال بالإسبانية:

– ضع البندقية في ظهره.

وبالإنكليزية:

– هيا. لننطلق. سأنسف رأسك.

قال هاري:

– سننطلق.

كان أحد الكوبيين الذي يبدو كهندي يحمل مسدساً قرب ذراعه المقطوعة. كانت فوهة المسدس تكاد تلامس الخطاف.

وحين وجّه القارب منطلقاً به وهو يدير العجلة بيده السليمة، نظر إلى مؤخر القارب ليرى إن كان مروره سليماً فرأى آلبرت على ركبتيه وفي مؤخر القارب. ورأسه قد انزلقت جانباً الآن في بركة من الدماء. على الرصيف كانت التاكسي من طراز فورد والسائق البدين في ملابسه الداخلية وبنطاله حول كاحليه، ويداه فوق رأسه، وفمه فاغر شأنه شأن فم آلبرت. لم يكن هناك أحد قادم على امتداد الشارع حتى الآن.

كانت دعائم الرصيف قد مرّت به والقارب قد أضحى خارج الحوض الآن ثم ها هو الآن في المجاز المائي يمرّ برصيف المنارة.

قال الكوبي الضخم:

– هيا. أسرع. عجّل به.

قال هاري:

– أبعد هذا المسدس.

كان يفكّر: أستطيع أن أسرع به حتى «كروفيش بار» ولكنني على ثقة من أن الكوبي سيقتلني.

قال الكوبي الضخم:

– اجعله يسرع.

ثم قال بالإسبانية:

- انبطحوا جميعاً. غطوا على القبطان.

انبطح هو أيضاً في مؤخر القارب وجرّ آلبرت حتى القمرة. أما الثلاثة الآخرون فانبطحوا في القمرة الآن. جلس هاري على مقعد القيادة. كان ينظر نحو الأمام وهو خارج من المجاز المائي، وها هو يمرّ بالفتحة المؤدية إلى القاعدة الثانوية الآن، والتي رفعت عليها يافطة موجهة إلى اليخوت وكانت الإشارة الضوئية الخضراء. وها هو يخرج الآن من حاجز الماء، عبر القلعة الآن، عبر الإشارة الضوئية الحمراء، ثم نظر إلى الخلف. كان الكوبي الضخم قد أخرج علبة خضراء من جيبه وراح يملأ الخزان بالطلقات. كانت البندقية إلى جانبه وكان يملأ الخزان دون أن ينظر إلى الطلقات، أي بالتلمّس، وكان ينظر إلى الخلف من فوق مؤخر القارب. كان الآخرون ينظرون أيضاً من فوق مؤخر القارب باستثناء ذاك الذي يراقب هاري. هذا الكوبي، أحد اثنين بين أفراد المجموعة يبدوان كهنديين ، أشار إليه بمسدسه أن ينظر إلى الأمام. لم يكن أي زورق قد انطلق في أثرهم بعد. كان المحركان يعملان جيداً وكانوا يسيرون مع المدّ الآن. لاحظ الميلان الشديد لعوامة إرشاد السفن وهو يمر بها، والتيار يدوّم عند قاعدتها.

هناك زورقان سريعان يمكنهما اللحاق بنا، هكذا كان هاري يفكر. أحدهما زورق «راي» الذي يحضر البريد من « ميتكيومب ». أين الزورق الآخر؟ لقد رأيته منذ يومين في حوض السفن لدى « إيد تيلور ». ذاك الذي فكرت في جعل بيليبس يستأجره. وهناك زورقان آخران، هكذا تذكر الآن. أحدهما تستعمله «إدارة المستودعات الحكومية» على امتداد الجزر. والآخر مخبأ في «غاديسون بايت». كم ابتعدنا حتى الآن؟ نظر إلى الخلف. كانت القلعة بعيدة، والمبنى الآخر الأحمر لمكتب البريد القديم بدأ يظهر من فوق أبنية مركز البحرية والفندق الأصفر يهيمن على أفق البلدة القصير. كان هناك الخور عند القلعة والمنارة تبدو فوق المنازل المصطفة باتجاه الفندق الشتوي. فكر: أربعة أميال على أية حال. فكر: ها

هم قادمون. زورقا صيد أبيضان يدوران من حول مكسر الماء ويتجهان نحوه. فكر: لا يمكنهما أن يسيرا بسرعة عشرة عقد. هذا مثير للشفقة.

كان الكوبيون يثرثرون بالاسبانية.

قال الضخم بينهم وهو ينظر إليه من مؤخر القارب:

– ما هي سرعتك يا قبطان؟

قال هاري:

– حوالي اثنتا عشرة عقدة.

– وما هي سرعة هذين القاربين؟

– ربما عشرة.

كانوا جميعاً يراقبونهما الآن، حتى الشخص المفترض به مراقبة هاري. فكر: ولكن ما الذي أستطيع عمله؟ لا شيء بعد.

لم يبد الزورقان أكبر حجماً.

قال اللطيف بينهم:

– انظر يا روبرتو.

– أين؟

– انظر؟

في مكان بعيد إلى الخلف، عند نهاية مدى النظر، برزت دفقة صغيرة من الماء.

قال اللطيف:

– إنهم يطلقون النار علينا. هذا سخيف.

قال ذو الوجه الكبير:

– بحق المسيح. من مسافة ثلاثة أميال.

فكر هاري: «أربعة! الكل أربعة».

كان هاري قادراً على رؤية الدفقات الصغيرة على السطح الهادئ ولكنه لم يستطع سماع صوت الطلقات.

فكر: «هؤلاء الفقراء مثيرون للشفقة. بل إنهم أسوأ من ذلك. إنهم مضحكون».

سأل ذو الوجه الكبير وهو يبتعد بنظره عن مؤخر القارب:

– أي نوع من الزوارق الحكومية هو هذا أيها القبطان؟

– خفر السواحل.

– ما سرعة زورقنا؟

– اثنتا عشرة ربما.

– إذن نحن في أمان الآن؟

لم يجبه هاري.

– ألسنا في أمان إذن؟

لم يقل هاري شيئاً. كان يبقي الجزء الأعلى البارز المتسع لمنارة «ساند كي» إلى يساره والعمود على جزيرة ساندي كي الصغيرة يبدو عمودياً على الجانب الأيمن للقارب. وخلال عشر دقائق أخرى سيكونون قد تجاوزوا الحدب المرجاني.

– أعني أننا لا نفعل ذلك من أجل أنفسنا. بل من أجل منظمة ثورية.

– أقتلتم معاوني بسبب ذلك أيضاً.

– آسف جداً. لا أستطيع أن أشرح لك كم يؤلمني ذلك.

قال هاري:

– لا تحاول.

قال الشاب وهو يتحدث بهدوء:

- أنت ترى أن هذا الرجل روبرتو رجل شرير. إنه ثوريّ جيد ولكنه رجل شرير. لقد قتل الكثيرين في أيام «ماتشادو» فأصبح يحب القتل. إنه يعتقد أن القتل شيء مسلّ. وهو يقتل في سبيل قضية عادلة بالطبع. أفضل قضية.

نظر إلى الخلف باتجاه روبرتو الذي كان يجلس الآن على أحد الكراسي المخصصة للصيد في مؤخر القارب، والبندقية من طراز طومسون فوق حضنه، وهو يتفرج على الزورقين الأبيضين اللذين، كما لاحظ هاري، أصبحا أصغر بكثير الآن.

صرخ روبرتو من مؤخر القارب:

- ما الذي لديك للشرب؟

قال هاري:

- لا شيء.

قال روبرتو:

- سأشرب من زجاجتي إذن.

كان أحد الكوبيين متمدداً فوق مقعد مثبت فوق صهريج الوقود. كان قد سبق له وبدا أنه مصاب بدوار البحر. أما الآخر فكان يبدو جلياً أنه مصاب بدوار البحر أيضاً، وكان لا يزال يجلس منتصباً.

نظر هاري إلى الخلف رأى زورقاً ذا لون رصاصي خرج الآن من الحصن. وكان يقترب من الزورقين الأبيضين:

فكر: «ها هو زورق خفر السواحل. إنه مثير للشفقة أيضاً».

سأله الشاب اللطيف:

- هل تظنّ أن الطائرة البحرية ستأتي؟

قال هاري:

– سيخيم الظلام خلال نصف ساعة.

– ما حكايتك؟ ألا تستطيع النطق؟

– ما الذي سألتني عنه؟

– هل هناك أي زورق يمكنه أن يلحق بنا الآن؟

قال هاري:

– طائرة خفر السواحل.

قال اللطيف:

– لقد قطعنا أسلاك الهاتف قبل أن ندخل إلى البلدة.

قال هاري:

– ولكنك لم تقطع اللاسلكي، أليس كذلك؟

–أتعتقد أنه يمكن للطائرة الوصول إلى هنا؟

قال هاري:

– قد يحدث ذلك قبل أن يحلّ الظلام.

سأل روبرتو ذو الوجه الكبير:

– ما رأيك أنت يا قبطان؟

لم يجب هاري.

– هيا، ما رأيك؟

– لماذا سمحت لابن القحبة ذاك بقتل معاوني؟

هذا ما قاله هاري للطيف الذي كان يقف إلى القرب منه الآن وهو ينظر إلى البوصلة.

قال روبرتو:

– اخرس. سنقتلك أنت أيضاً.

سأل هاري اللطيف بينهم:

– كم لديكم من النقود؟

– لا نعرف. لم نعدها بعد. ولكن المال ليس لنا على أي حال.

قال هاري:

– أعتقد ذلك.

كان قد تجاوز المنارة الآن ووضع المسار على الدرجة (٢٢٥)، وهذا هو مساره النظامي إلى هافانا.

تابع القيادة وهو جالس باستقرار على مقعد القيادة:

– ما الذي تفكرون بعمله؟ هل ستقتلونني؟

قال الشاب:

– لا أريد ذلك. اكره القتل.

سأل روبرتو الذي كان يجلس الآن وزجاجة الويسكي في يده:

– ما الذي تفعله؟ هل تعقد صداقة مع القبطان؟ ما الذي تريده؟ أن تأكل على مائدة القبطان؟

قال هاري للشاب:

– خذ العجلة. أترى المسار؟ اثنان خمسة وعشرون.

نزل من على المقعد وابتعد.

قال هاري لروبرتو:

– أعطني جرعة. ها هو زورق خفر السواحل خاصتك، ولكنه لن يلحق بنا.

كان قد قرر أن يتخلى عن الغضب والكراهية وأي كرامة على أنها كلها مجرد ترف. وكان قد بدأ يخطّط.

قال روبرتو:

– بكل تأكيد. لا يمكنه أن يلحق بنا. انظر إلى أولئك الأطفال المصابين بدوار البحر. ما رأيك؟ هل تريد جرعة أخرى؟ هل لديك أي رغبات أخيرة أخرى أيها القبطان؟

يا لك من نكتي بارع.

وشرب جرعة طويلة.

قال روبرتو محتجاً:

– هوّن عليك. هذا كل ما لدينا.

قال له هاري:

– لديّ المزيد. كنت امزح معك.

قال له روبرتو بريبة:

– لا تمزح معي.

– ولماذا عليّ أن أحاول؟

– ماذا لديك؟

– باكاردي.

– اجلبه.

قال له هاري:

– هوّن عليك. لم أنت فظ إلى هذا الحد؟

خطا من فوق آلبرت وهو يتجه إلى الأمام. وحين وصل إلى عجلة القيادة نظر إلى البوصلة. كان الشاب قد سار بزاوية قدرها خمس وعشرون درجة وكانت ساعة البوصة تتأرجح. ليس بحاراً، هكذا فكر هاري. هذا يمنحني المزيد من الوقت. نظر إلى الأثر الذي يخلفه القارب في الماء.

كان الأثر يجري في منحنيين مزبدين باتجاه المنارة التي أضحت إلى الخلف الآن، تبدو بنية اللون، مخروطية ومتشابكة مع الأفق على نحو واه. كانت الزوارق قد أصبحت وراء مرمى النظر تقريباً. كان قادراً على رؤية شيء ضبابي واضح في المكان الذي كانت فيه أعمدة إذاعة البلدة. كان المحركان يعملان جيداً. دسّ هاري رأسه في الأسفل ومدّ يده وجلب إحدى زجاجتي الباكاردي. ذهب بها إلى مؤخر القارب. في مؤخر القارب غبّ جرعة من الشراب ثم سلّم الزجاجة إلى روبرتو. وبينما كان واقفاً نظر إلى آلبرت فأحس بغثيان في داخله. يا للنغل المسكين الجائع، هكذا فكر.

سأل الكوبي ذو الوجه الكبير:

– ما الحكاية؟ هل يخيفك؟

قال هاري:

– ما رأيكم لو نرميه في البحر؟ لا معنى لحمله معنا.

قال روبرتو:

– حسناً. لك عقل كبير.

قال هاري:

احمله من تحت ذراعيه. وأنا أحمله من ساقيه.

وضع روبرتو بندقية الطومسون على حافة مؤخر القارب وانحنى ليرفع الجثة من الكتفين. قال: أتعرف أن أثقل شيء في الوجود هو الرجل الميت؟ هل سبق لك ورفعت رجلاً ميتاً من قبل أيها القبطان؟

قال هاري:

– لا، هل سبق لك ورفعت امرأة ميتة؟

دفع روبرتو الجثة إلى المؤخرة. قال:

– أنت شخص طيب. ما رأيك في تناول كأس؟

قال هاري: هيا.

قال روبرتو: اسمع. أنا آسف لأني قتلته. وحين أقتلك سأشعر بما هو أسوأ.

قال هاري: توقف عن مثل هذا الكلام. لم تتكلم هكذا؟

قال روبرتو: هيا. فلنرمه.

وبينما كانا ينحنيان ليجعلا الجثة تنزلق من فوق مؤخر القارب رفس هاري البندقية الرشاشة من فوق الحافة. وقد أطلقت رشاشاً في الماء في الوقت نفسه مع آلبرت، ولكن بينما تقلب آلبرت مرتين في المياه المزبدة ذات الرغوة التي كانت المروحة تطلقها قبل أن يغرق، فإن البندقية غطست مباشرة.

قال روبرتو: هكذا أفضل. أليس كذلك؟ أصبح الأمر أفضل الآن، أليس كذلك؟

ثم لاحظ أن البندقية قد اختفت فصاح:

– أين هي؟ ما الذي فعلته بها؟

– بماذا؟

قال بالإسبانية منفعلاً:

– الأمترايادورا!

– بماذا؟

– أنت تعرف ماذا.

– لم أرها.

– لقد أسقطتها عن الحافة. والآن سأقتلك. الآن!

قال هاري:

– هوّن عليك. لم ستقتلني بحق الجحيم؟

قال روبرتو لأحد الكوبيين المصابين بدوار البحر بالإسبانية:

– أعطني مسدساً. أعطني مسدساً بسرعة!

وقف هاري هناك، و لم يشعر من قبل أنه طويل إلى هذا الحد، ولا أنه عريض إلى هذا الحد، وأحس بالعرق يتحدّر من تحت إبطيه، وشعر به ينزل إلى خاصرته.

سمع الكوبي المصاب بدوار البحر يقول بالإسبانية:

– أنت تقتل كثيراً. اقتله بعد أن تصل.

قال روبرتو:

– لقد أسقط البندقية من فوق القارب.

– لدينا المال. ما الذي تريده بالبندقية الرشاشة؟ هناك الكثير من البنادق الرشاشة في كوبا.

– أقول لكم إنكم تخطئون إذا لم تقتلوه الآن، أقول لكم أعطوني مسدساً.

– اخرس. أنت ثمل. في كل مرة تثمل فيها تقتل شخصاً.

قال هاري وهو يتطلع عبر الاستدارة الرمادية للخليج حيث كانت الشمس تلامس الماء الآن:

– راقبوا ذلك. حين تنزل كلها تحت الماء سيصبح لونها أخضر لامعاً.

قال الكوبي ذو الوجه الكبير:

– إلى الجحيم بها. هل تظنّ أنك لن تلقى جزاءك؟

قال هاري:

– سأشتري لكم بندقية أخرى. إنها لا تكلّف سوى خمسة وأربعين دولاراً في كوبا. هوّنوا عليكم. أنتم في أمان الآن. لن تأتي أي طائرة خفر سواحل الآن.

قال روبرتو وهو ينظر إليه من فوق إلى تحت:

– سأقتلك. لقد فعلت ذلك عمداً. لهذا السبب جعلتني أرفع معك تلك. (يعني الجثة).

قال هاري:

– أنت لا تريد قتلي. من سيعبر بكم؟

– عليّ أن أقتلك الآن.

قال هاري:

– هوّن عليك. عليّ أن أفحص المحركين.

فتح الغطاء، نزل، برم المزيتتين على صندوقي الحشو، تحسّس المحركين، ولمس بيده عقب بندقية الطومسون. ليس بعد، هكذا فكّر. لا، الأفضل ألاّ يكون ذلك الآن. يا للمسيح لقد كان ذلك حظاً طيباً. ما هو الفرق بالنسبة لألبرت بعد أن مات؟ هذا يوفر على زوجة العجوز نفقات دفنه. ذلك المغفل ذو الوجه الكبير. النغل القاتل ذو الوجه الكبير. يا للمسيح، لكم أتمنى أن أقتله الآن. ولكن الأفضل أن أنتظر.

نهض، وتسلّق خارجاً وأغلق الغطاء.

قال لروبرتو: كيف حالك؟

وضع يده على الكتف السمينة. نظر الكوبي ذو الوجه الكبير إليه و لم يقل شيئاً. سأله هاري:

– هل رأيتها تصبح خضراء؟

قال روبرتو:

– إلى الجحيم بك.

كان ثملاً ولكنه كان مرتاباً أيضاً، وقد اشتمّ، كما الحيوان، أن شيئاً ما على غير ما يرام.

قال هاري للشاب الواقف عند عجلة القيادة:

- اتركها لي قليلاً.

قال الشاب:

- يمكنك أن تدعوني: اميليو.

قال هاري:

- انزل إلى الأسفل وستجد شيئاً تأكله. هناك خبز ولحم عجل. وإذا أردت بعض القهوة فعليك أن تغليها.

- لا أريد.

قال هاري: سأغلي بعض القهوة لاحقاً.

جلس إلى العجلة، ونور البوصلة مضاء الآن، متقيداً بالاتجاه المعطى وبسهولة مع موجة صغيرة أثارتها ريح عرضانية وراح ينظر إلى الليل القادم على الماء. لم تكن معه أنوار على القارب.

كانت ليلة جميلة للعبور، هكذا فكر، ليلة جميلة. بعد أن تزول آخر الآثار المتخلفة عن هذا التوهج سأسير به إلى الشرق. وإذا لم أفعل ذلك، سنرى وهج هافانا خلال ساعة أخرى. أو خلال ساعتين اثنتين على أية حال. ما أن يرى الوهج فسيخطر لابن القحبة أن يقتلني. كان من حظي أن استطعت التخلص من تلك البندقية. يا للعنة، كانت تلك ضربة حظ. أتساءل عما تكون ماري قد حضرته لطعام العشاء. أعتقد أنها قلقة جداً.

أعتقد أنها قلقة إلى حد لا تستطيع معه أن تأكل. أتساءل كم من النقود يحمل هؤلاء الأنغال. من المضحك أنهم لا يعدونها. أليست هذه طريقة عجيبة في جمع النقود للقيام بثورة؟ الكوبيون أناس عجيبون.

إنه لشاب خسيس، روبرتو ذاك. سأقتله الليلة. سأقتله مهما تكن العاقبة. ولكن هذا لن يساعد آلبرت المسكين اللعين على أي حال. لقد

انزعجت لاضطراري إلى رميه في البحر هكذا. لا أعرف ما الذي جعلني أفكر في ذلك.

أشعل لفافة وراح يدخن في الظلام.

فكر: لا زلت أتصرف على نحو جيد. أنا أتصرف أفضل مما توقعت. الشاب لطيف نوعاً ما. أتمنى لو أستطيع أن أجعل الرجلين الآخرين يقفان في صفه. أتمنى لو كانت هناك طريقة لجمعهم معاً. حسناً، عليّ أن أبذل قصارى جهدي. كلما جعلتهم يشعرون بالارتياح الآن كلما كانت الأمور أسهل عليّ لاحقاً. كلما سارت الأمور على نحو سلس، كلما كان ذلك أفضل.

سأله الشاب:

- هل تريد سندويشة؟

قال هاري:

- شكراً أعط شريكك سندويشة.

قال الشاب:

- إنه يشرب. لن يأكل.

- ماذا عن الآخرين؟

قال الشاب:

- إنهما مصابان بدوار البحر.

قال هاري:

- هذه ليلة لطيفة للعبور.

لاحظ أن الشاب لم يكن يراقب البوصلة لذا جعل القارب يسير باتجاه الشرق.

قال الشاب: أنا استمتع بالرحلة. لولا ما حدث لمساعدك.

قال هاري:

- كان رجلاً طيباً. هل أصيب أحد في المصرف؟

- المحامي. ما كان اسمه؟ سيمونز.

- هل قُتل؟

- أعتقد ذلك.

فكر هاري: إذن لقد قتل السيد بيليبس. ما الذي كان يتوقعه بحق الجحيم؟ كيف فكر في أنه لن يُقتل؟ هذا يحصل من لعب دور الرجل الخشن. هذا يحصل للذي يحاول أن يكون ذكياً أكثر من اللازم مرات كثيرة. السيد بيليبس. وداعاً أيها السيد بيليبس.

- وكيف قتل؟

قال الشاب:

- أعتقد أنك تستطيع تخيّل ذلك. كان الأمر مختلفاً عمّا حصل لمساعدك. أشعر بالانزعاج من ذلك. أنت تعرف أنه لم يقصد أن يرتكب هو خطأ ما. ولكن تلك المرحلة من الثورة هي التي جعلته يصبح كذلك.

قال هاري:

- أعتقد أنه رجل طيب.

ثم فكر: اسمع ما يقوله هذا الشاب. اللعنة، فمي يكاد يقول أي شيء ولكن عليّ أن أحاول أن أجعل هذا الشاب صديقاً لي لو حصل...

سأله:

- أي نوع من الثورات تقومون به الآن؟

قال الشاب:

- نحن الحزب الثوري الحقيقي الوحيد. نريد أن نتخلص من كل السياسيين القدماء والامبريالية الأمريكية التي تخنقنا، وكذلك من استبداد

الجيش. نريد أن نبدأ كل شيء من جديد ونعطي كل شخص الفرصة. نريد أن ننهي العبودية التي يعيشها الفلاحون ونقسم إقطاعيات السكّر الكبيرة بين الناس الذين يعملون فيها. ولكننا لسنا شيوعيين.

نظر هاري إلى البوصلة أمامه وسأل الشاب:

– وكيف هي أوضاعكم؟

قال الشاب:

– نجمع المال للنضال الآن، وعلينا لأجل ذلك أن نستخدم وسائل لن نستخدمها لاحقاً على الإطلاق. وكذلك علينا أن نستخدم أشخاصاً لن نستخدمهم لاحقاً، إلاّ أن الغاية تبرّر الوسيلة. لقد اضطروا في روسيا إلى القيام بالشيء نفسه.

فكر هاري: إنه راديكالي. راديكالي.

قال له:

– أعتقد أن لديكم برنامجاً، هذا إن كنتم تريدون مساعدة العمال. لقد ساهمت في الكثير من الإضرابات فيما سبق حين كانت هناك معامل للسيجار في «كي وست». كنت مستعداً للقيام بأي شيء أستطيع فعله لو كنت أعرف ماهية جماعتكم.

قال الشاب:

– من شأن الكثيرين أن يساعدونا. ولكن بسبب سلطة الدولة فإنّ الحكومة لا تستطيع الثقة بالناس الآن. إن ضرورة هذه المرحلة تجعلني أشعر بالأسف. أكره الإرهاب كما لا تعجبني وسائل جمع النقود هذه. ولكن لا خيار أمامنا. أنت تعرف كم هي الأمور سيئة في كوبا.

قال هاري:

– أعتقد أنها سيئة جداً.

– لا يمكنك أن تعرف مدى سوئها. هناك استبدادية مجرمة تمتد عبر كل قرية صغيرة في البلدة. لا يمكن لثلاثة أشخاص أن يجتمعوا في الشارع. ليس لكوبا أعداء خارجيون ولا تحتاج إلى جيش، ولكن لديها مع ذلك جيش من خمسة وعشرين ألف جندي الآن، والجيش، من العرفاء فصاعداً، يمتص دم الأمة. الجميع حتى الجنود العاديين، قد انطلقوا لجني الثروات. والآن لديهم احتياطي عسكري فيه كلّ لص ومتنصّر ومخبر من أيام «ماتشادو»، وهم يأخذون كل شخص لا يكترث به الجيش. علينا أن نتخلص من الجيش قبل أن نبدأ بأي شيء. من قبل كنا نُحكم بالهراوات. والآن نُحكم بالبنادق والمسدسات والبنادق الرشاشة والحراب.

قال هاري وهو يوجه الدفة ويترك القارب يتجه شرقاً:

– يبدو هذا سيئاً جداً.

قال الشاب:

– لا يمكنك أن تدرك مدى سوئه. أنا أحب بلدي الفقير ومستعد لفعل أي شيء. أي شيء. لتحريره من هذا الاستبداد الذي يرزح هو تحته. أفعل أشياء أكرهها. ولكني مستعد لفعل أشياء أكرهها أكثر بألف مرة.

كان هاري يفكر: أريد شراباً. ولماذا أهتم بهذه الثورة بحق الجحيم؟... هذه الثورة! حتى يساعد العمال فهو يسرق مصرفاً ويقتل شخصاً يعمل معه ثم يقتل آلبرت المسكين اللعين ذاك الذي لم يؤذ أحداً. إنه يقتل أحد العمال. إنه لا يفكر بذلك أبداً. وله أسرة يعيلها. الكوبيون هم الذين يحكمون كوبا. وكل واحد فيهم يخون الآخر. إنهم يبيعون واحدهم الآخر. وهم ينالون ما يستحقون. إلى الجحيم بثوراتهم. كل ما عليّ أن أفعله هو أن أكسب رزقي لأقيم أود أسرتي ولا أستطيع ذلك. ثم يحكي لي عن ثورته. إلى الجحيم بثورته.

قال للشاب:

– لا أشك أنه سيئ جداً بالفعل. خذ الدفة لدقيقة واحدة. هل لك؟ أريد أن أتناول جرعة من الشراب.

– طبعاً. وكيف أوجهها؟

– اثنان وخمسة وعشرون.

كان الظلام مخيماً الآن وكان هناك موج ضمن تيار الخليج. مرّ بالكوبيين المصابين بدوار البحر المتمددين على المقاعد وذهب إلى مؤخر القارب حيث كان روبرتو جالساً في كرسي الصيد. كان الماء يتسابق ماراً بالقارب في العتمة. جلس روبرتو وقدماه في كرسي الصيد الآخر الذي كان قد أدير باتجاهه.

قال له هاري:

– أعطني قليلاً من تلك.

قال ذو الوجه الكبير بصوت أجش:

– اذهب إلى الجحيم. إنها لي.

قال هاري:

– حسناً.

ثم ذهب إلى المقدمة ليجلب الأخرى. في الأسفل هناك في العتمة، والزجاجة تحت جدعة ذراعه اليمنى، سحب الفلينة، التي كان فريدي قد فتحها وعاد فأقحمها، وأخذ جرعة. قال لنفسه: «الوقت الآن مناسب مثل أي وقت آخر. لا فائدة من الانتظار. لقد ألقى الشاب الصغير خطبته. والنغل ذو الوجه الكبير قد ثمل. والآخران مصابان بدوار البحر. يمكنني أن أفعل الآن ما أريد فعله».

تناول جرعة أخرى. أشعره الباكاردي بالدفء وشجعه، ولكنه أحس بالبرودة والخواء في كل معدته. كانت أحشاؤه كلها باردة.

سأل الشاب الذي عند الدفة:

- أتريد جرعة؟

قال الشاب:

- لا. شكراً. لا أشرب.

استطاع هاري أن يراه يبتسم تحت نور صندوق البوصلة. كان شاباً وسيماً بالفعل، وكان حديثه لطيفاً أيضاً. قال:

- سأتناول جرعة.

وقد ابتلع جرعة كبيرة لكنها لم تستطع أن تدفئ الجزء البارد والرطب الذي كان قد انتشر من معدته إلى كل صدره الآن. وضع الزجاجة على أرض القمرة.

قال للشاب: أبقه في هذا الاتجاه. سألقي نظرة على المحركين.

فتح الغطاء ونزل. ثم أغلق الغطاء بخطاف طويل يدخل في ثقب ضمن الأرضية انحنى فوق المحركين ويده الوحيدة تتحسّس أنابيب الماء والأسطوانات، ثم وضع يده على صندوقي الحشو. شدّ المزيتين كل واحدة دورة ونصف دورة قال في نفسه: فلأتوقف عن الانهيار. أين شجاعتك الآن؟ تحت ذقني على ما أعتقد. هكذا فكر.

نظر من تحت الغطاء. استطاع أن يلمس تقريباً المقعدين فوق خزان الوقود حيث كان الرجلان المصابان بدوار البحر يستلقيان. كان ظهر الشاب إليه الآن، وكان جالساً على الكرسي العالي. كان شكله واضحاً تحت نور صندوق البوصلة. التفت فرأى روبرتو متمدداً في الكرسي في مؤخر القارب، وقد ارتسم ظله على الماء الداكن.

فكر: واحدة وعشرون رصاصة في المخزن الواحد عبارة عن أربع رشقات وكل واحدة من خمس رصاصات على الأكثر. يجب أن يكون إصبعي خفيفاً. حسناً، هيا. توقف عن تأجيل ما عليك أن تفعله

أيها الجبان. يا للمسيح، أنا مستعد أن أمنح أي شيء لقاء كأس أخرى. حسناً، لا توجد جرعة أخرى الآن. رفع يده اليسرى، فكّ السير، وضع يده من حول أمان الزناد، ودفع بالأمان بإبهامه وأخرج البندقية. وبينما هو يقعي في حجرة المحرك وجّه البندقية بعناية نحو مؤخرة رأس الشاب التي كانت محددة تحت نور البوصلة.

كان اللهيب الذي أطلقته البندقية كبيراً في الظلام وصلصلت الظروف الفارغة على الغطاء المرفوع ثم على المحرك. وقبل أن تسقط جثة الشاب من على الكرسي كان هو قد التفّ وأطلق النار على الجسم الممدّد على السرير الأيسر وهو يمسك بالبندقية المرتجّة القاذفة للهب ملاصقة للرجل تقريباً، قريباً منه إلى حد أنه استطاع أن يشمها وهي تحرق معطفه. ثم استدار ليطلق رشقة أخرى على السرير الآخر حيث كان الرجل جالساً يجاهد ليطلق مسدسه. جثم الآن ونظر إلى مؤخر القارب. كان الرجل ذو الوجه الكبير قد اختفى من على الكرسي الآن. كان قادراً على رؤية ظل الكرسيين معاً. خلفه كان الشاب قد تمدد هامداً. لم يكن هناك شك بشأنه. على أحد السريرين كان أحد الرجال يتخبط. وعلى الآخر كان قادراً أن يرى بزاوية عينه رجلاً متمدداً فوق الحافة العليا من جانب القارب وقد سقط على وجهه.

كان هاري يحاول أن يحدد مكان الرجل ذي الوجه الكبير في العتمة. وكان القارب يدور ضم دائرة الآن والقمرة منارة قليلاً. أمسك بأنفاسه وانتظر. لا بد أنه موجود حيث المكان معتم قليلاً على الأرضية في الزاوية. راقبه فرآه يتحرك قليلاً. كان ذلك هو.

كان الرجل يزحف باتجاهه. لا، بل نحو الرجل المتمدد نصفه من فوق جانب المركب نحو البحر. كان يسعى إلى مسدسه. راقبه هاري جاثماً وهو يتحرك حتى أصبح واثقاً تماماً من هدفه. ثم رماه برشقة. أنارته نار البندقية وهو على يديه وركبتيه، ومع توقف اللهيب وصوت الانفجارات سمعه يتخبط بشدة.

قال هاري: أنت يا ابن القحبة القاتل كبير الوجه.

كان البرد كله قد غادر قلبه الآن، وكان ينتابه الآن ذلك الشعور القديم الأجوف المغنّي، وقد جثم وتلمس تحت خزان البنزين المربع المغطى بالخشب باحثاً عن مخزن آخر يضعه في البندقية. وجد المخزن ولكن يده كانت رطبة باردة.

فكر في نفسه: لقد أصبت خزان البنزين. يجب أن أوقف المحرك. لا أعرف مكان إصابة الخزان.

ضغط على الزر وأسقط المخزن الفارغ ووضع مكانه المخزن الجديد، ثم صعد وخرج من القمرة.

وبينما كان واقفاً وهو يمسك بالبندقية الطومسون بيده اليسرى ويتطلع فيما حوله قبل أن يغلق غطاء المحرك بالخطاف الموصول إلى ذراعه اليمنى، فإن الكوبي الذي كان ممدداً على السرير الأيسر وقد أصيب بثلاث طلقات في الكتف اليسرى بينما اخترقت طلقتان أخريان خزان البنزين. جلس في مكانه، وصوّب جيداً وأطلق النار فأصاب هاري في بطنه.

جلس هاري في سقوط نحو الخلف. أحس كأنه أصيب في بطنه بهراوة. كان ظهره مسنداً إلى إحدى الدعائم الحديدية التي تدعم كراس الصيد، وبينما كان الكوبي يطلق النار عليه مجدداً ويُصيب كرسي الصيد فوق رأسه، فقد مدّ هاري يده فوجد بندقية الطومسون رفعها بحذر وأمسك بالقبضة الأمامية لها بالخطاف وأطلق نصف المخزن الجديد على الرجل الذي كان جالساً وهو ينحني نحو الأمام ويطلق عليه النار بهدوء من المقعد. سقط الرجل على المقعد مكوّماً، وتلمّس هاري أرض القمرة حتى وجد الرجل ذا الوجه الكبير، الذي كان ممدداً ووجهه نحو الأسفل، فتحسس رأسه بالخطاف المربوط بذراعه المقطوعة، وتلمسه بالخطاف ثم وضع فوهة البندقية على رأسه ولمس الزناد. حين لمست البندقية الرأس

أصدرت صوتاً كصوت ضرب يقطينة بهراوة. وضع هاري البندقية أرضاً وتمدد على جنبه على الأرض.

قال في نفسه أنا ابن قحبة. كانت شفتاه ملتصقتين بالخشب المفروش على الجدار. قال: أنا ابن قحبة ميت الآن. عليّ أن أوقف المحركين وإلاّ انفجر القارب. لا زالت لديّ فرصة. لدي نوع ما من الفرص. يا للمسيح. شيء واحد أفسد كل شيء. شيء واحد جرى على غير ما يرام. اللعنة على ذلك النغل الكوبي. من كان سيظنّ أني لم أقتله من المرة الأولى؟

زحف على يديه وركبتيه وترك أحد جانبي الغطاء فوق المحركين ينصفق، ثم زحف فوقه نحو الأمام إلى حيث كان كرسي القيادة. جذب نفسه وهو متمسك به ودهش لأنه كان يستطيع أن يتحرك جيداً، ثم أحسّ فجأة بالضعف والإنهاك حين انتصب واقفاً، فانحنى نحو الأمام وذراعه المقطوعة تستند إلى البوصلة وقطع الوصلتين. هدأ المحركان واستطاع أن يسمع صوت الماء يضرب جوانب القارب. لم يكن هناك من صوت آخر. تأرجح القارب في حضن البحر الصغير الذي حركته ريح الشمال وبدأ يدور.

تعلّق بالدفة، ثم جلس على كرسي القيادة وانحنى على الخريطة. استطاع أن يشعر بقوته تنضب منه في دوار ضعيف ثابت. فتح قميصه بيده السليمة وتحسّس الثقب بكف يده، ثم بأصابعه. كان النزيف قليلاً جداً. كله في الداخل، هكذا فكر. الأفضل أن أتمدد وأمنحه فرصة ليهدأ.

كان القمر قد برز الآن واستطاع أن يرى ما كان في القمرة.

فكر: يا لها من فوضى، فوضى هائلة.

فكر: الأفضل أن أستلقي قبل أن أسقط. ونزل إلى أرض القمرة.

تمدد على جنبه، وتمايل القارب. ودخل شعاع القمر واستطاع أن يرى كل شيء في القمرة بوضوح.

فكر: «القارب مزدحم. هكذا هو. إنه مزدحم. ثم أتساءل عما سنفعله. أتساءل ما ستفعله ماري يا ترى؟ ربما سيدفعون لها المكافآت. اللعنة على ذلك الكوبي. ولكنها ستتدبر أمرها على ما أظن. إنها امرأة ذكية. أعتقد أننا كنا سنتدبر أمرنا جميعاً. أعتقد أن هذا كان جنوناً بالفعل. أعتقد أني نهشت أكثر مما أستطيع مضغه. ما كان يجب عليّ أن أحاول. كل شيء كان على ما يرام حتى النهاية. لن يعرف أحد كيف جرى ما جرى. أتمنى لو أستطيع أن أفعل شيئاً من أجل ماري. الكثير من النقود على هذا القارب. ولا أعرف حتى كم هو المبلغ. أي شخص كان يمكنه أن يعيش على ما يرام بهذه النقود. أتساءل إن كان خفر السواحل سيسرقونه. بعضه ربما أتمنى لو أستطيع أن أجعل المرأة العجوز تعرف ما حدث. أتساءل عما ستفعله يا ترى؟ لا أعرف. اعتقد أنه كان عليّ أن أجد عملاً في محطة وقود أو ما شابه. كان عليّ التخلّي عن السفر بالقوارب. ليست هناك نقود شريفة في القوارب الآن. لو أن هذا القارب اللعين لا يتمايل. لو أنه يتوقف عن التمايل. أستطيع أن أشعر بكل ذلك الخض في الداخل. أنا والسيد بيليبس وآلبرت. كل من كان له علاقة بالمسألة. وهؤلاء الأنغال أيضاً. لا شك أنها صفقة منحوسة. يا لها من صفقة منحوسة جداً. أعتقد أن ما على امرئ مثلي أن يفعله هو أن يدير محطة وقود مثلاً. يا للجحيم ما كان ممكناً لي أن أدير أي محطة وقود. ماري ستدير شيئاً ما. إنها أكبر سناً من أن تبيع نفسها الآن. أتمنى لو أن هذا القارب اللعين لا يتمايل. عليّ أن أسهّل الأمر على نفسي الآن. عليّ أن أفعل ذلك. يقولون إنك إن لم تشرب الماء وبقيت هادئاً (يمكن أن تنجو). يقولون إن عليك ألاّ تشرب الماء على الخصوص.

نظر إلى ما أناره ضوء القمر في القمرة.

فكر: حسناً: لن يكون عليّ أن أنظفها الآن. هوّن عليك. هذا ما عليّ

أن أفعله. هوّن عليك. عليّ أن أفعل ذلك بقدر ما أستطيع. لديّ فرصة ما. إذا بقيت هادئاً و لم تشرب أي ماء.

تمدد على ظهره وحاول أن يتنفس بثبات. تمايل القارب ضمن تيار الخليج وتمدد هاري مورغان على ظهره في القمرة. في البداية حاول أن يدعم نفسه ضد التمايل بيده السليمة. ثم تمدد بهدوء وتحمّله.

* * *

الفصل الحادي عشر

في صباح اليوم التالي وفي «كي وست» كان ريتشارد غوردون في طريقه إلى البيت من زيارة إلى «بار فريدي» حيث ذهب ليسأل عن حادثة سرقة المصرف. كان يركل دراجته، ومرّ بامرأة ممتلئة ضخمة الجسم ولها عينان زرقاوان وشعر أشقر حائل ظاهر من تحت القبعة اللبادية الخاصة بزوجها، وكانت تسرع عابرة الطريق وعيناها محمرتان من البكاء. قال في نفسه: انظر إلى ذلك الثور الكبير. ما الذي تفكر فيه امرأة كهذه يا ترى؟ كيف هي في السرير يا ترى؟ كيف يشعر زوجها بعد أن تضخمت إلى هذا الحجم؟ ومع من يقوم بالمغامرات النسائية في هذه البلدة؟ ألا تبدو كامرأة منفّرة؟ كأنها مدمّرة بحرية حربية. رهيبة!

كان قد أوشك على الوصول إلى البيت الآن. ترك دراجته على الرواق الأمامي ودخل إلى البهو، وأغلق الباب الأمامي الذي كان النمل الأبيض قد حفر فيه أنفاقاً وجعله كالغربال.

نادت عليه زوجته من المطبخ:

– ما الذي عرفته يا ديك؟

– لا تكلميني. أنا ذاهب لأعمل. كل شيء في رأسي.

قالت: حسناً. سأتركك وشأنك.

جلس إلى المنضدة الكبيرة في الغرفة الأمامية. كان يكتب رواية حول إضراب في معمل للنسيج. وفي الفصل الذي سيكتبه اليوم كان سيستخدم

المرأة الضخمة ذات العينين اللتين احمرتا من شدة البكاء والتي شاهدها للتو وهو في طريقه إلى البيت. كان زوجها كلما عاد ليلاً يشعر بالكراهية تجاهها. كان يكره الطريقة التي اخشوشنت وتضخمت بها، وكان ينفر من شعرها حائل اللون وثدييها الضخمين وقلة تعاطفها مع عمله كمسؤول نقابي. كان يقارنها باليهودية الشابة ضئيلة الجسم ذات النهدين القاسيين والشفتين الممتلئتين والتي ألقت كلمة في الاجتماع في ذلك المساء. كان ذلك جيداً. كان جيداً، كان رائعاً، وكان حقيقياً. لقد رأى، خلال ومضة إلهام، الحياة الداخلية الكاملة لذلك النوع من النساء.

لا مبالاتها منذ البداية لمداعبات زوجها – ورغبتها في إنجاب الأطفال والشعور بالأمان. قلة تعاطفها مع مطامع زوجها. محاولاتها البائسة لإثارة الاهتمام بالفعل الجنسي الذي أصبح منفراً لها بالفعل سيكون ذلك الفصل جميلاً.

كانت المرأة التي رآها هي زوجة هاري مورغان، ماري، وكانت في طريقها إلى البيت من مكتب مأمور الشرطة.

* * *

الفصل الثاني عشر

كان قارب «فريدي والاس» المسمى «كوين كونتش»، ويبلغ طوله أربعاً وثلاثين قدماً وعليه الرقم (٧) وقد صنع في ميناء تامبا (مدينة في فلوريدا)، مطلياً باللون الأبيض. أما السطح الأمامي فقد طلي بلون يدعى «بالأخضر المرح»، وكذلك القسم الداخلي من القمرة. كان بيت المحرك مطلياً باللون نفسه. كان اسم القارب واسم الميناء الأم «كي وست، فلوريدا» مطليين باللون الأسود على مؤخره. لم يكن القارب مزوداً بمدّاد ولم يكن له صار. كان مجهزاً بواقية زجاجية كسر أحد ألواحها الذي يقع أمام الدفة. كان هناك عدد من الثقوب الجديدة التي تناثر منها الخشب وذلك في الهيكل المطلي حديثاً. كان ممكناً مشاهدة بقع متناثرة على كلا طرفي الهيكل تحت الحرف الأعلى بحوالي قدم ونحو الأمام قليلاً من وسط القمرة. كانت هناك مجموعة أخرى من تلك البقع المتناثرة عند خط الغوص تقريباً على الجانب الأيمن من الهيكل مقابل الدعامة الخلفية التي تدعم بيت المحرك أو الظلّة. كان شيء أسود قد تقطّر من أوطأ هذين وتدلّى في خيوط حبلية على الطلاء الجديد لهيكل القارب.

كان القارب قد انجرف عرضانياً مع ريح الشمال اللطيفة إلى مسافة عشرة أميال خارج خطوط مسير ناقلات النفط المتجهة شمالاً، وهو يبدو مرحاً بلونيه الأبيض والأخضر على مياه الخليج الداكنة. كانت هناك بقع من أعشاب «سارغاسو» المصفّرة طافية في الماء إلى القرب من القارب وراحت تمر به ببطء ضمن التيار متجهة شمالاً وشرقاً بينما طغت الريح

على انسياق القارب فأبعدته عن التيار. لم تكن هناك أي علامة تدل على وجود حياة على القارب رغم أن جسد رجل كان بارزاً منه، ولكنه جسد فوق الحرف الأعلى من جانب القارب، وكان متمدداً على مقعد فوق خزان البنزين الأيسر، ومن المقعد الطويل على امتداد الحرف الأعلى الأيمن، بدا رجل وكأنه ينحني فوقه ليغمس يده في البحر. كانت رأسه وذراعاه في الشمس، وعند النقطة التي كانت يده تلمس فيها الماء تقريباً، كان هناك سرب من السمك الصغير، طوال الواحدة منه بوصتان، ولها شكل بيضاوي ولون ذهبي مخطط بخطوط قرمزية فاتحة، وقد هجر هذا السمك طحالب الخليج ليستظل تحت القارب المنجرف، وفي كل مرة يقطر فيها أي شيء في البحر، كان هذا السمك يندفع نحو القطرة ويتدافع عليها ويتحرك دائرياً دون انتظام حتى تتلاشى. كانت هناك سمكتان رماديتان من النوع المصّاص يبلغ طول الواحدة منها ثماني عشرة بوصة، تحومان من حول القارب في الظل، وفماهما المشقوقان في أعلى رأسيهما ينفتحان وينغلقان، ولكن لم يبد عليهما أنهما تفهمان انتظام سقوط القطرات التي كان السمك الصغير يتغذى عليها، ومن المحتمل أنهما كانتا عند الطرف البعيد من القارب حيث كانت القطرة تسقط، وليس إلى القرب منه. كان قد سبق لهما وجذبتا الكتل والخيوط الحبلية القرمزية التي كانت تتدلى في الماء من أخفض الثقوب، وكانتا تهزان رأسيهما البشعتين المزودتين بمصاص في الأعلى، وكان جسداهما الطويلان الدقيقان المزودان بذيلين نحيلين يهتزان وهما تشدان حبال الدم. كانتا مترددتين الآن في ترك هذا المكان الذي تغذتا فيه على هذا النحو الجيد غير المتوقع.

داخل القمرة في القارب كان ثلاثة رجال آخرين. أحدهم، وهو ميت، كان ممدداً على ظهره حيث سقط تحت كرسي القيادة. وكان هناك شخص آخر ميت وقد تمدد محدودباً على بالوعة القارب عند الدعامة العامودية اليمنى الخلفية. أما الثالث، وكان لا يزال حياً إنما غير واع منذ فترة طويلة، فكان ممدداً على جنبه ورأسه على ذراعه.

كان جوف القارب ممتلئاً بالبنزين، وحين كان القارب يتمايل ولو قليلاً كان يصدر عنه صوت متدفّق. كان الرجل، هاري مورغان، يحس أن الصوت يصدر عن معدته، وقد بدا له الآن أن معدته كانت كبيرة وأن الماء كان يتدفق على شاطئيها في آن واحد. كان السبب هو تمدده على ظهره وركبتاه مرفوعتان ورأسه نحو الخلف. كان ماء البحيرة التي كانت معدته بارداً جداً إلى حد أنها خدرته حين خطا نحوها، وكان يشعر ببرد شديد الآن، وكان لكل شيء مذاق البنزين وكأنه كان يمتصه من خرطوم يعبئ صهريجاً. كان يعرف أن ليس هناك صهريج رغم أنه كان قادراً على الإحساس بوجود خرطوم مطاطي بدا وكأنه دخل فمه، وكان الآن قد التفّ كبيراً وبارداً وثقيلاً خلال جسده كله. وفي كل مرة كان يأخذ بها نفساً كان الخرطوم يلتف على نحو أبرد وأصلب في أسفل بطنه وكان قادراً على الإحساس به كثعبان كبير يتحرك بسهولة هناك، فوق تدفق البحيرة. كان خائفاً منه، ولكن رغم أنه كان فيه، إلا أنه بدا بعيداً عنه وما كان يزعجه الآن هو البرد.

كان البرد قد لبسه كله، برد موْلم يرفض أن يهدأ، وقد تمدد بهدوء الآن وراح يشعر به. كان قد فكر في إحدى المرات أنه لو استطاع أن يرفع نصفه لغطى به نصفه الآخر كبطانية، وقد فكر لفترة أنه قد طوى نفسه على نفسه وبدا يشع بالدفء. ولكن ذلك الدفء كان هو النزيف الذي نجم عن رفعه لركبتيه، ومع زوال الدفء عرف الآن أنه ليس ممكناً أن يغطي الإنسان نفسه بنفسه و لم يكن هناك شيء يمكن للمرء أن يفعله تجاه البرد سوى أن يتحمله. كان متمدداً هناك، وهو يبذل قصارى جهده ألاّ يموت بعد أن توقف عن التفكير لفترة طويلة. كان في الظل الآن، بعد أن انجرف القارب، وكان البرد يشتدّ طوال الوقت.

كان القارب ينجرف منذ الساعة العاشرة ليلاً. من الليلة السابقة وكان الوقت الآن هو العصر. لم يكن هناك أي شيء آخر على مدّ البصر عبر سطح

الخليج سوى طحالب الخليج وبضع كائنات بحرية ذات فقاعات غشائية منتفخة قرنفلية اللون وقد طفت بمرح على السطح، والدخان البعيد لناقلة نفط محملة متجهة شمالاً من تامبيكو.

* * *

الفصل الثالث عشر

سأل ريتشارد غوردون زوجته :

– حسناً؟

– على قميصك آثار حمرة شفاه. وفوق أذنك أيضاً.

– وماذا يعني ذلك؟

– وماذا يعنيه؟

– وماذا لو وجدتك على الأريكة مستلقية مع ذلك الجلف السكّير؟

– أنت لم تجدني كذلك.

– أين وجدتك؟

– رأيتنا جالسين على الأريكة.

– في العتمة.

– وأين كنت أنت؟

– عند آل برادلي.

قالت :

– أجل. أعرف. لا تقترب مني. تفوح منك رائحة تلك المرأة.

– وأنت ما تفوح منك؟

– لا شيء. كنت جالسة أتحدث إلى صديق.

– قبّلته؟

- لا.

- هل قبّلكِ؟

- أجل. وقد أعجبني ذلك.

- أيتها العاهرة.

- إذا سميتني بهذا الاسم هجرتك.

- أنت عاهرة.

- حسناً. لقد انتهى الأمر. لو لم تكن مغروراً جداً و لم أكن طيبة جداً معك، لرأيت أن الأمر كان قد انتهى منذ زمن طويل.

- أيتها العاهرة.

قالت:

- لا. لست عاهرة. لقد حاولت أن أكون زوجة صالحة، ولكنك أناني ومغرور كديك حظيرة. أنت تصيح دائماً: «انظري ما فعلتُه. انظري كيف جعلتك سعيدة. والآن هيا اركضي وأسمعيني قوقأتك». حسناً، أنت لا تسعدني وأنا قد سئمت منك. لقد انتهيت من القوقأة.

- ليس عليك أن تقوقئي. فأنت لم تنجبي ما تقوقئين له.

- على من يقع الخطأ؟ أو لم أكن راغبة في إنجاب الأطفال؟ ولكننا لم نكن قط قادرين على تحمل نفقتهم. إنما استطعنا تحمل نفقات الذهاب إلى «كاب دانتيب»() للسباحة وإلى سويسرا للتزلج على الجليد. نستطيع تحمل نفقات القدوم إلى «كي وست» هنا. لقد سئمت منك. أكرهك. كانت امرأة برادلي هذا اليوم هي التي أطفحت الكأس.

- أوه، لا داعي لإقحامها هنا.

- ها أنت تأتي ملطخاً من رأسك إلى أخمص قدميك بأحمر الشفاه. ألم تستطع أن تغتسل حتى؟ وهناك بعض منه على جبينك أيضاً.

- هل قبّلت ذلك الحقير السكير؟

- لا لم أقبله. ولكني كنت سأقبّله لو عرفت ما كنت تفعله أنت.

- لماذا سمحت له أن يقبّلك؟

- كنت غاضبة منك. لقد انتظرنا وانتظرنا. لم تقترب مني قط. لقد ذهبت مع تلك المرأة وبقيت معها ساعات. وقد اصطحبني جون إلى البيت.

- أوه، أكان اسمه جون؟

- أجل، جون، جون، جون.

- أوه ، وما هي كنيته؟ توماس؟

- اسمه ماك وولزي.

- لم لا تهجّئينه؟

قالت:

- لا أستطيع.

ثم ضحكت. ولكنها كانت آخر مرة تضحك فيها. قالت:

- إياك أن تظنّ أن الأمور على ما يرام لأني أضحك.

كانت الدموع في عينيها وكانت شفتاها ترتجفان.

- ليست الأمور على ما يرام. ليست هذه خناقة عادية. لقد انتهى كل شيء. لا أكرهك. ليس الأمرُ عنيفاً. أكرهك فحسب. أكرهك تماماً وقد انتهيت منك.

قال:

- حسناً

- لا، ليس حسناً. كل شيء انتهى .

- أظنّ ذلك.

- لا تظن.

- لا تكوني ميلودرامية إلى هذا الحد يا هيلين.

- إذن أنا ميلودرامية، أليس كذلك؟ حسناً، لست كذلك. لقد انتهيت منك.

- لا، لم تنتهي.

- لن أقولها مرة أخرى.

- ما الذي ستفعلينه.؟

- لا أعرف بعد. قد أتزوج جون ماك وولزي.

- لن تفعلي .

- سأفعل لو شئت.

- لن يتزوجك.

- أوه، أجل. سيتزوجني. لقد طلب مني الزواج عصر هذا اليوم.

لم يقل ريتشارد غوردون أي شيء. لقد حصل فراغ في جوفه حيث كان قلبه، وكل ما سمعه أو قاله بدا له كشيء يسترق هو السمع إليه.

قال وصوته قادم من مكان بعيد:

- طلبت منك ذلك؟

- الزواج منه.

- لماذا؟

- لأنه يحبني. لأنه يريدني أن أعيش معه. إنه يكسب من النقود ما يكفي لإعالتي.

- أنت زوجتي أنا.

- ليس بالفعل. ليس في الكنيسة. لقد رفضت أن تتزوجني في الكنيسة وقد حطم ذلك قلب أمي المسكينة كما تعرف جيداً. لقد كنت متورطة معك عاطفياً إلى حد أني كنت مستعدة لتحطيم قلب أي شخص من أجلك. يا إلهي، لقد كنت حمقاء لعينة. وقد حطمت قلبي أنا أيضاً. لقد تحطم وانتهى. كل ما آمنت به وكل ما كنت أهتم به تركته من أجلك لأنك كنت رائعاً جداً وقد أحببتني كثيراً حتى إن الحب كان كل شيء. كان الحب أعظم الأشياء، أليس كذلك؟ ألم يكن الحب كل ما لدينا على نحوٍ لم يكن له مثيل ولن يكون له مثيل؟ وكنت أنت عبقرياً وكنتُ حياتك كلها. كنتُ شريكتك وزهرتك السوداء الصغيرة. هراء عاطفي. الحب مجرد كذبة قذرة أخرى. الحب أقراص «أرغو أبيول» أتناولها لأستفيق لأنك كنت تخشى منَ أن ترزق بأطفال. الحب هو الكينا والكينا والكينا حتى أصابني بالصمم. الحب هو ذلك الرعب المجهض القذر الذي جعلتني أعانيه. الحب هو أحشائي التي اضطربت كلها. الحب هو القسطرة وغسول الرحم. أعرف ما هو الحب. الحب يعلّق دائماً خلف باب الحمام. رائحته كرائحة «الليزول»( ). فليذهب الحب إلى الجحيم. الحب هو أن تسعدني ثم تنام وفمك مفتوح بينما أتمدد مستيقظة طوال الليل وأنا أخشى أن أتلو حتى صلواتي لأني أعرف أنه لم يعد لي حق في تلاوتها. الحب هو كل تلك الخدع الصغيرة القذرة التي علّمتني إياها والتي أخذتها عن بعض الكتب. حسناً. لقد انتهيت منك ومن الحب. ذلك الحب القذر الذي تمارسه. أنت أيها الكاتب.

- يا لك من قحبة إيرلندية صغيرة.

- لا تشتمني. أعرف كيف أشتمك.

- حسناً.

- لا، ليس حسناً. كل شيء باطل وباطل أيضاً. لو كنت كاتباً جيداً لاستطعت احتمال البقية ربما. ولكن رأيتك مرّاً غيوراً وتغيّر من معتقداتك السياسية لتلاحق الموضة، وتتملّق بتذلّل ثم تهجوهم من خلف ظهورهم. لقد رأيت منك ما يكفي ليجعلني أشعر بالاشمئزاز منك. ثم تلك المومس الغنية القذرة من آل برادلي اليوم. أوه لقد قرفتُ من كل شيء. لقد حاولت الاعتناء بك ومداراتك، والاهتمام بك والطبخ لك، والصمت حين تريد، وأن أكون مرحة حين تريد، أن أسمح لك بالانفجار أحياناً، وأتظاهر بالسعادة، وأن أتحمّل نوبات غضبك وغيرتك وخسّتك، والآن انتهى كل شيء.

- إذن تريدين الآن أن تبدئي مجدداً مع بروفسور سكير؟

- إنه رجل. إنه لطيف ومترفق في حكمه على الناس، ويجعلني أشعر بالراحة ونحن ننتمي إلى الخلفية الاجتماعية نفسها، ولدينا القيم نفسها التي لا يمكن أن تكون لك. إنه أشبه بأبي.

- إنه سكّير.

- إنه يشرب. ولكن كان أبي يفعل ذلك أيضاً. كان أبي يرتدي جوارب صوفية ويرفع قدميه بهما على كرسي ويقرأ الصحيفة في المساء. وحين كنا نصاب بالتهاب في الحنجرة كان يعتني بنا. كان عاملاً في مصنع للمراجل وكانت يداه مشققتين وكان يحب أن يلاكم حين يشرب، وكان قادراً على الملاكمة وهو صاح. كان يذهب إلى القداس لإرضاء أمي، وكان يمارس واجباته في عيد الفصح من أجلها ومن أجل الرب، ولكن من أجلها على الأغلب، وكان نقابياً جيداً، ولو كان يذهب مع امرأةأخرى فما كان ليجعلها أخرى فما كان يدعها تعرف بذلك.

- أراهن أنه كان يذهب مع كثير من النساء.

- ربما كان يفعل ذلك، ولكنه كان يعترف للقسيس حين يفعل، وليس

لها، ولو كان يفعل ذلك فالسبب هو عدم قدرته على مغالبة ذلك. وكان يشعر بالأسف ويندم. لم يكن يفعل ذلك بدافع من الفضول، أو كنوع من التفاخر الذكوري أو ليخبر زوجته كم هو عظيم. لو فعل ذلك لكان السبب هو أن أمي كانت بعيدة عنه في رفقتنا نحن الأطفال خلال فصل الصيف. وكان هو يخرج مع الشباب ويسكر. كان رجلاً.

- كان عليك أن تكوني كاتبة لتكتبي عنه.

- كنت سأصبح كاتبة أفضل منك. وجون ماك وولزي رجل طيب. وأنت لست كذلك ما كنت تستطيع أن تكون طيباً. مهما تكن قناعاتك السياسية أو دينك.

- ليس لي أي دين.

- ولا أنا. ولكن كان لي دين في مرة من المرات وسأعود إليه مرة أخرى. ولن تكون موجوداً لتحرمني منه، كما حرمتني من كل شيء آخر.

- لا.

- لا يمكنك أن تكون في الفراش مع امرأة غنية كهيلين برادلي. هل أعجبْتَها؟ هل اعتقدتْ أنك رائع؟

استسلم ريتشارد غوردون أخيراً وهو ينظر إلى وجهها الحزين الغاضب، الجميل من البكاء، وشفتيها المتورمتين حديثاً كشيء أصابه المطر، وشعرها المجعّد الداكن المشعث من حول وجهها، وقال:

- وأنت لم تعودي تحبينني؟

- أكره حتى هذه الكلمة.

قال:

- حسناً.

وصفعها بقوة وعلى نحو مفاجئ على وجهها.

بكَت الآن من الألم الفعلي، وليس غضباً، ووجهها على الطاولة قالت:

– لم يكن هناك من داع لذلك.

قال:

– بل كان هناك. أنت تعرفين الكثير، ولكنك لم تعرفي كم كنت في حاجة إلى فعل ذلك.

في عصر ذلك اليوم لم تكن قد رأته حين فتح الباب. لم تر أي شيء سوى السقف الأبيض بمنحوتاته لنماذج عن كيوبيد وحمائم وزخرفات لولبية جعلها النور الداخل من الباب المفتوح تتضح فجأة.

كان ريتشارد غوردون قد التفت برأسه وراءه، واقفاً هناك ثقيلاً وملتحياً عند الباب.

قالت هيلين:

– لا تتوقف. لا تتوقف.

كان شعرها اللامع منتشراً على الوسادة.

ولكن ريتشارد غوردون كان قد توقف وكانت رأسه لا تزال ملتفتة، وهو يحدّق.

– لا تكترث به. لا تكترث بأي شيء. ألا ترى أنك لا تستطيع أن تتوقف الآن؟

كان هذا ما قالته المرأة بإلحاح يائس.

كان الرجل الملتحي قد أغلق الباب بهدوء. كان يبتسم.

سألت هيلين برادلي في العتمة مجدداً الآن:

– ما الحكاية يا حبيبي؟

– علي أن أذهب؟

– ألا ترى أنك لا تستطيع ذلك؟

– ذلك الرجل...

– كان ذلك «تومي» لا غير. إنه يعرف كل هذه الأمور. لا تكترث به هيا يا حبيبي. هيّا من فضلك.

– لا أستطيع.

قالت هيلين:

– بل عليك أن تفعل ذلك.

– استطاع أن يشعر بها ترتجف ورأسها على كتفه ترتجف.

– يا إلهي، ألا تعرف أي شيء؟ أليس لديك أي احترام لامرأة؟

قال ريتشارد غوردون:

– علي أن أذهب.

كان قد أحسّ في العتمة بالصفعة على وجهه، وهي الصفعة التي أطلقت شعاعاً من النور في مقلتيه. ثم كانت هناك صفعة أخرى، على فمه هذه المرة. قالت له:

– إذن هذا هو نوع الرجال الذي أنت منه. ظننت أنك رجل عركته الحياة. اخرج من هنا!

هكذا كان عصر يومه ذاك. هكذا انتهى الأمر في منزل آل برادلي».

والآن ها هي زوجته تجلس ورأسها نحو الأمام على يديها اللتين كانتا تستريحان على الطاولة ولم يقل أي منهما أي شيء. استطاع ريتشارد غوردون أن يسمع الساعة تتكّ وأحسّ أنه أجوف بقدر ما كانت الغرفة هادئة. وبعد برهة قالت زوجته دون أن تنظر إليه:

– يؤسفني أن حدث ذلك. ولكن كما ترى فإن كل شيء قد انتهى، ألا ترى ذلك؟

– أجل، إن كانت الأمور على هذه الحال.

– لم تكن الأمور هكذا دائماً، ولكنها على هذا المنوال منذ زمن طويل.

– آسف لأني صفعتك.

– أوه، لا بأس. لا شأن لهذا بالأمر. كانت هذه طريقة معينة في التوديع.

– لا.

قالت وهي متعبة جداً:

– عليّ أن أخرج. عليّ أن آخذ الحقيبة الكبيرة على ما أعتقد.

قال: افعلي ذلك في الصباح. يمكنك أن تفعلي كل شيء في الصباح.

– الأفضل الآن يا «ديك»، وسيكون ذلك أسهل. ولكني متعبة جداً لقد أتعبني هذا كله وسبّب لي صداعاً.

– افعلي ما تشائين:

قالت:

– أوه يا إلهي! أتمنى لو لم يحدث ذلك. ولكنه حدث. سأحاول أن أرتب لك الأمور. ستحتاج إلى شخص يعتني بك. لو لم أقل ذلك، أو لم أنك لم تضربني، ربما كنا سنسوّي الأمر مجدّداً.

– لا، كان كل شيء قد انتهى قبل ذلك.

– آسفة جداً من أجلك يا «ديك».

– لا تأسفي عليّ وإلاّ صفعتك مجدداً.

قالت:

– أعتقد أني سأشعر أني أفضل لو صفعتني. فأنا آسفة فعلاً من أجلك. أوه، أنا آسفة فعلاً.

– اذهبي إلى الجحيم!

– آسفة أني قلت أنك لست جيداً في الفراش. أنا لا أعرف شيئاً حول هذا. أعتقد أنك رائع.

قال: أنت لست نجمة في هذا المجال.

بدأت تبكي مجدداً. قالت:

- هذا أسوأ من الصفع.

- حسناً، ما الذي قلتِه أنت؟

- لا أعرف. لا أتذكر. كنت غاضبة جداً وقد آلمني كثيراً.

- حسناً، لقد انتهى كل شيء، لم المرارة؟

- أوه، لا أريد أن ينتهي كل شيء. ولكنه انتهى وليس هناك ما بوسعنا فعله الآن.

- سيكون لديك بروفسورك السكير.

قالت:

- لا تقل هذا. ألا يمكننا أن نخرس فلا نتكلم أبداً؟

- أجل.

- هل لك؟

- أجل.

- سأنام هنا.

- لا، يمكنك أن تنامي على السرير. عليك أن تفعلي ذلك. سأخرج قليلاً.

- أوه، لا تخرج.

قال:

- أنا مضطر إلى ذلك.

- وداعاً.

ورأى وجهها الذي كان يحبه كثيراً. والذي لم يفسده البكاء، وشعرها

الأسود المجعّد، وثدييها القاسيين الصغيرين تحت الكنزة المنطلقين إلى الأمام والضاغطين على حافة الطاولة، لم ير بقيتها التي كان يحبها جداً وكان يعتقد أنه يرضيها- ولكنه على ما يبدو لم يكن جيداً في ذلك- بقيتها التي كانت تحت الطاولة. ولاحظ وهو خارج أنها كانت تنظر عبر الطاولة، وذقنها على يديها، وكانت تبكي.

الفصل الرابع عشر

لم يركب الدراجة، بل سار على امتداد الشارع. كان القمر قد صعد الآن، وأضحت الأشجار معتمة قبالته، وقد مرّ بالبيوت الخشبية بباحاتها الضيقة والنور القادم من النوافذ مغلقة المصاريع، وبالحارات غير المرصوفة بصفوفها المزدوجة من المنازل؛ بلدة الفقراء حيث كان شيء كان متزمّتاً، جيد الإغلاق، وكانت هناك الفضيلة والفشل، البرغل والزفرات الحارة، سوء التغذية، التحامل، الاستقامة، التهجين وسلوان الدين؛ منازل البوليتو الكوبيين المنارة مفتوحة الأبواب، أكواخ رومانسيتها الوحيدة هي أسماؤها؛ «البيت الأحمر»، بيت «تشيتشا»؛ الكنيسة المبنية بحجر الخفّان وأبراجها ذات المثلثات الحادة القبيحة قبالة نور القمر، الساحة الكبيرة والدير ذو الشكل الطويل والقبة السوداء، الجميل تحت نور القمر. محطة البنزين ومحل بيع السندويش المضاءان إلى القرب من أرض خالية من البناء فيها ملعب غولف مصغّر. ومرّ عبر الشارع الرئيسي المنار جيداً وفيه ثلاثة دكاكين ومحل للموسيقى وخمسة مخازن أصحابها من اليهود وثلاثة محلات للعب البلياردو، ودكانان للحلاقة، وخمسة بارات للبيرة وثلاثة دكاكين لبيع الأيس كريم، وخمسة مطاعم فقيرة وواحد فخم، ودكانان لبيع المجلات والصحف، وأربعة محلات لبيع الأشياء المستعملة (أحدها لصنع المفاتيح)، وأستوديو تصوير فوتوغرافي، وبناء للمكاتب فيه أربعة أطباء أسنان في الطابق الثاني، ومخزن كبير لبيع الأشياء الرخيصة؛ وفندق عند الزاوية وسارات التاكسي تقف قبالته، وعبر الشارع، خلف الفندق،

باتجاه الشارع الذي يؤدي إلى حيّ تسوده شريعة الغاب، والمنزل الخشبي الكبير غير المطلي وفيه الأنوار والفتيات عند الباب، وصوت البيانو الآلي يصدح باستمرار، وبحّار جالس في الشارع. ثم عبر إلى المؤخرة، إلى ما خلف دار المحكمة ذات البناء الآجري وساعتها اللامعة التي تشير إلى العاشرة والنصف، عبر مبنى السجن المطلي بالكلس الأبيض اللامع تحت نور القمر، وحتى المدخل المحاط بالأغصان للمكان المسمى «الزمان الليلكي» حيث كانت السيارات تملأ الجادة.

كان «الزمان الليليكي» مضاءً بابتهاج ومليئاً بالناس، وحين دخل ريتشارد غوردون رأى غرفة القمار مزدحمة بالناس، وكان الدولاب يدور والكرة الصغيرة تتكتك بهشاشة على الحواجز المعدنية الموضوعة ضمن الوعاء الكبير، والدولاب يدور ببطء، والكرة تئزّ، ثم تتكتك مهتاجة حتى تستقر و لم يبق سوى دوران الدولاب وطقطقة القطع. عند البار كان صاحب المحل الذي راح يقدم المشروبات بمساعدة عاملي بار يقول:

– أهلاً، أهلاً سيد غوردون. ما الذي تريد أن تشربه؟

قال ريتشارد غوردون:

– لا أعرف.

– لا يبدو أنك على ما يرام. ما حكايتك؟ ألا تشعر أنك في صحة جيدة؟

– لا.

– سأرتب لك كأساً جيدة. ستشعر أنك في أحسن حال. هل جرّبت الأبثينته الإسبانية (الأوخن)؟

قال غوردون:

– هيا.

قال صاحب المكان:

- اشربها وستشعر بالتحسُّن. ستشعر بالرغبة في التلاكم مع أي شخص في المكان. امزج للسيد غوردون كأساً خاصة من «الأوخن».

شرب ريتشارد غوردون ثلاثة كؤوس خاص من «الأوخن» وهو واقف عند البار، ولكنه لم يشعر بتحسن في المزاج. لم يجعله المشروب الكتيم الحلو البارد ذو المذاق الأشبه بمذاق السوس يشعر أن حالته اختلفت.

قال لعامل البار:

- أعطني شيئاً آخر.

قال صاحب المكان:

- ما الحكاية؟ ألا تحب «الأوخن» الخاص؟ ألا تشعر بتحسّن؟

- لا.

- عليك أن تكون حذراً تجاه ما ستشربه بعده.

أعطني كأساً من الويسكي الصرف.

دفّأ الويسكي لسانه ومؤخرة حلقه، ولكنه لم يغيّر أياً من أفكاره، وبينما كان ينظر إلى نفسه في المرآة التي خلف البار، عرف أن الشرب لن يفيده الآن أبداً. سيظل يعاني ممّا يعاني منه، وسيعاني منه من الآن فصاعداً، وإن شرب حتى فقد وعيه فسيكون ذلك الشيء هناك حين يفيق.

قال شاب طويل نحيل جداً ذو لحية شقراء غير كثّة وكان يقف إلى جواره عند البار:

- ألست ريتشارد غوردون؟

- أجل.

- أنا هربرت سبلمان. لقد التقينا في إحدى الحفلات في بروكلين على ما أعتقد.

قال ريتشارد غوردون:

– ربما. لم لا؟

قال سبلمان:

– لقد أعجبتني كثيراً آخر كتاب لك. كل كتبك تعجبني.

– وما الذي تفعله الآن؟

قال سبلمان:

– ليس الكثير. أتجوّل قليلاً. وأنا آخذ الأمور على علاّتها الآن. هل أنت بصدد تأليف كتاب جديد؟

– أجل. وقد وصلت فيه إلى منتصفه.

قال سبلمان:

– عظيم. وما هو موضوعه؟

– إضراب في معمل للنسيج.

قال سبلمان:

– هذا رائع. أتعرف أني مولع بأي شيء يتعلق بالصراع الاجتماعي؟

– ماذا؟

قال سبلمان:

– أحبه. أحبذه على أي شيء آخر. أنت دون شكّ أفضل الكتّاب. اسمع، هل فيه محرِّضة يهودية جميلة؟

سأله ريتشارد غوردون بارتياب:

– لماذا؟

– سيكون هذا دوراً مناسباً لـ «سيلفيا سيدني». أنا أحبها. أتريد أن ترى صورتها؟

قال ريتشارد غوردون:

– لقد رأيتها.

قال سبلمان بسعادة:

– فلتشرب. من كان سيظنّ أني سأقابلك هنا؟ أتدري؟ أنا رجل محظوظ. محظوظ فعلاً.

سأله ريتشارد غوردون قائلاً:

– يسعدني سماع ذلك. هل لك بكأس؟

قال سبلمان:

– تناول كأساً معي. هل جرّبت هذا «الأوخن»؟

– لم ينفعني.

– ما الحكاية؟

– أحس بالكآبة.

– ألن تجرب كأساً أخرى؟

– لا أفضّل الويسكي.

قال سبلمان:

– أنت تعرف أن لقائي بك يعتبر شيئاً هاماً بالنسبة إليّ. لا أفترض أنك تتذكّرني من تلك الحفلة، أليس كذلك؟

– لا، ولكن ربما كانت حفلة جيدة. ليس من المفترض بك أن تتذكر حفلة جيدة، أليس كذلك؟

قال سبلمان:

– لا أعتقد ذلك. كانت الحفلة في منزل مارغريت فان برنت.

ثم سأله بتوق:

– هل تتذكّر؟

– أحاول.

قال سبلمان:

– كنتُ الذي أشعل النار في المنزل.

قال غوردون:

– لا.

قال سبلمان بسعادة:

– أجل. كنتُ أنا ذلك الشخص. وكانت تلك أعظم حفلة حضرتها.

– لماذا؟

قال سبلمان:

– أنا مجنون. يا للمسيح، هذا رائع. أشبه بالوقوع في الحب على أن تكون النتيجة جيدة على الدوام.

ابتعد ريتشارد غوردون عنه قليلاً. قال سبلمان:

– لا تتصرف هكذا. لست عنيفاً. أي أنني لست عنيفاً بالمرة تقريباً. هيا، فلنشرب كأساً.

– هل أنت مجنون منذ زمن طويل؟

قال سبلمان:

– أعتقد أني كنت دائماً هكذا. وأقول لك إنها الطريقة الوحيدة للإحساس بالسعادة في زمن كهذا. وما الذي يهمني ما تفعله شركة «دوغلاس للطائرات»: ما الذي يهمني من أمر «A. T. and Stock» وما تفعله؟ لا يمكنهم أن يؤذوني. يكفيني أن أقرأ في أحد كتبك أو أتفرج على صورة «سيلفيا»، وأكون سعيداً. أنا كالطير. بل أفضل حالاً من الطير. أنا...

بدا عليه التردد وهو يفتش عن كلمة، ثم تابع باستعجال:

– أنا لقلق جميل صغير.

هذا ما قاله دون تفكير ثم احمرّ خجلاً. نظر إلى ريتشارد غوردون بثبات، وشفتاه تتحركان، ثم انفصل شاب أشعر ضخم الجثة عن مجموعة من الناس كانت عند آخر البار واتجه نحوه ووضع يده على ذراعه. قال:

– هيا يا هارولد. الأجدر بنا أن نذهب إلى البيت.

نظر سبلمان إلى ريتشارد غوردون بجنون. قال:

– لقد سخر من اللقلق. لقد ابتعد عن اللقلق. اللقلق الذي ينعطف في طيران محوّم..

قال الشاب ذو الجثة الضخمة:

– هيا بنا يا هارولد.

مدّ سبلمان يده لريتشارد غوردون. قال:

– أرجو ألا تكون قد حصلت إساءة. أنت كاتب جيد. تابع ذلك. تذكر أني سعيد على الدوام. لا تجعلهم يشوّشونك. سأراك قريباً.

تحرك الاثنان وذراع الشاب ضخم الجثة فوق كتفه عبر الحشد ثم نحو الباب. نظر سبلمان إلى الخلف وغمز لريتشارد غوردون.

قال صاحب المحل:

– شخص لطيف.

ثم نقر على رأسه وتابع يقول:

– مثقف جداً لقد درس كثيراً على ما أظنّ. يحب كسر الكؤوس. ولكنه لا يقصد الإيذاء. يدفع ثمن كل ما يكسره.

– هل يأتي كثيراً إلى هنا؟

– في الأمسيات. ما الذي قاله عن نفسه؟ إنه بجعة؟

– لقلق.

– في المرة الماضية كان حصاناً بجناحين. كالحصان الذي يرسم على زجاجة ويسكي «وايت هورس» ولكن له جناحان. شخص لطيف فعلاً. الكثير من النقود. ولديه أفكار مضحكة كثيرة. العائلة تستبقيه هنا الآن مع مرافقه. حكى لي أنه يحب كتبك يا سيد غوردون. ما الذي تريد شربه؟ على حساب المحل.

قال ريتشارد غوردون:

– ويسكي.

ثم رأى المأمور قادماً باتجاهه. كان المأمور شخصاً شديد النحول بارز الوجنتين شديد الود. كان ريتشارد غوردون قد رآه في عصر ذلك اليوم في حفل آل برادلي وتحدث إليه عن عملية سرقة المصرف.

قال المأمور:

– إذا لم يكن لديك ما تفعله فتعال معي بعد قليل. إن خفر السواحل يقطرون الآن قارب هاري مورغان. لقد لحظته ناقلة نفط عند «ماتاكومبه». لقد أمسكوا بالعصابة كلها.

قال ريتشارد غوردون:

– يا إلهي. هل أمسكوا بهم كلهم؟

– كلهم موتى باستثناء رجل واحد. هكذا قالت الرسالة.

– ألا تعرف من هو؟

– لا، لم يقولوا. الله وحده يعرف ما حدث.

– هل النقود معهم؟

– لا أحد يعرف. ولكن لا شكّ أنها على ظهر القارب إذا لم يكونوا قد وصلوا إلى كوبا به.

– متى سيصلون إلى المرفأ؟

– ربما خلال ساعتين أو ثلاث.

– إلى أين سيجلبون القارب؟

– إلى رصيف البحرية على ما أعتقد. حيث تتوقف قوارب خفر السواحل.

– أين سأراك لننزل إلى هناك؟

– سأمر على هذا المكان لاصطحابك.

– هنا أو عند فريدي هناك. لا يمكنني احتمال هذا المكان أكثر من ذلك.

– سيكون الأمر خطيراً جداً عند فريدي الليلة. فالمكان مليء بأولئك المحاربين القدماء من «الكيز» إنهم يثيرون الشغب دائماً.

قال ريتشارد غوردون:

– سأنزل إلى هناك وأتفرج. أشعر بكآبة.

قال المأمور:

– حسناً، ابتعد عن المشاكل. سأمرّ لاصطحابك من هناك خلال ساعتين هل تريد أن أوصلك إلى هناك؟

– شكراً.

خرجا عبر الزحام، وركب ريتشارد غوردون في السيارة بجانب المأمور.

سأله:

– ما الذي تعتقد أنه جرى في قارب مورغان؟

قال المأمور:

– الله أعلم. يبدو الأمر شديد الفظاعة.

– أو لم تكن لديهم أي معلومات أخرى؟

قال المأمور:

– إطلاقاً. والآن انظر إلى هذا، هل لك؟

كانا قبالة الواجهة المفتوحة البراقة بالأنوار لبار فريدي وكان هذا مزدحماً حتى الرصيف. رجال في ملابس قطنية خشنة، البعض حاسر الرأس، والبعض يضع القبعات أو يرتدي طاقيات عسكرية قديمة أو خوذاً كرتونية. وكانوا يحتشدون في البار بنسق ثلاثي، وكان الحاكي ذو الصوت المرتفع الذي يعمل بقطعة نقود ذات الخمسة سنتات ترمى في الشق، يعزف أغنية «جزيرة كابري». وحين توقفت السيارة خرج رجل مندفعاً بعنف من الباب المفتوح ورجل آخر فوقه. وقد سقط وتدحرجا على الرصيف، وكان الرجل الذي من فوق يمسك بشعر الرجل الآخر بيديه وراح يضرب له رأسه على الأرض الإسمنتية للرصيف مصدراً صوتاً يثير الغثيان. لم يبد أي شخص ممّن في البار أي اكتراث.

خرج المأمور من السيارة وأمسك بالرجل الذي من فوق من كتفه وقال:

– كفى. قف.

نهض الرجل ونظر إلى المأمور.

– بحق المسيح، ألا تستطيع الاهتمام بشؤونك الخاصة؟

انتفض الرجل الآخر، والدم في شعره، وهو ينزف من إحدى أذنيه والمزيد منه يقطر من وجهه المغطى بالنمش، متحدياً المأمور، وقال بفظاظة:

– دع صديقي وشأنه. ما الحكاية؟ ألا تعتقد أني أستطيع احتمال هذا الضرب؟

قال الرجل الذي كان يضربه:

- يمكنك تحمله يا جوي.

ثم خاطب المأمور قائلاً:

- اسمع. هل تستطيع أن تعطيني دولاراً؟

قال المأمور:

- لا.

- اذهب إلى جهنم إذن!

والتفت إلى ريتشارد غوردون قائلاً:

- وماذا عنك يا رفيق؟

قال غوردون:

- سأشتري لك كأساً.

قال المحارب القديم:

- هيا.

وأمسك بذراع غوردون:

قال المأمور:

- سأمر بك لاحقاً.

- حسناً. سأكون في انتظارك.

وبينما كانوا يتجهون نحو نهاية البار، أمسك الرجل ذو الرأس الحمراء والوجه المغطى بالنمش والأذن والوجه الداميين بذراع غوردون وقال:

- يا رفيقي القديم.

قال المحارب القديم الآخر:

- إنه بخير. يستطيع احتمال الضرب.

قال ذو الوجه الدامي:

– أستطيع احتماله، ألا ترى ذلك؟ هذه ميزتي عليهم.

قال شخص ما:

– ولكنك لا تستطيع أن تكيل الضربات. أن توقف الهجوم.

قال ذو الوجه الدامي:

– لندخل. دعوني أدخل وصديقي القديم.

ثم همس في أذن ريتشارد غوردون:

– لست مضطراً إلى كيل الضربات. أستطيع احتمالها، أترى ذلك؟

قال المحارب القديم الآخر بعد أن وصلوا أخيراً إلى البار المبلّل بالبيرة:

– اسمع. كان عليك أن تراه عند الظهيرة قرب مخزن التموين في (المعسكر رقم خمسة). لقد أسقطته أرضاً ورحت أضربه على الرأس بزجاجة. كما يقرع المرء طبلاً. وأراهن أني ضربته خمسين مرة.

قال ذو الوجه الدامي:

– بل أكثر.

– لم أترك أي أثر عليه.

قال الآخر:

– أستطيع احتمال الضربات.

ثم همس في أذن ريتشارد غوردون:

– هذا سر.

سلّم ريتشارد غوردون كأسين من كؤوس البيرة الثلاث التي أعطاها إياه عامل البار الزنجي في الجاكيت الأبيض والذي له كرش كبيرة، بعد أن عبأها ودفعها باتجاهه.

سأله: ما السر؟

– قال ذو الوجه الدامي:

– أنا. سرّي أنا.

قال المحارب القديم الآخر:

– إن لديه سراً. هو لا يكذب.

قال ذو الوجه الدامي في أذن ريتشارد غوردون:

– هل تريد سماعه؟

أومأ غوردون برأسه.

– إنه لا يؤذي.

أومأ الآخر برأسه.

– قل له أسوأ ما في الأمر.

وضع ذو الرأس الحمراء شفتيه الداميتين بلصق أذن غوردون وقال:

– أحياناً يكون الأمر ممتعاً. ما رأيك بذلك؟

عند مرفق غوردون كان رجل نحيل طويل على وجهه ندبة تمتدّ من إحدى زاويتي عينه وحتى ذقنه. نظر من فوق إلى ذي الرأس الحمراء وابتسم وقال:

– في البداية كان ذلك فناً. ثم تحوّل إلى متعة. وإن كان هناك ما يشعرني بالغثيان فأنت تجعلني كذلك أيها الأحمر.

قال المحارب القديم الأول:

– أنت تشعر بالغثيان بسهولة. في أي كتيبة كنت؟

قال الرجل الطويل:

– لن يعني ذلك أي شيء لك أيها السكير الذي لا يفقه شيئاً.

سأل ريتشارد غوردون الرجل الطويل:

– هل لك بكأس؟

قال الآخر:

– شكراً. أنا أشرب.

قال واحد من الرجلين اللذين دخل غوردون معهما:

– لا تنسنا.

قال ريتشارد غوردون:

– ثلاث كؤوس أخرى من البيرة.

ملأها الزنجي ودفعها نحوهم. لم يكن في الزحام متسع لمرفق وقد ضغط غوردون على الرجل الطويل.

سأل الرجل الطويل:

– هل نزلت من سفينة؟

– لا. أنا نازل من المدينة. هل أنت من «الكيز»؟

قال الرجل الطويل:

– لقد جئنا الليلة من جزر «تورتوغاس». لقد أثرنا الكثير من المتاعب فلم يستطيعوا إبقاءنا هناك.

قال المحارب القديم الأول:

– إنّه أحمر.

قال الرجل الطويل:

– هكذا يجب أن تكون لو كان في رأسك عقل. لقد أرسلوا مجموعة منا إلى هناك للتخلّص منا ولكننا أثرنا الكثير من المتاعب.

وابتسم في وجه غوردون.

صرخ أحدهم:

- اضربوا ذلك الرجل!

ورأى ريتشارد غوردون قبضة تضرب وجهاً كان قريباً منه. والرجل الذي ضُرب تم جرّه بعيداً عن البار من قبل شخصين آخرين. وفي مكان فارغ نسبياً ضربه أحد الرجلين مجدداً، بقوة، في وجهه، وضربه الآخر على جسمه. سقط على الأرض الإسمنتية وغطى رأسه بذراعه فرفسه أحد الرجال في الجزء المستدق من ظهره. خلال هذه الأثناء كلها لم يصدر عن هذا الرجل أي صوت. ثم أنهضه أحد الرجال ودفعه إلى الجدار. وقال:

- اضربوا ابن القحبة!

وحين سقط الرجل مستنداً إلى الجدار ووجهه شاحب تماماً، فإن الرجل الثاني جلس أمامه وقد ثنى ركبتيه وضربه بقبضته اليمنى التي تحركت من قرب الأرض الإسمنتية ونزلت على جانب فك الرجل شاحب الوجه. سقط على ركبتيه ثم على الأرض ورأسه في بركة من الدماء. تركه الرجلان هناك وعادا إلى البار.

قال أحدهم:

- عجباً، أنت تستطيع أن تضرب.

- قال الآخر.

- ابن القحبة ذاك ينزل إلى البلدة ويضع كل راتبه في صندوق توفير البريد، ثم يتسكع وهو يتسوّل الكؤوس من البارات.

- لقد ضربته بشدة هذه المرة.

قال الآخر بسعادة:

- حين ضربته أحسست بفكه يخض ككيس من البلى.

كان الرجل ممدداً على الجدار، ولم يكن هناك من يكترث به.

قال المحارب القديم أحمر الشعر:

– اسمع، لو ضربتني هكذا لما ترك ذلك عليّ أي تأثير.

قال الضارب:

– اضرب أيها السكّير. أنت تعاني من السفلس.

– لا لا أعاني منه.

قال الضارب:

– أنتم السكيرين تمرضونني. لماذا أكسر يديّ عليكم؟

قال ذو الشعر الأحمر:

– هذا بالضبط ما سيجري، ستكسر يديك.

ثم خاطب ريتشارد غوردون قائلاً:

– اسمع يا صديق. ما رأيك بكأس أخرى؟

قال الرجل الطويل:

– أليسوا رجالاً طيبين؟ الحرب قوة مطهّرة ومشرّفة. والمسألة هي إن كان أناس شأننا نحن هنا يستحقون أن يكونوا جنوداً، أو إن كانت صفوف الجيش قد شكّلتنا.

قال ريتشارد غوردون:

– لا أعرف.

قال الرجل الطويل:

– أراهنك أنه لا يوجد في هذا المكان ثلاثة رجال وقعت عليهم قرعة الخدمة العسكرية. هؤلاء هم «النخبة». هؤلاء هم صفوة الحثالة. هؤلاء هم الذين انتصر بهم «ويلينغتون» في واترلو. حسناً السيد هوفر طردنا من «أنتي كوستي» والسيد روزفلت حملنا في السفن إلى هنا للتخلص منا. وقد أداروا المعسكر بطريقة تجعل الوباء ينتشر فيه ولكن الأنغال البؤساء

يرفضون الموت. وقد نقلوا قلة منا إلى جزر «تورتوغاس» ولكنها صحية الآن. وعلاوة على ذلك، فنحن رفضنا تحملها. لذا أعادونا. ما هي الحركة التالية؟ عليهم أن يتخلصوا منا. أنت تفهم ما أعنيه، أليس كذلك؟

– لماذا؟

قال الرجل:

– لأننا اليائسون. الذين ليس لديهم ما يخسرونه. نحن المتوحشون. نحن أسوأ من الذين عمل معهم سبارتاكوس الأصلي. ولكن من الصعب محاولة فعل أي شيء معنا، لأننا مهزومون إلى حد أن السلوان الوحيد لنا هو الشراب، والفخر الوحيد هو في قدرتنا على تحمل الضرب. ولكننا لسنا جميعاً هكذا. البعض منا مستعدون لكيل الضربات.

– هل هناك شيوعيون كثيرون في المعسكر؟

قال الرجل الطويل:

– حوالي الأربعين فقط من أصل ألفين. على المرء أن يحترم النظام ويمارس نكران الذات حتى يكون شيوعياً. لا يمكن لسكير أن يكون شيوعياً.

قال المحارب القديم أحمر الشعر:

– لا تصغ إليه. إنه متطرف لعين لا غير.

عند نهاية البار كان محارب قديم يجادل فريدي حول دفع ثمن المشروب. قال فريدي:

– هذا ما شربته.

راقب ريتشارد غوردون وجه المحارب القديم. كان ثملاً جداً، وعيناه حمراوان كالدم وكان ينشد الشجار. قال لفريدي:

– أنت كاذب لعين.

قال له فريدي:

– خمسة وثمانون سنتاً.

قال المحارب القديم أحمر الشعر:

– راقب ذلك.

قال المضروب بصوت ثقيل:

– فكّي مكسور:

كان الدم ينزف من فمه إلى ذقنه.

قال الشاب قوي البنية:

– من حظك أنك لم تُقتل من كل تلك اللكمات. هيا أسرع الآن.

قال الآخر بكسل:

– فكي مكسور. لقد كسروا فكي.

قال الشاب:

– الأفضل لك أن تخرج من هنا. ستقع في المتاعب هنا.

ساعد الرجل ذا الفك المكسور على النهوض على قدميه وترنّح هذا خارجاً إلى الشارع.

قال المحارب القديم أحمر الشعر:

– لقد رأيت دزينة من الرجال متمددين على الجدار هنا في إحدى الليالي الحافلات. وفي صباح أحد الأيام رأيت ذلك الزنجي الضخم هناك يزيل الدم بدلو. ألم أرك تزيله بدلو؟

هكذا سأل الزنجي عامل البار.

قال عامل البار:

– أجل يا سيدي. مرات كثيرة. أجل يا سيدي. ولكنك لم ترني ألاكم أي شخص.

قال المحارب القديم أحمر الشعر:

– أو لم أخبرك؟ بدلو.

قال المحارب القديم الآخر:

– يبدو أن هذه الليلة ستكون ليلة أخرى حافلة.

ثم التفت إلى ريتشارد غوردون:

– ما رأيك يا صديق؟ حسناً، هل ستكون هذه ليلة حافلة أخرى؟

استطاع ريتشارد غوردون أن يشعر أنه على وشك السكر. بدأ وجهه المنعكس في المرآة التي خلف البار يبدو غريباً بالنسبة إليه.

سأل الشيوعي الطويل:

– ما اسمك؟

أجاب الرجل الطويل:

– جاكس. نلسون جاكس.

– أين كنت قبل أن تأتي إلى هنا؟

– قال الرجل:

– أوه، هنا وهناك. المكسيك، كوبا، أمريكا الجنوبية وأماكن أخرى.

قال ريتشارد غوردون:

– أحسدك.

– لَمَ تحسدني؟ لماذا تستمر بالعمل؟

– لقد ألّفت ثلاثة كتب. وأؤلف الآن كتاباً حول «غستونيا».

قال الرجل الطويل:

– حسناً. هذا جميل. ما هو اسمك؟

– ريتشارد غوردون.

- أوه.

- ما الذي تعنيه بالأوه وهذه؟

قال الرجل الطويل: لا شيء.

قال ريتشارد غوردون: هل سبق لك وقرأت كتبي؟

- أجل.

- هل أحببتها؟

قال الرجل الطويل: لا.

- لماذا؟

- لا أحب أن أقول السبب.

- هيا.

- أعتقد أنها خـ...

هذا ما قاله الرجل الطويل والتفت بعيداً.

قال ريتشارد غوردون متهكماً:

- أعتقد أنّ هذه ليلة سعدي. ما الذي قلت إنك تريد أن تشربه؟

هكذا سأل المحارب القديم ذا الشعر الأحمر. ثم استأنف قائلاً:

- تبقى معي دولاران.

- قال الرجل أحمر الشعر:

- كأس بيرة واحدة. اسمع، أنت صديقي. اعتقد أن كتبك جميلة. إلى الجحيم بذلك النغل المتطرف.

سأله المحارب القديم الآخر:

- أليس معك كتاب؟ يا صديق؟ أودّ أن أقرأ كتاباً. هل سبق لك وكتبت «قصص الوسترن»؟ أو «طيارو الحرب البارعون»؟ أستطيع قراءة «طيارو الحرب البارعون» كل يوم.

سأل ريتشارد غوردون:

- من ذاك الشخص الطويل؟

قال المحارب القديم الثاني:

- أقول لك. إنه مجرد نغل متطرف. المعسكر مليء بهم. لقد طردناهم. ولكني أقول لك إنّ معظم الأشخاص في المعسكر لا يستطيعون أن يتذكروا أغلب الوقت.

سأل ذو الشعر الأحمر:

- يتذكرون ماذا؟

قال الآخر:

- أيّ شيء.

سأل ذو الشعر الأحمر:

- أتراني؟

قال ريتشارد غوردون:

- أجل.

- هل يمكنك أن تخمّن أنَّ لديّ أجمل زوجة صغيرة في العالم؟

- ولم لا؟

قال ذو الشعر الأحمر:

- حسناً، لديّ زوجة كتلك. وهذه الفتاة مجنونة بي. إنها أشبه بالجواري. أقول لها: «اعطيني فنجان قهوة آخر» فتقول: «أوكي بوب». ثم تجلبه لي. وأي شيء آخر بالطريقة نفسها. إنها مجنونة بي. وإذا كانت لديّ نزوة تصبح قانوناً لها.

سأله المحارب القديم الآخر:

- ولكن أين هي؟

قال ذو الشعر الأحمر:

- هذا هو الأمر. هذا هو يا صديقي. أين هي؟

قال المحارب القديم الآخر:

- إنه لا يعرف أين هي.

قال ذو الشعر الأحمر:

- ليس ذاك فحسب. لا أعرف أين رأيتها آخر مرة.

- إنه لا يعرف في أي بلد هي.

قال ذو الشعر الأحمر:

- ولكن اسمع يا صديق! أنّى تكن تلك الفتاة الصغيرة فهي مخلصة.

قال المحارب القديم الآخر:

- هذه حقيقة إلهية. يمكنك أن تراهن بحياتك على ذلك.

قال ذو الشعر الأحمر:

- أحياناً أعتقد أنها ربما «جنجر روجرز» وأنها دخلت عا لم السينما.

قال الآخر:

و لم لا؟

- ثم أراها مرة أخرى تنتظرني بهدوء حيث أسكن.

قال الآخر:

- تبقي نار الموقد مشتعلة في المنزل.

قال ذو الشعر الأحمر:

- هذا هو الأمر. إنها أجمل امرأة صغيرة في العا لم.

قال الآخر:

- اسمع. زوجتي أنا على ما يرام أيضاً.

- هذا صحيح.

قال المحارب القديم الثاني:

- إنها ميتة. دعونا من التحدث عنها.

سأل المحارب القديم ذو الشعر الأحمر ريتشارد غوردون:

- ألست متزوجاً أيها الصديق؟

قال: طبعاً.

على امتداد البار، وعلى مبعدة أربعة رجال، كان قادراً على رؤية الوجه الأحمر والعينين الزرقاوين والشارب الرملي اللون المرطب بالبيرة للبروفسور ماك وولزي ينظر نحو الأمام مباشرة. وبينما راح ريتشارد غوردون يراقبه أنهى هذا كأس البيرة، رفع شفته السفلى ومسح بها الرغوة عن شاربه. لاحظ ريتشارد غوردون كم كانت زرقة عينيه لامعة.

وبينما كان ريتشارد غوردون يراقبه أحس بشعور مغثٍ في صدره. وقد عرف لأول مرة كيف يكون شعور الرجل الذي ينظر إلى الشخص الذي تهجره زوجته من أجله .

سأل المحارب القديم أحمر الشعر:

- ما الحكاية يا صديقي؟

- لا شيء.

- أنت لست على ما يرام. أستطيع أن أرى أنك لست على ما يرام.

قال ريتشارد غوردون:

- لا.

- تبدو كمن رأى شبحاً.

سأل ريتشارد غوردون:

- أترى ذلك الشخص هناك ذا الشارب؟

– ذاك؟

– أجل.

سأل المحارب القديم الثاني:

– ما حكايته؟

قال ريتشارد غوردون:

– لا شيء. اللعنة. لا شيء.

– هل يزعجك؟ نستطيع أن نضربه. يمكن لثلاثتنا أن نهاجمه ويمكنك أن ترفسه.

قال ريتشارد غوردون:

– لا. لن يجدي ذلك.

قال المحارب القديم ذو الشعر الأحمر:

– حسناً، سننال منه وهو خارج. لا يعجبني شكله. ابن القحبة ذاك يبدو لي كوغد.

قال غوردون:

– أنا أكرهه. لقد خرّب حياتي.

قال المحارب القديم الثاني:

– سنضربه ضرباً مبرحاً. يا للجرذ الأصفر. اسمع يا أحمر! أمسك بزجاجتين سنضربه حتى الموت. اسمع، متى فعل ما فعله يا صديق؟ حسناً، سنشرب كأساً أخرى.

قال ريتشارد غوردون:

– لدينا دولار وسبعون سنتاً.

قال المحارب القديم أحمر الشعر:

- الأجدر بنا أن نشرب زجاجة ويسكي صغيرة إذن. لقد شربت أكثر ممّا يجب من البيرة.

قال الآخر:

- لا. هذه البيرة جيدة لك، هذه بيرة براميل. واظب على شرب البيرة! فلنذهب ونضرب ذلك الشخص ونعود لنشرب المزيد من البيرة.

- لا، دعوه وشأنه!

- لا يا صديق. ليس نحن. قلت إنَّ ذلك الجرذ خرب لك زوجتك.

- حياتي. ليست زوجتي.

- يا للمسيح! عفواً. أنا آسف يا صديق.

قال المحارب القديم الآخر:

- لقد تخلف عن دفع ديونه وخرّب المصرف. وأراهن أن هناك مكافأة لمن يقبض عليه. يا إلهي، لقد رأيت صورته في مكتب البريد اليوم.

سأل المحارب الآخر مرتاباً:

- ما الذي كنت تفعله في مكتب البريد اليوم؟

- ألا يمكن أن أتلقى رسالة؟

- ما العيب في تلقي الرسائل في المعسكر؟

- هل تظنّ أني ذهبت إلى دائرة توفير البريد؟

- ما الذي كنت تفعله في مكتب البريد؟

- لقد مررت به فحسب.

قال صديقه:

- خذ هذه.

ثم لكمه بأقوى ما يستطيع ضمن الزحام.

قال شخص ما:

– ها هما رفيقا الزنزانة.

بينما راحا يتماسكان ويتلاكمان، يتضاربان بالركب ويتناطحان، فقد دفعا إلى الخارج.

قال الشاب عريض المنكبين:

– فليتشاجرا على الرصيف. هذان النغلان يتصارعان ثلاث أو أربع مرات في الليلة الواحدة.

قال محارب قديم آخر:

– إنهما زوج من السكيرين. أحمر الشعر مستعد للمشاجرة منذ أن أصيب بالأولد ريل (السفلس).

– كلاهما مصابان به.

قال محارب قديم قصير مكتنز الجسم:

– لقد أصيب به أحمر الشعر خلال ملاكمته لشخص على الحلبة. كان ذلك الشخص مصاباً بالأولد ريل وكان جسمه كله مغطى في منطقة الكتفين والظهر بالبثور. وكلما كانا يتماسكان كان يفرك كتفه تحت أنف أحمر الشعر أو على وجهه.

– كلام فارغ. ما السبب في أنه كان يضع وجهه هناك؟

– كانت تلك هي الطريقة التي يحرّك بها أحمر الشعر رأسه لدى التماسك. ينزله إلى أسفل هكذا. وكان ذلك الشخص عنيفاً معه.

– كلام فارغ. هذه الحكاية كذب في كذب. لا يمكن لشخص أن يصاب بالأولد ريل من شخص آخر خلال الملاكمة.

– هذا ما تظنّه أنت. اسمع. كان أحمر الشعر شاباً يعيش حياة نظيفة كأي شاب آخر. لقد عرفته منذ زمان. كان في كتيبتي. كان ملاكماً جيداً

ضئيل الحجم أيضاً. أعني جيداً بالفعل. كان متزوجاً أيضاً من فتاة جميلة. أعني جميلة فعلاً. وقد أعطته « بني سمبسون » ذلك المرض القديم، وأنا واثق من ذلك ثقتي بوقوفي هنا الآن.

قال محارب قديم آخر:

– اجلس إذن! كيف أصيب «بوتشي» به إذن؟

– لقد أصيب به في شانغهاي.

– ومن أين أصبت به أنت؟

– لست مصاباً به.

– ومن أين أصيب «سدز» به؟

– من فتاة في « برست » وهو عائد إلى الوطن.

– هذا كل ما لديكم لتتحدثوا عنه، أيها الشباب. أولد ريل. وما قيمة المرض القديم.

– لا قيمة له في حالتنا هذه. أنت سعيد به أيضاً.

– « بوتش» أكثر سعادة. إنه لا يعرف أين هو.

سأل البروفسور ماك وولزي الرجل القريب منه على البار:

– ما هو الأولد ريل؟

فشرح له هذا.

قال البروفسور ماك وولزي:

– أتساءل عن اشتقاق هذه العبارة.

قال الرجل:

– لا أعرف. لقد سمعته يدعى دائماً بهذا الاسم منذ أول مرة تجنّدت فيها. البعض يدعونه «ريل» فقط. ولكنهم يدعونه عادة بـ «الأولد ريل».

قال البروفسور ماك وولزي:

– أود أن أعرف. هذه العبارات تعود في معظمها إلى اللغة الانكليزية القديمة.

سأل المحارب القديم المجاور للبروفسور ماك وولزي محارباً آخر:

– ولماذا يدعونه بالأولد ريل؟

– لا أعرف.

لم يبد أن هناك من يعرف، ولكن الجميع تمتعوا بجوّ النقاش في فقه اللغة الجاد.

كان ريتشارد غوردون قد أضحى مجاوراً للبروفسور ماك وولزي على البار الآن. فحين بدأ ذو الشعر الأحمر وبوتشي الشجار دّفع هذا إلى ذلك المكان و لم يقاوم هو ذلك التحرك.

قال له البروفسور ماك وولزي:

– مرحباً. هل تريد كأساً؟

قال ريتشارد غوردون:

– ليس معك.

قال البروفسور ماك وولزي:

– أعتقد أنك على حق. هل سبق لك ورأيت شيئاً كهذا؟

قال ريتشارد غوردون:

– لا.

قال البروفسور ماك وولزي:

– هذا غريب جداً. إنهم مدهشون. أنا أحضر إلى هنا في الليل دائماً.

– ألا تتورط في المشاكل أبداً؟

– لا. ولِمَ؟

– مشاجرات السكارى.

– لم يبد أني تورطت في أي مشكلة.

– لقد أراد صديقان لي أن يضرباك قبل دقيقتين.

– أجل.

– أتمنى لو أني سمحت لهما.

قال البروفسور ماك وولزي بأسلوبه الغريب:

– لا أعتقد أن ذاك كان سيشكل أي فرق. إن كنت أضايقك بكوني هنا، أستطيع الذهاب.

قال ريتشارد غوردون:

– لا. أحبّ نوعاً ما أن أكون إلى القرب منك.

قال البروفسور ماك وولزي:

– أجل

سأل ريتشارد غوردون:

– هل سبق لك وتزوجت؟

– أجل.

– وما الذي حدث؟

– ماتت زوجتي خلال وباء الأنفلونزا عام (١٩١٨).

– ولماذا تريد الزواج مرة أخرى الآن؟

– أعتقد أني سأكون أفضل استعداداً له الآن. أعتقد أني سأكون زوجاً أفضل الآن.

– ولذا اخترت زوجتي؟

قال البروفسور ماك وولزي:

– نعم.

قال ريتشارد غوردون: اللعنة عليك.

ثم لكمه على وجهه. أمسك أحدهم بذراعه. حررها بقوة فضربه أحدهم بقوة خلف أذنه. استطاع أن يرى البروفسور ماك وولزي، أمامه، لا يزال عند البار. وجهه احمر وعيناه ترمشان. كان يمدّ يده ليتناول كأس بيرة أخرى غير التي أراقها غوردون، وأرجع ريتشارد غوردون ذراعه ليضربه مرة أخرى. وحين فعل ذلك انفجر شيء ما مجدداً خلف أذنه فتوهجت الأنوار ودارت ثم انطفأت.

ثم كان يقف في مدخل فريدي. كانت رأسه ترنّ، والحانة المزدحمة غير ثابتة وتدور قليلاً، وأحس بالغثيان في معدته. استطاع أن يرى الجمهرة تنظر إليه. كان الشاب عريض المنكبين يقف إلى القرب منه. كان يقول:

– اسمع. لا حاجة إلى أن تثير أي شجار. لدينا هنا ما يكفينا من شجار مع وجود هؤلاء السكيرين.

سأل ريتشارد غوردون:

– من ضربني؟

قال الشاب عريض المنكبين:

– أنا الذي ضربك. ذاك الشخص زبون مداوم هنا. لا حاجة إلى أي شجار.

وبينما وقف ريتشارد غوردون مترنحاً، رأى البروفسور ماك وولزي يتجه نحوه مبتعداً عن الحشد عند البار. قال:

– آسف. لم أرد أن يضربك أحد. لا ألومك أنك تشعر بما تشعر به الآن.

قال ريتشارد غوردون:

– لعنة الله عليك.

وانقضّ عليه. وكان ذلك آخر شيء يتذكّره، فالشاب عريض المنكبين اتخذ وضعية الملاكم، وأنزل كتفيه قليلاً، وضربه مجدداً، فسقط على الأرض هذه المرة، على الأرض الإسمنتية وعلى وجهه. قال بلهجة المضياف:

– هذا مناسب يا دكتور. لن يزعجك الآن. ما حكايته على أية حال؟

قال البروفسور ماك وولزي:

– عليّ أن آخذه إلى البيت. هل سيكون على ما يرام؟

– طبعاً.

قال البروفسور ماك وولزي:

– ساعدني على إدخاله إلى تاكسي.

وحملا ريتشارد غوردون إلى الخارج بينهما، وساعدهما السائق، ووضعاه في سيارة التاكسي العتيقة من طراز «فورد تي».

سأل البروفسور ماك وولزي:

– هل أنت واثق من أنه سيكون على ما يرام؟

– شدّ أذنيه جيداً حين تريد إيقاظه. صبّ بعض الماء عليه. وانتبه لئلا يكون راغباً في الشجار حين يصحو. لا تدعه يمسك بك يا دكتور!

قال البروفسور ماك وولزي:

– لا.

كانت رأس ريتشارد غوردون مرمية إلى الخلف بزاوية شاذة في المقعد الخلفي للتاكسي، وكان يصدر صوتاً رأسياً خشناً لدى تنفسه. وضع البروفسور ماك وولزي ذراعه تحت رأسه وثبّتها حتى لا تصطدم بالمقعد.

سأل سائق التاكسي:

- إلى أين؟

- قال البروفسور ماك وولزي:

- إلى الطرف الآخر للبلدة عبر المنتزه. ثم إلى الشارع من المكان الذي يبيعون فيه سمك البوري.

قال السائق:

- ذاك هو «روكي رود».

قال البروفسور ماك وولزي:

- أجل.

وحين مروا بالمقهى في آخر الشارع طلب البروفسور ماك وولزي من السائق أن يتوقف. لقد أراد أن يشتري بعض لفافات التبغ. وضع رأس ريتشارد غوردون بعناية على المقعد ودخل إلى المقهى. حين خرج ليعود إلى التاكسي كان ريتشارد غوردون قد اختفى.

سأل البروفسور السائق:

- أين ذهب؟

قال السائق:

- ها هو في نهاية الشارع.

- الحق به.

حين توقف التاكسي خرج منها البروفسور ماك وولزي ولحق بريتشارد غوردون الذي كان يتمايل على الرصيف. قال:

- هيا يا غوردون. نحن ذاهبان إلى البيت.

نظر إليه ريتشارد غوردون. قال وهو يترنح: نحن؟

- أريدك أن تذهب إلى البيت في هذا التاكسي.

– اذهب إلى الجحيم أنت.

قال البروفسور ماك وولزي:

– أريدك أن تأتي. أريدك أن تصل إلى البيت سالماً.

قال ريتشارد غوردون:

– أين عصابتك؟

– أي عصابة؟

– عصابتك التي ضربتني.

– كان ذلك هو مستخدم البار الذي يقوم بإخراج الزبائن بالقوة. لم أكن أعرف أنه سيضربك.

قال ريتشارد غوردون:

– أنت تكذب.

وجّه لكلمة إلى الرجل ذي الوجه الأحمر الواقف أمامه فأخطأه. انزلق على ركبتيه ثم نهض ببطء. كانت ركبتاه قد سلختا من الرصيف ولكنه لم يعرف ذلك.

قال منهمكاً:

– تعال لنتلاكم.

قال البروفسور ماك وولزي:

– أنا لا ألاكم. إذا دخلت التكسي سأتركك.

قال ريتشارد غوردون:

– اذهب إلى الجحيم!

وانطلق يمشي على امتداد الشارع.

قال سائق التاكسي:

– دعه يذهب. إنه على ما يرام الآن.

– أتعتقد ذلك؟

قال سائق التاكسي:

– يا للجحيم. إنه في أفضل مظهر.

قال البروفسور ماك وولزي:

– أشعر بالقلق عليه.

قال سائق التاكسي:

– لا يمكنك إدخاله إلى السيارة دون ملاكمته. دعه يذهب. إنه في حال جيدة. هل هو أخوك؟

قال البروفسور ماك وولزي:

– نوعاً ما.

راح يراقب ريتشارد غوردون وهو يترنح على امتداد الشارع حتى اختفى في الظل الذي كانت ترميه الأشجار الكبيرة التي كانت أغصانها تتدلى حتى الأرض وتنغرس فيها كالجذور. ما الذي يفكر فيه وهو يراقبه لم يكن أمراً يدعو إلى السرور. إنه الإثم، كان يفكر، إثم خطير ومميت وقسوة هائلة، وبينما يسمح الدين شكلياً بالنتيجة النهائية، فأنا لا أستطيع أن أسامح نفسي. ومن ناحية أخرى فإن الجرّاح لا يمكن أن يتراجع خلال القيام بعملية جراحية خشية إيلام المريض. ولكن لماذا يتوجب إجراء كل العمليات الجراحية في ميدان الحياة دون مخدّر؟ لو كنت رجلاً أفضل لسمحت له أن يضربني. كان من شان ذلك أن يجعله يشعر شعوراً أفضل. يا للرجل الغبي المسكين. يا للرجل المشرد المسكين. كان عليّ أن أبقى معه، ولكني أعرف أن هذا فوق احتماله. أنا خجلان من نفسي ومشمئز منها وأكره ما فعلته. وقد تنتهي الأمور كلها إلى نهاية سيئة أيضاً. ولكن علي ألا أفكر في ذلك. سأعود الآن إلى المخدّر الذي استخدمته لسبعة عشر عاماً

ولن أعود في حاجة إليه الآن. ورغم أنها الآن مجرد خطيئة عليّ أن أخلق لها أعذاراً. ولكنها على أية حال وعلى الأقل خطيئة تناسبني. ولكني أتمنى لو أستطيع مساعدة ذلك الرجل المسكين الذي أسيء إليه. قال:

- عد بي إلى بار فريدي.

* * *

الفصل الخامس عشر

كان مركب خفر السواحل الذي يقطر «كوين كونتش» يهبط «قناة الصقر» بين الجرف الصخري والجزر المنخفضة. كان المركب يسير عبر الأمواج الصغيرة المعارضة التي كانت تثيرها الريح الشمالية الخفيفة المعاكسة لاتجاه المد، ولكن الزورق الأبيض كان يُقطر جيداً وبسهولة.

قال قبطان خفر السواحل:

– سيكون الزورق على ما يرام إذا لم تهزه الريح. إنه يُقطر بشكل جيد. إن «روبي» ذاك يصنع قوارب جيدة. هل فهمت شيئاً من ذلك الكلام السخيف الذي كان ينطق به؟

قال المساعد:

– لم أفهم منه شيئاً. لقد فقد عقله.

قال القبطان:

– أعتقد أنه سيموت على كل حال وقد أصيب في بطنه تلك الإصابة. هل تعتقد أنه قتل الكوبيين الأربعة؟

– لا يمكنك أن تعرف. لقد سألته ولكنه لم يفهم ما كنت أقوله.

– هل نذهب ونتحدث إليه مجدداً؟

قال المساعد:

– لنذهب ونلق نظرة عليه.

ترك الرئيس البحري عند عجلة القيادة، وتقيد بالاتجاه المحدد من قبل المنارة، ثم التفّا من خلف كابينة القبطان. كان هاري مورغان ممدداً هناك على السرير الحديدي المؤلف من قضبان. كانت عيناه مغمضتين ولكنه فتحهما عندما لمس القبطان كتفه العريضة.

سأله القبطان:

– كيف تشعر يا هاري؟

رفع هاري نظره إليه و لم يتكلم.

سأله القبطان:

– هل نحضر لك أي شيء أيها الرجل؟

نظر هاري مورغان إليه.

قال المساعد:

– لا يسمعك.

قال القبطان:

– يا هاري. هل تريد أي شيء؟

بلّل منشفة من زجاجة الماء الموجودة على الفتحة التي قرب السرير ورطّب شفتي هاري مورغان المشققتين عميقاً. كانتا تبدوان جافتين وسوداوين. نظر هاري مورغان إليه وبدأ يتكلم. قال:

– الرجل.

قال القبطان:

– طبعاً. هيا.

قال هاري مورغان ببطء شديد:

– الرجل ليس لديه لم يكن لديه لا يمكنه بالفعل أن يجد طريقاً للخلاص.

توقف عن الكلام. لم يكن هناك أي تعبير على وجهه وهو يتكلم.

قال القبطان:

– تابع يا هاري. قل لنا من فعل هذا. كيف حدث يا رجل؟

قال هاري وهو ينظر إليه الآن بعينيه الضيقتين اللتين تقبعان في وجهه العريض ناتئ الوجنتين، محاولاً أن يفهمه الآن:

– الرجل.

قال القبطان محاولاً مساعدته:

– أربعة رجال.

رطّب له شفتيه مرة أخرى، وعصر المنشفة حتى دخلت بعض قطرات بينهما.

صحّح له هاري:

– الرجل.

ثم توقف عن الكلام.

قال القبطان:

– حسناً. الرجل.

قال هاري بفتور شديد وبطء شديد، متكلماً بفمه الجاف:

– الرجل. الآن والأمور على ما هي عليه فإنها ستستمر مهما يكن هناك من عائق.

نظر القبطان إلى المساعد وهزّ رأسه.

سأله المساعد:

– من فعلها يا هاري؟

نظر هاري إليه.

قال: لا تخدع نفسك.

مال القبطان والمساعد عليه. كان يتكلم الآن:

- كمن يحاول تمرير سيارات على قمم الجبال. في تلك الطريق في كوبا. في أي طريق. أي مكان. مثل ذلك تماماً. أعني كيف هي الأمور. كيف كانت تجري. لفترة أجل وبالتأكيد. ربما بالحظ. الرجل.

توقف عن الكلام. هزّ القبطان رأسه نحو المساعد مرة أخرى. نظر هاري مورغان إليه بفتور. رطّب القبطان شفتي هاري مجدداً. وقد تركت شفتاه أثراً دامياً على المنشفة.

قال هاري مورغان وهو ينظر إليهما معاً:

- الرجل. رجل واحد لوحده ليس لديه. لا رجل وحده الآن.

توقف عن الكلام.

- مهما يكن من أمر فالرجل الوحيد ليست لديه أي فرصة لعينة.

أغمض عينيه. لقد تطلب من التعبير عن ذلك فترة طويلة، وكلّفه تعلم ذلك حياته.

تمدّد هناك وعيناه مفتوحتان مرة أخرى.

قال القبطان للمساعد:

- هيّا. أأنت واثق أنك لا تريد شيئاً يا هاري؟

نظر إليه هاري مورغان ولكنه لم يجب.. لقد قال لهما ما يريد لقد قال لهما ما يريد ولكنهما لم يسمعا.

قال القبطان:

- سنعود. هوّن عليك يا رجل.

* * *

راح هاري مورغان يراقبهما حتى خرجا من الكابين.

إلى الأمام في حجرة القيادة، قال المساعد وهو يراقب الزورق وهو يعتم ونور «سومبريرو» قد بدأ يجتاح البحر:

– إنه يثير الرعب فيّ وقد فقد السيطرة على نفسه على هذا النحو.

قال القبطان:

– يا للمسكين. حسناً، سنصل قريباً الآن. سندخله بعد منتصف الليل.

– هذا إذا لم نبطئ بسبب القطر.

– أتعتقد أنه سيعيش؟

قال القبطان:

لا. ولكن لا يمكنك أن تعرف أبداً.

* * *

الفصل السادس عشر

كان أناس كثيرون في الشارع المعتم خارج البوابات الحديدية التي تغلق مدخل قاعة الغواصات القديمة والتي تحولت الآن إلى حوض لليخوت. كان الحارس الكوبي قد تلقى أوامر بعدم السماح لأي شخص بالدخول، وكان الحشد يضغط على الحاجز للنظر من بين القضبان الحديدية إلى المكان المسيّج المعتم المنار، على امتداد الماء، بأنوار اليخوت المتوقفة عند أماكن الرسو. كان الحشد هادئاً كما لا يمكن إلاّ لحشد من «كي وست» أن يكون. كان رجال اليخوت يتدافعون ويتناكبون وهم يشقون طريقهم إلى البوابة وقرب الحارس.

قال الحارس:

– هاي. لا يمكنكم الدخول.

– ما الحكاية بحق الجحيم. نحن من ركاب أحد اليخوت.

قال الحارس:

– ليس من المفترض أن يدخل أحد. عودوا.

قال أحد رجال اليخت:

– لا تكن غبياً.

ودفعه جانباً ليسير على الطريق المؤدي إلى الرصيف.

خلفهم كان الحشد خارج البوابات، حيث وقف الحارس ضئيل الحجم غير شاعر بالراحة وقلقاً وذلك في قبعته وشاربيه الطويلين، وسلطته التي

تنقصها الثقة، متمنياً لو كان لديه مفتاح ليقفل به البوابة الكبيرة، وبينما راحوا يقطعون الدرب المنحدرة بحماسة رأوا أمامهم مجموعة من الرجال تنتظر عند رصيف خفر السواحل ثم مروا بها. لم ينتبهوا لهم بل ساروا على امتداد الرصيف عبر الأعمدة حيث كانت اليخوت الأخرى عند الرصيف رقم خمسة، ثم إلى حيث وصل المعبر الخشبي تحت وهج النور الكشاف. من العمود الخشبي إلى الرصيف المصنوع من خشب الساج الخاص باليخت المسمى «نيو اكزوما٢». في القمرة الرئيسية كانا يجلسان في كراس جلدية كبيرة قرب منضدة طويلة نثرت عليها مجلات، وقرع أحدهما الجرس للوصيف:

قال:

- ويسكي سكوتش مع صودا. وأنت يا هنري؟

قال هنري كاربنتر:

- أجل.

- ما حكاية ذلك الجحش الأحمق عند البوابة؟ قال هنري كاربنتر:

- لا أعرف.

جلب الوصيف، في سترته البيضاء، الكأسين:

قال صاحب اليخت الذي كان اسمه «والاس جونستون»:

- ضع على الحاكي تلك الأسطوانات التي أخرجتها بعد الغذاء.

قال الوصيف:

- أعتقد أني أعدتها إلى مكانها يا سيدي.

قال والاس جونستون:

- اللعنة عليك. ضع ألبوم باخ الجديد إذن!

قال الوصيف:

- حاضر يا سيدي.

ذهب إلى خزانة الأسطوانات وأخرج أسطوانة ووضعها على الغرامافون. بدأ بمعزوفة «سارا باند».

سأل هنري كاربنتر:

- هل رأيت توم برادلي اليوم؟ لقد رأيته عندما وصلت الطائرة.

قال والاس:

- لا أستطيع احتماله. لا هو ولا زوجته المومس تلك.

قال هنري كاربنتر:

- أنا أحب هيلين. إنها جيدة.

- هل سبق لك وجربتها؟

- طبعاً. إنها رائعة.

قال والاس جونستون:

- لا أستطيع لمسها بأي ثمن. لِمَ تعيش هي هنا بحق الله؟

- لديهم منزل جميل.

قال والاس جونستون:

- إنه حوض يخوت صغير لطيف ونظيف.

- أصحيح أن تومي برادلي عنّين؟

- لا أظن ذلك. المرء يسمع ذلك عن كل شخص. إنه ببساطة واسع الأفق.

- سعة الأفق شيء ممتاز. إنها بالفعل واسعة وواسعة جداً.

قال هنري كاربنتر:

- إنها امرأة لطيفة إلى حد كبير. ستحبها يا وولي لو عرفتها.

قال والاس:

– لن أحبها. إنها تمثل كل ما أكرهه في النساء، وتومي برادلي يلخص كل ما أكرهه في الرجال.

– شعورك حاد جداً الليلة.

قال والاس جونستون:

– أنت لا تشعر بهذا الشعور الحاد، لأنك لا تتمتع بالثبات. لا تستطيع أن تعزم على أمر ما. أنت لا تعرف حتى نفسك.

قال هنري كاربنتر:

– دعنا لا نتحدث عني.

وأشعل لفافة.

– ولماذا؟

– حسناً، هناك سبب واحد على الأقل وهو أني أسافر معك على يختك اللعين، وأنا أفعل عنك ما تريد فعله نصف الوقت على الأقل، وهذا يبقيك بعيداً عن دفع أموال الابتزاز وأمور أخرى إلى الأشخاص الذين يعرفون فعلاً من هم ومن أنت.

قال والاس جونستون:

– أنت في مزاج جيد. ولكنك تعرف أني لا أدفع أموال ابتزاز أبداً.

– لا. أنت أبخل من أن تفعل ذلك. ولديك أصدقاء مثلي بدلاً عن ذلك.

– ليس لدي أي أصدقاء آخرين مثلك.

– لا أريد مجاملات. لا أستطيع احتمالها الليلة. هيا ضع «باخ» على الحاكي واشتم وصيفك وزد قليلاً من تناولك الشراب، واذهب ونم!

قال الآخر وهو ينهض واقفاً:

- ما حكايتك؟ لماذا أصبحت مزعجاً إلى هذا الحد اللعين؟ لست أنت رائعاً إلى ذلك الحد كما تعرف.

قال هنري:

- أعرف ذلك. سأكون مرحاً جداً في الغد. ولكن هذه الليلة سيئة. ألم تلاحظ أي فرق بين ليلة وأخرى؟ أعتقد أنه عندما يكون المرء غنياً بما فيه الكفاية لا يعود يرى أي فرق.

- أنت تتكلم كتلميذات المدارس.

قال هنري كاربنتر:

- ليلتك سعيدة. لست تلميذة ولا تلميذاً. أنا ذاهب لأنام. وكل شيء سيكون رائعاً في الصباح.

- ما الذي خسرته؟ أهذا ما يجعلك كئيباً إلى هذا الحد؟

- لقد خسرت ثلاثمئة.

- أرأيت؟ لقد قلت لك إن هذا هو السبب.

- أنت تعرف دائماً، أليس كذلك؟

- ولكن انتبه. أنت خسرت ثلاثمئة.

- لقد خسرت أكثر من ذلك.

- كم أكثر؟

قال هنري كاربنتر:

- السعادة. السعادة الأبدية. أنا ألعب الآن على آلة لم تعد تعطي جوائز كبرى. الليلة فحسب فكرت في ذلك للمرة الأولى. في العادة لا أفكر فيها. والآن سأذهب لأنام حتى لا أضجرك.

- أنت لا تضجرني. ولكن حاول فحسب ألاّ تكون فظاً.

- أعتقد أني فظ وأنك تضجرني. ليلتك سعيدة. سيكون كل شيء على

ما يرام غداً.

– أنت فظ لعين.

قال هنري:

– خذها أو دعها. طوال حياتي وأنا أمارس الأمرين معاً.

قال والاس جونستون بلهجة مفعمة بالأمل:

– ليلتك سعيدة.

– لم يجب هنري كاربنتر. كان يصغي إلى موسيقى باخ.

قال والاس جونستون:

– لا تذهب إلى الفراش هكذا. لم أنت مزاجيّ إلى هذا الحد؟

– دعك من هذا.

– لمَ؟ لقد رأيتك تخرج من مثل هذه الحالة من قبل.

– لا أريد أن أحتسي الشراب ولن ينعشني هذا.

– حسناً. اذهب إلى الفراش إذن!

قال هنري كاربنتر:

– وهو كذلك.

هكذا كانت الحال في تلك الليلة على اليخت المسمى «نيو اكزوما٢» بطاقمه المؤلف من اثني عشر شخصاً والقبطان نيلز لارسون، وعلى ظهره والاس جونستون المالك، في الثامنة والثلاثين من العمر، ماجستير فنون من جامعة هارفارد، مؤلف موسيقي، ثروته متأتية من معامل الحرير، عازب، ممنوع عليه الإقامة في باريس، ذو شهرة تمتد من الجزائر إلى بيسكرا، وضيف واحد هو هنري كاربنتر، ٣٦ سنة، ماجستير فنون من جامعة هارفارد، يتعيش بمبلغ قدره مائتا دولار في الشهر من ائتمان تركته له أمه، وكان سابقاً أربعمئة وخمسين دولاراً حتى استبدل المصرف

الذي يدير الائتمان بالسندات المالية الجيدة سندات أخرى جيدة أيضاً، ثم سندات غير جيدة إلى ذلك الحد وأخيراً حصّة في مبنى مكاتب كانت تحت تصرف المصرف ولكنها لا تلزم المصرف ولا يستفيد منها بشيء إطلاقاً، وقبل هذا الانخفاض في الدخل بفترة طويلة كان يقال عن هنري كاربنتر إنه لو سقط من ارتفاع ٥٥٠٠ قدم دون مظلّة، فسوف يهبط دون أذى وركبتاه تحت مائدة رجل موسر. ولكنه كان يعوض عن الكرم المبذول له بالرفقة الطيبة، وبينما كان لا يعبّر عن نفسه إلاّ نادراً ومؤخراً كما حصل هذه الليلة، فقد شعر أصدقاؤه منذ بعض الوقت أنه كان يبدي بعض مظاهر العنف. ولم يتم الإحساس بأنه كان يعاني من الضعف، وله تلك الغريزة بالشعور بوجود شيء خاطئ لدى أحد أفراد الشلة وبرغبة صحية بطرده، ولو كان مستحيلاً تدميره، وهذه من ميزات الأغنياء، لما كان سيتنازل فيقبل ضيافة والاس جونستون. وكما جرى، فإن والاس جونستون بمتعه الخاصة بالأخرى، كان آخر حصن لهنري كاربنتر، وكان يدافع عن موقعه على نحو أفضل دون أن يدري وذلك برغبته الصادقة في وضع نهاية لعلاقتهما. كانت تعابيره الفظة وشعوره المخلص باللا أمان تخدعان وتغويان الآخر الذي كان من شأنه، لو أعطي عمر هنري كاربنتر، أن يشعر بالملل من الإذعان المتواصل. وهكذا أخّر هنري كاربنتر انتحاره الذي لا مفرّ منه لأسابيع قليلة إن لم يكن لشهور.

كانت النقود التي لا يجد أنها تستحق العيش من أجلها تزيد عما كان يتلقاه صياد السمك آلبرت تريسي شهرياً ليعيل به أسرته في وقت وفاته قبل ثلاثة أيام، بحوالي مئة وسبعين دولاراً.

على اليخوت الأخرى الراسية عند الرصيف كان هناك أناس آخرون لهم مشاكل أخرى. فعلى واحد من أكبر اليخوت، وهو يخت جميل أسود اللون مجهّز بالباركنتين وله ثلاث صوار، كان تاجر حبوب في الستين من العمر قد استلقى مستيقظاً وهو يفكر بقلق حول تقرير استلمه

من مكتبه حول نشاطات مفتشي مكتب الدخل. في الحالات العادية، وفي مثل هذا الوقت من الليل، كان يسكّن قلقه بالويسكي مع الثلج والصودا ويكون قد وصل الآن إلى حالة يشعر معها أنه قويّ ولا يهتمّ بالنتائج شأنه شأن أيّ من القراصنة القدماء الذين كان يشبههم في كثير من النواحي الشخصية ومعايير السلوك. ولكن طبيبه كان قد حرَّم عليه كل أنواع المشروبات لمدة شهر كامل، بل لأشهر ثلاثة بالفعل، أي إنّهم قالوا إن الكحول سيقتله خلال عام إذا لم يتخلّ عنه مدة ثلاثة أشهر على الأقل، لذا كان سيتخلّى عنه لمدة شهر، وكان يشعر بالقلق الآن لاستلامه مكالمة من مكتبه قبل مغادرته للبلدة تسأله عن المكان الذي كان ذاهباً إليه، وإن كان ينوي مغادرة المياه الإقليمية للولايات المتحدة.

تمدّد، وهو في البيجاما الآن، على سريره العريض، ووسادتان تحت رأسه، ومصباح القراءة مضاء، ولكنه لم يستطع أن يركز ذهنه على الكتاب، والذي كان عبارة عن وصف لرحلة إلى جزر غالاباغوس. فيما سلف من الأيام ما كان يحضر الكتب إلى سريره. كان يبقيها في خزائنه ثم يذهب إلى الفراش لاحقاً. كانت هذه حجرته الخاصة في اليخت، الخاصة بقدر ما هو مكتبه الخاص. لم يكن يحب دخول النساء إلى غرفته. حين كان يريد امرأة ما كان يذهب إلى غرفتها، وحين ينتهي ينتهي، وطالما أنه انتهى الآن إلى الأبد فإن دماغه كان يتمتع بالبرودة الواضحة نفسها التي كان لها دائماً في سالف الأيام تأثير لاحق. وكان يتمدد الآن، دون نشوة السكر الضبابية، وقد حرم من كل الشجاعة الكيماوية التي كانت تخفّف عن ذهنه وتدفّئ قلبه كل تلك السنوات الكثيرة، وراح يتساءل عمّا كان لدى المكتب، ما الذي اكتشف وما الذي سيتأوّله عليه، ما الذي سيقبله على أنه عاديّ وما الذي سيصرّون على أنه كان تهرّباً. ولم يكن خائفاً منهم، ولكنه كان يكرههم ويكره السلطة التي يستخدمونها بكل تلك الوقاحة وإلى درجة أن كل وقاحته الفظة الصغيرة القاسية والدائمة، الشيء

الثابت الوحيد الذي كسبه صحيحاً بالفعل، هذا الشيء سيتم ثقبه. وإذا ما تمت إخافته، سيتحطّم.

لم يكن يفكر في أي مجرّدات، بل بالصفقات وعمليات البيع والتحويلات والأعطيات. كان يفكر في الأسهم والبالات، بآلاف البوشلات (مكيال للحبوب)، بالشركات، بالائتمانات، والشركات الفرعية، وبينما راح يفكر في هذا كله كان يعرف أنه يملك الكثير، ما يكفي لجعله في حالة من اللاأمان لسنوات. إذا لم يقبلوا بالحل الوسط سيكون الأمر شديد السوء. في الأيام السالفة ما كان سيقلق، ولكن الجزء المقاتل منه كان مرهقاً الآن، مع الجزء الآخر، وكان وحيداً في هذا كله الآن، وكان يتمدد على سريره الكبير الواسع العتيق، و لم يكن قادراً على القراءة أو النوم.

كانت زوجته قد طلقته قبل عشر سنوات من الآن بعد عشرين سنة من المحافظة على المظاهر، و لم يكن قد افتقدها ولا أحبها قط. كان قد انطلق إلى العمل بنقودها وكانت قد أنجبت له صبيين كانا كلاهما، شأن أمهما، أحمقين. كان قد عاملها جيداً حتى أصبحت النقود التي كسبها تعادل ضعفي رأسمالها الأصلي، وعندها أصبح قادراً على تجاهلها. وبعد أن وصلت نقوده إلى ذلك الحد. كان ينزعج من صداعها المتواصل، من شكواها، أو خططها. كان يتجاهل كل ذلك.

كان يتمتع على نحو مثير بالإعجاب بمؤهلات ممارسة مهنة المضاربة لأنه كان يتمتع بحيوية جنسية استثنائية كانت تمنحه الثقة بالمقامرة جيداً، بالفطرة السليمة، بدماغ رياضي ممتاز، بروح الشكّ الدائمة إنما المتحكم بها؛ روح شك تتحسّس الكارثة الموشكة كما يتحسس مقياس الضغط الجوي. وكان يتمتع بحسّ تقدير لعامل الوقت كان يمنعه من محاولة الوصول إلى الذُرى أو القيعان. وهذا كله بالإضافة إلى قلة احترامه للأخلاق مع قدرة على جعل الناس يحبونه دون أن يحبهم أو يثق بهم بالمقابل، بينما

يقنعهم في الوقت نفسه بدفء وودية صداقته، ليس الصداقة اللامبالية، بل الصداقة المهتمة جداً في نجاحهم الذي يجعلهم شركاء على نحو آلي. كما كان يتحلّى بعدم القدرة على الندم أو الشفقة. كل هذا أوصله إلى ما هو عليه الآن. وها هو يتمدد الآن في بيجامة حريرية مخططة تغطي صدره العجوز المنكمش وبطنه الصغيرة المنتفخة، وعدّته الكبيرة إلى حد غير متجانس والتي لم تعد ذات فائدة له الآن والتي كانت في يوم من الأيام موضع اعتزازه، وساقيه الصغيرتين المترهلتين، ها هو يتمدد على السرير غير قادر على النوم لأنه عرف الندم أخيراً.

كان ندمه عبارة عن تمنّيه لو أنّه لم يكن حاذقاً إلى ذلك الحد منذ خمس سنوات. كان سيقدر على دفع الضرائب آنئذ دون أي تلاعب، ولو أنه فعل ذلك آنئذ لكان في أحسن حال الآن. لذا تمدد وراح يفكر بذلك ونام أخيراً. ولكن بما أن الندم قد وجد مرة المنفذ وبدأ يتسلّل داخلاً، فهو لم يدر أنه نام لأن عقله استمر يعمل كما هو شانه وهو مستيقظ. إذن لن تكون هناك راحة في مثل سنه ولن يستغرق ذلك زمناً طويلاً إلاّ ويكون سبباً في قتله.

كان من عادته أن يقول إن المغفلين فقط هم الذين يقلقون، وأنه سيحجم عن القلق الآن، ولكن ذلك جعله غير قادر على النوم. ربما سيحجم عن القلق حتى ينام، ولكنه سيعود ليتسلل داخلاً، وبما أنه كان عجوزاً إلى هذا الحد فإن مهمته ستكون سهلة.

لن يكون في حاجة إلى القلق حول ما كان قد فعله للناس الآخرين ولا حول ما حدث لهم بسببه، ولا كيف كانت نهايتهم. من انتقل من المنازل الكائنة في شارع «ليلك شور» إلى بنسيونات متواضعة في «أوستن»، والذين كانت بناتهم اللواتي يظهرن للمرة الأولى في الوسط الاجتماعي سكرتيرات لأطباء الأسنان حين يجدن عملاً، والذين انتهوا كحرّاس ليليين في سن الثالثة والستين بعد تلك المغامرة الأخيرة، لا يكترث بمن

كانوا ينتحرون بإطلاق النار على أنفسهم في الصباح الباكر قبل الفطور، وأي من أولادهم وجدهم، وكيف بدا المنظر الفوضوي كله. لا يكترث بمن كان يركب وسائط النقل العامة في شيكاغو وهو ذاهب إلى عمله، حين يجد عملاً، قادماً من «بيروين» محاولاً أن يبيع أوّلاً السندات المالية، ثم السيارات، ثم أغراض المنزل والحلي والحاجات الشخصية (لا نريد أي باعة جوّالين، اخرج من هنا، والباب يغلق في وجهه)، حتى قام بالتنويع على القفزة التي قام بها أبوه من الطابق الثاني والأربعين دون ضجيج، كما يحدث عندما يسقط نسر، فخطا أمام قطار «أورورا– إلغين» وجيب معطفه مليء بمجموعة غير قابلة للبيع من خفّاقات البيض وعصّارات الفواكه. «اسمحي لي يا سيدتي أن أريك كيف تعمل. تصلينها بالكهرباء من هنا، وتضغطين على هذه الأداة هنا. والآن راقبي كيف تعمل.» لا، لا أريدها. «جربي واحدة فحسب.» لا أريدها. اخرج من هنا!

وهكذا خرج إلى الرصيف والبيوت الخشبية والباحات الفارغة وأشجار الكتلبة العارية حيث لا يريدها أحد ولا أي شيء آخر، والذي كان يؤدي إلى خط السكة الحديدية «أورورا– الغين».

بعضهم سقط تلك السقطة الطويلة من نافذة الشقة أو المكتب، وآخرون انتحروا بهدوء في مرآب صغير يتسع لسيارتين، والمحرك يدور، وآخرون استخدموا الطريقة التقليدية المحليـة فاستعملوا مسدس الكولت أو بندقية سميث أند ويسون، تلك الأدوات جيدة الصنع التي تنهي الأرق والندم، وتعالج السرطان، وتجنّب الإفلاس، وتساعد على الهروب من المواقف غير المحتملة وكل ذلك بضغطة إصبع واحدة. يا لها تلك الأدوات الأمريكية المثيرة للإعجاب السهلة جداً على الحمل، المضمونة النتائج، والمصمّمة على نحو رائع لإنهاء الحلم الأمريكي حين يتحوّل إلى كابوس، ولكن السيئة الوحيدة لها هي الفوضى التي تخلّفها ويكون على الأقرباء تنظيفها.

لقد انتحر كل هؤلاء الذين حطّمهم بإحدى تلك الوسائل أو بالأخرى، ولكن ذلك لم يقلقه أبداً. كان لا بد من أن يخسر شخص ما والحمقى فقط هم الذين يقلقهم هذا.

لا، لن يكون عليه أن يفكر بهم ولا بالنتائج الثانوية للمضاربة الناجحة. أنت تكسب، وهناك شخص آخر سيخسر دون شك، والحمقى فقط هم الذين يقلقون.

سيكفيه أن يفكر في أنه كان من الأفضل بكثير لو أنه لم يكن ذكياً إلى ذلك الحد قبل خمس سنوات، وخلال فترة قصيرة، وفي مثل سنه، فإن الرغبة في تغيير ما لا يمكن بعد الآن تغييره، من شأنها أن تفتح الفجوة التي سيتسلل القلق عبرها. الحمقى فقط هم الذين يقلقون. ولكنه يستطيع التغلّب على القلق بكأس من الويسكي مع الصودا. إلى الجحيم بما قاله الطبيب. لذا فهو يقرع الجرس ويطلب كأساً ويحضره له الوصيف وهو وسنان، وبينما يحتسي هو الكأس الآن لم يعد المضارب أحمق الآن، إلاّ أنه يضارب على الموت.

بينما تنام على اليخت التالي الأبعد أسرة مستقيمة الأخلاق، لطيفة ومملّة. ضمير الأب مرتاح وهو ينام نوماً عميقاً على جنبه، وصورة لسفينة من طراز القرن التاسع عشر تحملها رياح قوية فوق رأسه ومصباح القراءة منار، وكتاب ملقى قرب السرير. الأم تنام جيداً وتحلم بحديقتها. إنها في الخمسين ولكنها امرأة جميلة، صحيحة الجسم حافظت على جمالها، وهي تبدو جذابة في نومها. أما البنت فتحلم بخطيبها الذي سيأتي في الغد على الطائرة وها هي تتحرك في نومها وتضحك لشيء ما في الحلم دون أن تستيقظ، وترفع ركبتيها حتى ذقنها تقريباً وهي تلتف على نفسها كالهرة، وهي ذات شعر أشقر مجعد ووجه جميل ناعم البشرة، وهي تبدو خلال النوم كما كانت أمها وهي فتاة بعد.

إنها عائلة سعيدة، كل واحد منهم يحب الآخر. الأب رجل يعتز بمواطنيته، وقد قام بأعمال خير كثيرة، وقد عارض قانون حظر المسكرات، وهو ليس بالمتعصب ويتميز بالكرم والتعاطف والتفهّم. وهو ليس سريع الغضب. كان يدفع أجوراً سخية لطاقم اليخت ويطعمهم جيداً ويسكنهم في مقصورات جيدة. وكلّهم يحترمون صاحب اليخت ويودون زوجته وابنته. أما خطيب البنت فهو عضو في جمعية الأخوّة المسماة «الجمجمة والعظام»، وقد كان أكثر الأعضاء نجاحاً وشعبية، وهو لا يزال يعتبر الآخرين أفضل منه. إنه أفضل من أن يتزوج أية فتاة باستثناء فتاة جميلة كفرانسيس. كما أنه أفضل قليلاً من فرانسيس أيضاً، ولكن فرانسيس لن تدرك ذلك قبل مرور سنوات ربما، وقد لا تدركه أبداً مع بعض الحظ. إن ذلك النوع من الرجال الذي يكون صالحاً لجمعية «الجمجمة والعظام» نادراً ما يكون صالحاً للفراش، ولكن مع فتاة جميلة كفرانسيس فإن النية قد يكون لها مفعول الكفاءة.

إذن كانوا جميعاً ينامون نوماً عميقاً. ومن أين كان يأتي المال الذي كان يجعلهم سعيدين إلى ذلك الحد ويعيشون به على ذلك النحو السعيد اللبق؟

كان المال يأتي من بيع شيء يستعمله كل شخص ويبيع بملايين الزجاجات، ويكلف صنع كل ربع غالون منه ثلاثة سنتات وتباع الزجاجة الكبيرة منه بدولار وخمسين سنتاً للزجاجة المتوسطة وربع دولار للزجاجة الصغيرة. ولكن شراء الزجاجة الكبيرة أكثر اقتصاداً، وإذا كنت تكسب عشرة دولارات في الأسبوع فإن الكلفة هي نفسها بالنسبة لك كأنك مليونير، والمنتَج جيد بالفعل. إن له مفعولاً جيداً كما هو مكتوب عليه وأكثر. والمستعملون الممتنون له في كل أنحاء العالم يواظبون على مراسلته وهم يبلغونه بالاستخدامات الجديدة التي يكتشفونها لذلك المنتَج، كما أن المستخدمين القدماء مخلصين له كما أخلص «هارولد

تومبكينز»، خطيب الابنة، لجمعية «الجمجمة والعظام» أو كإخلاص «ستانلي بولدوين» لهارو. لا توجد حوادث انتحار حين يُكسب المال بهذه الطريقة وينام كل شخص بعمق على اليخت المسمى «أزيرا ٣» وقبطانه «جون جاكوبسون» وطاقمه المؤلف من أربعة عشر شخصاً ومالكه وعائلته على ظهره.

عند المرسى الرابع كان يخت ذو صوار طوله (٣٤) قدماً وعليه اثنان من الثلاثمئة واثنين وأربعين شخصاً استونياً يحرون حول أجزاء مختلفة من العالم، في زوارق يتراوح طولها ما بين (٢٨) و(٣٦) قدماً، ويرسلون مقالات إلى الصحف الإستونية وهذه المقالات تلاقي شعبية كبيرة في استونيا ويتلقى مؤلفوها ما بين دولار ودولار وثلاثين سنتاً عن العمود الواحد. وهي تحتل المكانة نفسها التي تحتلها تلك المقالات والأخبار في الصحف الأمريكية التي تدور حول لاعبي كرة القدم أو البيسبول، كما أنها تنشر عادة تحت عنوان «القصص البطولية لرحّالينا الجسورين». ولا يكتمل حوض يخوت جيد في المياه «الجنوبية» دون شخصين إستونيين على الأقل وقد لوّحتهما الشمس وسفح الملح شعرهما وقد راحا ينتظران شيكاً لقاء آخر مقالة أرسلاها. وحين يصل الشيك سيبحران إلى حوض يخوت آخر ويكتبان قصة بطولية أخرى. وهما سعيدان أيضاً. سعيدان تقريباً بقدر ما هم الناس على ظهر اليخت «أزيرا/٣/». إنه لأمر عظيم أن يكون المرء «رحالة جسوراً».

أما على ظهر اليخت «أريديا/٤/» فهناك صهر محترف لعائلة غنية جداً وعشيقته المسماة «دوروثي» زوجة مخرج الأفلام الهوليودي ذي الأجر المرتفع «جون هوليس»، والذي يمارس عقله الآن عملية الصمود إلى ما بعد كبده حتى ينتهي مسمياً نفسه بالشيوعي لينقذ روحه، فأعضاؤه الأخرى متآكلة إلى حد لا يمكن معه إنقاذها، كان هذان في الفراش. كان الصهر، الضخم الجثة والوسيم المظهر كأنه صورة بوستر، مستلقياً على ظهره وهو

يشخر، ولكن «دوروثي هوليس» زوجة المخرج، مستيقظة وهي ترتدي روب دو شامبر وتخرج الآن إلى سطح اليخت، وتنظر عبر الماء الداكن لحوض اليخوت إلى الخط الذي يرسمه جدار الواقية من الأمواج. الجو بارد على السطح والريح تعصف بشعرها وهي تعيده بيدها إلى الخلف بعيداً عن جبينها الذي لوحته الشمس، وتشد الروب إليها وحلمتا ثدييها قد انتصبتا من البرد، كما أنها تلاحظ أنوار قارب يقترب على امتداد جدار تكسير الأمواج. تراقب الأنوار تتحرك بثبات وسرعة على امتداد الحائط ثم يضاء النور الكاشف للقارب عند مدخل الحوض ويعبر الماء في حركة اجتياح تعميها خلال مرورها، فتنير مرسى زوارق خفر السواحل ومجموعة من الرجال تنتظر هناك واللون الأسود اللامع لسيارة الإسعاف الجديدة القادمة من مكتب دفن الموتى، والتي تستعمل أيضاً عند الجنازات كحاملة للنعش.

وأعتقد أنه سيكون من الأفضل أخذ بعض الحبوب المنومة، هكذا فكرت دوروثي. عليّ أن أنام قليلاً. «إيدي» المسكين سكران تماماً. هذا يعني الكثير له وهو لطيف جداً، ولكنه يسكر إلى حد أنه ينام فوراً. إنه لطيف جداً. وطبعاً لو تزوجته لكان الآن مع واحدة أخرى كما أفترض. إنه لطيف على أية حال. يا للعزيز المسكين، إنه سكران تماماً. آمل ألا يشعر بالبؤس في الصباح. عليَّ أن أذهب وأسرّح شعري وأنام قليلاً. يبدو الأمر وكأن الشيطان يعبث به. أريد أن أبدو جميلة من أجله. إنه لطيف. أتمنى لو أني أحضرت خادمة. ولكني ما كنت لأستطيع على أية حال. ولا حتى «بيتس». أتساءل كيف هو جون المسكين. أوه، إنه لطيف أيضاً. أتمنى أن تكون صحته في تحسن، يا لكبده المسكين. أتمنى لو أكون هناك لأعتني به. عليّ أن أنام قليلاً حتى لا أبدو مخيفة في الصباح. «إيدي» لطيف. وكذلك جون وكبده المسكين. «إيدي» لطيف أتمنى لو أنه لم يسكر إلى هذا الحد. إنه ضخم ومرح ورائع جداً وكل شيء. ربما لن يكون ثملاً إلى هذا الحد غداً.

نزلت إلى الأسفل ووجدت طريقها إلى قمرتها، فجلست أمام المرآة وبدأت تمشط شعرها بالفرشاة مئة مرة. ابتسمت لنفسها في المرآة والفرشاة الطويلة الأشواك تجتاح شعرها الجميل. «إيدي» لطيف. أجل، هو كذلك، أتمنى لو أنه لم يسكر إلى هذا الحد. كل الرجال يعانون من شيء مشابه. انظروا إلى كبد جون. طبعاً لا يمكنكم أن تنظروا إليه. لا بد أن منظره مرعب فعلاً. أنا سعيدة لأنكم لا تستطيعون رؤيته. لا شيء في الرجل بشع بالفعل على كل حال. ولكن أسلوبهم في النظر إلى ذلك مضحك على أية حال. أعتقد أنه الكبد على أية حال. أو الكلاوي المشوية على الطريقة الفرنسية رغم أنه طبعاً الكبد. كم كلية هناك؟ هناك اثنان من كل شيء تقريباً باستثناء المعدة والقلب. والدماغ طبعاً. حسناً. ها هي مئة مرة. أحب أن أمشط شعري. إنه تقريباً الأمر الوحيد الذي تفعله وهو مفيد لك وهو ممتع أيضاً. أعني أنك تفعله لوحدك. أوه، «إيدي» لطيف. افترضوا أني دخلت إلى هناك. لا. إنه سكران جداً. يا للشاب المسكين. سآخذ الحبوب المنومة.

نظرت إلى نفسها في المرآة. كانت جميلة على نحو غير عادي، وتتمتع بجسم صغير ولكنه جميل جداً. فكرت: أوه ما زلتُ جميلة. بعض جسمي ليس جيداً كبقيته، ولكني سأظل جميلة فترة أخرى من الزمن بعد. ولكن عليك أن تنامي قليلاً على أية حال. أحب النوم. أتمنى لو أستطيع أن أنام نومة طبيعية حقيقية واحدة كما كنا ننام ونحن أطفال بعد. أعتقد أن هذا ما يعنيه أن نكبر ونتزوج وننجب الأطفال ثم نشرب كثيراً ونفعل كل تلك الأشياء التي لا يجب أن نفعلها. لو استطعت أن تنامي جيداً لا أظن أن أياً من تلك الأمور كان سيضرّك. باستثناء الشرب الكثير على ما أعتقد. يا لجون المسكين وكبده و«إيدي». «إيدي» عزيز عليّ على أية حال. إنه جميل. الأفضل أن أتناول بعض الحبوب المنوّمة.

ثم كشرت لنفسها في المرآة.

قالت هامسة: «الأفضل أن تأخذي الحبوب المنوّمة.» أخذت الحبة المنوّمة مع كأس من الماء صبته من الترموس الزجاجي الملبّس بالكروم الذي كان على الكومودينة قرب السرير.

إنه يجعلك عصبية، هكذا فكرت. ولكن عليك أن تنامي. أتساءل كيف كان «إيدي» سيتصرف لو كنا زوجين. كان سيقيم الآن علاقة مع امرأة أخرى أصغر سناً على ما أعتقد. أعتقد أنهم لا يستطيعون مغالبة تكوينهم كما لا نستطيع نحن النساء مغالبة تكويننا. أريد الكثير من ذلك وأشعر أني على ما يرام تماماً، وكوني شخصاً آخر أو شخصاً جديداً لا يعني لي أي شيء بالفعل. إنه الشيء نفسه فحسب وأنت ستحبين منهم أن يعطوك إياه دائماً. أعني الشيء نفسه. ولكنهم ليسوا مكوّنين على ذلك النحو. إنهم يريدون امرأة جديدة، أو امرأة أصغر سناً، أو امرأة لا يجب أن تكون لهم علاقة معها، أو امرأة تبدو كامرأة أخرى. أو إن كنت سمراء فهم يريدون الشقراء. وإن كنت شقراء فهم يحبون ذوات الشعر الأحمر. وإن كان شعرك أحمر فهم يريدون شيئاً آخر. فتاة يهودية على ما أظن، وإذا اكتفوا فإنهم يريدونها صينية أو أي شيء آخر لا يعرف إلاّ الله ما هو. لا أعرف. أو هم يصابون بالتعب على ما أعتقد. لا يمكنك أن تلوميهم إن كانوا على هذه الشاكلة ولا أستطيع أن أفعل أي شيء حيال قيام جون بشرب الكثير إلى حد لم يعد معه صالحاً للفراش. لقد كان جيداً. كان رائعاً. أجل لقد كان. كان بالفعل. وكذلك «إيدي». ولكنه سكران الآن. أعتقد أني سأنتهي مومساً. ربما أكون مومساً منذ الآن. أعتقد أنك لا تدركين أبداً متى أصبحت واحدة.

أصدقاؤك المخلصون هم الذين يقولون ذلك عادة. أنت لا تقرئين ذلك في زاوية السيد ونتشيل. سيكون ذلك شيئاً جديداً يعلن عنه. كون المرأة مومساً. السيدة جون هوليس المومس انتقلت إلى البلدة من الساحل. أهم من الإبلاغ عن ولادة طفل لشخص ما. أكثر انتشاراً على ما أظن. وكل

النساء يعانين بالفعل. كلما عاملت الرجل على نحو أفضل كلّما كان أسرع إلى الملل منك. أعتقد أن الجيدين بينهم قد خلقوا ليكون لديهم الكثير من الزوجات، ولكنه لأمر مرهق جداً أن تحاول المرأة أن تلعب دور الكثير من الزوجات بنفسها، ثم تأخذه منك امرأة بسيطة حين يكون قد ملّ من ذلك. أعتقد أننا ننتهي جميعاً كمومسات ولكن على من يقع اللوم؟ المومسات ينلن معظم المتعة ولكن على المرأة أن تكون شديدة الغباء لتكون مومساً جيدة. ربما سبق لي وأصبحت مومساً. يقولون إنّك لا تستطيعين أن تعرفي وأنك تظنين دائماً أنك لست مومساً بعد. لا بد وأن هناك رجالاً يتعبون منك أو من ذلك الأمر. لا بد من ذلك. ولكن من تملكه بينهنّ؟ النساء اللواتي نعرفهن قد تربين بطريقة خاطئة. دعونا لا ندخل في هذا الموضوع الآن. لا، ليس في ذاك الموضوع. ولا أن نعود إلى كل تلك السيارات وكل تلك الرقصات. أتمنى أن يفعل المنوّم فعله. اللعنة على «إيدي»، حقاً. لم يكن عليه أن يسكر إلى ذلك الحد. ليس هذا بالعدل، حقاً. لا يمكن لأحد أن يفعل أي شيء حيال الطريقة التي تكوّنوا بها ولكن السكر لا علاقة له بذلك. أعتقد أني مومس حقاً، ولكن لو تمددت هنا الآن طوال الليل و لم أستطع النوم فسأجن وإذا تناولت الكثير من ذلك الدواء اللعين سأشعر أني في حالة سيئة طوال نهار الغد، ثم يحدث أحياناً ألاّ يجعلك ذلك الدواء تنامين وعلى أية حال سأكون عصبية وغاضبة وأحس أني مخيفة. أوه، حسناً، لم لا يحدث ذلك؟ أكره ذلك، ولكن ما الذي يمكنني فعله؟ ما الذي يمكنك أن تفعليه سوى الاستمرار وممارسة ذلك رغم كل شيء، حتى لو حدث، على أية حال، أوه، إنه لطيف فعلاً. لا هو ليس كذلك. أنا اللطيفة، أجل أنت، أنت جميلة، أوه، أنت جميلة جداً، أجل، جميلة، وأنا لم أرد ذلك، ولكني جميلة، أنا جميلة الآن فعلاً، وهو لطيف فعلاً، لا، هو ليس كذلك، إنه ليس هنا حتى، أنا هنا، أنا هنا دائماً وأنا الوحيدة التي لا تستطيع الرحيل، لا، أبداً. أيتها اللطيفة، أيتها

الجميلة. نعم أنت كذلك. أنت أيتها الجميلة، الجميلة، الجميلة. أوه، أجل جميلة. وأنت أنا. هذا هو كل ما في الأمر. هكذا هي الحال. إذن ماذا عن الموضوع كله الآن؟ كل شيء قد انتهى. حسناً. لا يهمني. وما الفرق؟ ليس الأمر خطأ إذا لم أشعر أني في حالة سيئة. وأنا لا أشعر كذلك. أشعر أني نعسانة فحسب الآن.

ونامت آنئذ، وهي تتذكر، قبل أن تغفو تماماً، أن تنقلب على جنبها حتى لا يستقر وجهها على الوسادة. تذكرت، رغم كل نعاسها، كم يكون ضاراً بالوجه أن تنام بتلك الطريقة، وهو مستقر على الوسادة.

كان هناك يختان آخران في الميناء ولكن كان الجميع فيهما نائمين أيضاً، وذلك حين قام قارب خفر السواحل بقطر قارب فريدي والاس المسمى «كوين كونتش» نحو حوض اليخوت المعتم وتم ربطه إلى عمود خفر السواحل.

* * *

الفصل السابع عشر

لم يكن هاري مورغان يعرف أي شيء عمّا يحدث حين أنزلوا نقالة المرضى من على الرصيف. كان هناك رجلان يمسكان بها على سطح القارب المطلي باللون الرمادي تحت نور كشّاف مسلّط خارج قمرة القبطان.

قام شخصان آخران برفع هاري مورغان من على سرير القبطان ونقلاه بصعوبة إلى الخارج ليمدداه على النقالة. كان غير واع منذ بداية المساء وقد جعل جسده الكبير قماش النقالة يتهدّل بشدة والرجال الأربعة يرفعونها نحو الرصيف.

– ارفعوها الآن!

– أمسك بساقيه. لا تدعه ينزلق!

– ارفعوها!

رفعوا النقالة حتى الرصيف.

سأل مأمور الشرطة والرجال ينقلون النقالة إلى سيارة الإسعاف:

– كيف هو يا دكتور؟

قال الطبيب: إنه حيّ. هذا كل ما يمكن قوله.

– إنه فاقد لرشده أو غير واع منذ أن أمسكنا به.

هذا ما قاله مساعد القبطان الذي كان يقود زورق خفر السواحل. كان

رجلاً قصيراً ومكتنزاً يرتدي نظارتين راحتا تلمعان تحت النور الكشّاف. كانت لحيته نامية. واستأنف يقول:

– كل جثث الكوبيين خاصتك هناك في اللنش. لقد تركنا كل شيء على حاله. لم نلمس شيئاً. كل ما فعلناه هو أننا أنزلنا إلى الأسفل الجثتين اللتين كادتا تسقطان من على سطح القارب. وكل شيء آخر كما هو تماماً. النقود والمسدسات. كل شيء.

قال المأمور:

– هيّا. هل تستطيع أن تجعل النور الكشاف يتركّز هناك في الخلف؟

قال مساعد القبطان:

– سأجعلهم يركزون واحداً على الرصيف.

وقد ذهب ليحضر النور والحبل.

قال المأمور:

– هيا!

ذهبوا إلى مؤخر القارب.

– أريد منك أن تريني بالضبط كيف وجدتهم. أين النقود؟

في هاتين الحقيبتين.

– وكم هناك؟

– لا أعرف. فتحت واحدة ورأيت أن النقود فيها فأغلقتها. لم أرغب في لمسها.

قال المأمور:

– هذا صائب. هذا صائب بالضبط.

– كل شيء كما كان باستثناء أننا وضعنا اثنتين من الجثث على خزانات الوقود في القمرة حتى لا تسقطا من على ظهر السفينة، وقد حملنا ذلك

الثور الضخم المسمى هاري إلى ظهر قاربنا ووضعته على سريري. لقد تصورت أنه سيموت قبل أن نصل به إلى الشاطئ. إنه في حال سيئة للغاية.

- هل كان فاقداً وعيه طوال الطريق؟

قال القبطان:

- كان فاقداً لرشده في البداية، ولكن ما كان ممكناً فهم ما كان يقوله. لقد أصغينا إلى الكثير ممّا قاله ولكن لم يكن هناك ما يفهم منه. ثم فقد وعيه. ها هو مخطّطك. تماماً كما كان كل شيء إلا ذلك الشخص الأقرب إلى الزنوج في شكله، الساقط على جنبه قرب المكان حيث كان هاري مستلقياً. كان على المقعد الطويل فوق الخزان الأيمن معلقاً فوق الإطار والشخص الآخر داكن البشرة إلى جانبه على الطرف الآخر من المقعد، على الجانب الأيسر، مكوّماً على وجهه. انتبه. لا تشعل أي عقود ثقاب. إنها مليئة بالبنزين.

قال المأمور:

- كان يتوجب وجود جثة أخرى.

- هذا كل ما وجدناه. النقود في تينك الحقيبتين. والمسدسات حيث هي تماماً.

قال المأمور:

- الأفضل أن نحضر شخصاً من المصرف ليعدّ النقود أثناء فتح الحقيبتين.

قال القبطان:

- حسناً. هذه فكرة صائبة.

- يمكننا أخذ الحقيبتين إلى مكتبي وختمهما بالشمع.

قال القبطان: فكرة سديدة.

تحت النور الكاشف كان للّونين الأخض والأبيض للقارب الأخضر

والأبيض للقارب مظهر لامع نديّ. وكان هذا يعود إلى الندى على سطح القارب وأعلى القمرة. وكانت الثقوب تبدو جديدة على الطلاء الأبيض. إلى الخلف من القارب كان الماء أخضر نقياً تحت النور وكانت هناك أسماك صغيرة من حول الدعائم.

في القمرة كانت الوجوه المتورّمة للرجال الموتى تلمع تحت النور، وكأنها مطلية بورنيش بني اللون حين جفت الدماء. وكانت هناك ظروف طلقات من عيار (٤٥) في القمرة من حول الموتى والبندقية من طراز طومسون مرمية في المؤخرة حيث وضعها هاري. كانت الحقيبتان الجلديتان المسطحتان اللتان جلب بهما الرجال النقود إلى ظهر القارب تستندان إلى أحد خزاني البنزين.

قال القبطان:

– ظننت أن عليّ ربما أن آخذ النقود إلى زورقي خلال قطرنا للقارب. ثم فكرت في أنه من الأفضل تركها حيث كانت بالضبط طالما كان الطقس جيداً.

قال المأمور:

– كان تصرفك صحيحاً. ما الذي حدث للرجل الآخر. آلبرت تريسي، صياد السمك؟

قال القبطان:

– لا أعرف. هكذا كانت الأمور باستثناء نقل ذينك الاثنين. الكل مثقبون بالرصاص باستثناء ذاك المتمدد هناك تحت عجلة القيادة على ظهره، فقد أصيب في مؤخرة رأسه. وقد خرجت الرصاصة من الأمام. يمكنك أن ترى ما فعلتْه.

قال المأمور:

– إنه ذاك الذي يبدو كشاب صغير.

قال القبطان:

– إنه لا يبدو كأي شيء الآن.

قال المأمور:

– ذلك الضخم الذي هناك هو الذي كانت معه البندقية نصف الآلية والذي قتل المحامي روبرت سيمونز. ما الذي تعتقد أنه جرى؟ كيف قتلوا جميعهم بحق الشيطان؟

قال القبطان:

– لا بد وأنهم تقاتلوا فيما بينهم. لا بد أنه خلافاً ما نشب بينهم حول كيفية توزيع النقود.

قال المأمور:

– سنغطيهم حتى الصباح. سآخذ هاتين الحقيبتين.

وبينما كانوا واقفين هناك في القمرة، وصلت امرأة وهي تعدو إلى الرصيف ومرت بزورق خفر السواحل، وخلفها كان الحشد. كانت امرأة نحيلة، متوسطة العمر حاسرة الرأس. وكان شعرها الخشن الدبق قد انسدل على رقبها رغم أنه كان لا يزال مربوطاً في نهايته. وحين رأت الجثث في القمرة بدأت بالزعيق. وقفت عند الرصيف وهي تصرخ ورأسها إلى الخلف بينما أمسكت امرأتان أخريان بذراعيها. التف الحشد الذي كان خلفها وقريباً منها من حولها. وتناكبوا وهم ينظرون إلى القارب.

قال المأمور:

– اللعنة. من ترك تلك البوابة مفتوحة؟ اجلبوا شيئاً وغطوا به هذه الجثث، بطانيات، شراشف، أي شيء، وسنخرج هذا الحشد من هنا.

توقفت المرأة عن الزعيق ونظرت إلى داخل القارب، رجعت برأسها إلى الخلف وعادت إلى الزعيق مجدداً.

قالت إحدى النساء القرويات منها:

– أين أخذوه؟

– أين وضعوا آلبرت؟

توقفت المرأة الزاعقة عن الزعيق ونظرت إلى داخل اللنش مرة أخرى.

قالت:

– ليس هناك.

ثم صرخت في المأمور:

– هاي، أنت يا روجر جونسون. أين آلبرت؟ أين آلبرت؟

قال المأمور:

– ليس على ظهر اللنش يا سيدة تريسي.

أرجعت المرأة رأسها إلى الخلف وزعقت مجدداً، بينما كانت الحبال في حنجرتها النحيلة تبدو قاسية، وكانت يداها مطبقتي الأصابع وشعرها يرتعش.

في مؤخرة الحشد كان الناس يتناكبون ويتدافعون للوصول إلى الرصيف.

– هيا. دعوا مجالاً لشخص آخر كي يرى.

– سيغطونهم.

ثم بالإسبانية:

– دعوني أمر. دعوني أنظر. أربعة أموات. كلهم أموات. دعوني أنظر.

والآن كانت المرأة تصرخ:

– آلبرت! آلبرت! يا إلهي، أين آلبرت؟

في مؤخرة الحشد تراجع شابان كوبيان كانا قد وصلا للتو و لم يستطيعا اختراق الحشد، ثم ركضا وشقّا طريقهما معاً.

تمايل الخط الأمامي للحشد وانتفخ، ثم ومع زعقة هائلة تهاوت السيدة تريسي والمرأتان اللتان كانتا تساندانها، وبقيت النسوة الثلاث معلقات في انحدار نحو الأمام في حالة لا توازن يائسة، وثم، وبينما تشبّثت المرأتان المساندتان بجنون بمكان آمن، سقطت السيدة تريسي، وهي لا تزال تزعق، في الماء الأخضر، وتحولت الزعقة إلى رشاش وفقاعات.

غاص رجلان من خفر السواحل في الماء الأخضر الصافي حين كانت السيدة تريسي تطلق رشاشاً من الماء تحت النور الكشاف. استند المأمور على مؤخر اللنش ورمى بخطاف زورق نحوها، وأخيراً، وبعد أن رُفعت من الأسفل بواسطة رجلي خفر السواحل، وبعد أن جذبها المأمور، رُفعت إلى مؤخر اللنش. لم يبذل أي شخص من الجمهور أي مجهود لمساعدتها، وبينما وقفت هناك والماء ينقط منها في مؤخر اللنش، نظرت إليهم ولوّحت بكلتا قبضتيها تجاههم وصرخت: «أنجاش! مومشات»، ثم وحين نظرت إلى القمرة صرخت منتحبة: «آبر. أين آبر؟».

قال المأمور وهو يغطيها ببطانية:

– ليس على ظهر اللنش يا سيدة تريسي. حاولي أن تهدئي يا سيدة تريسي. حاولي أن تتحلي بالشجاعة.

قالت السيدة تريسي بمأساوية:

– أشناني. لقد ضيّعت أشناني.

قال قبطان زورق خفر السواحل:

– سنغطس في الصباح ونستخرجها لك. سنفعل ذلك حقاً.

كان رجلا خفر السواحل قد صعدا إلى مؤخر اللنش وها هما يقفان والماء يقطر منهما. قال أحدهما:

– هيا بنا. لنذهب. أنا بردان.

قال المأمور وهو يلف البطانية من حولها:

- هل أنت على ما يرام يا سيدة تريسي؟

قالت:

- على ما يام؟ على ما يام؟.

ثم أطبقت أصابع يديها ورجعت برأسها إلى الخلف لتزعق. كان حزن السيدة تريسي أكبر من أن تستطيع تحمّله.

أصغى الحشد إليها وكان صامتاً ويحترم حزنها. هذا وقد قدمت السيدة تريسي التأثير الصوتي المطلوب بالضبط ليتناسب مع مشهد رجال العصابات القتلى الذين كانوا الآن قد تمت تغطيتهم ببطانيات خفر السواحل من قبل المأمور وأحد مساعديه، وبذلك فقد حجبا أعظم مشهد رأته البلدة منذ أن شُنق «آيلينيو» على «الطريق الريفية» ثم تُرك معلقاً ليتأرجح على عمود الهاتف تحت أنوار السيارات التي خرجت لتراه.

أصيب الحشد بخيبة الأمل حين تمت تغطية الجثث ولكنهم كانوا الوحيدين من البلدة الذين رأوها. كما رأوا السيدة تريسي تسقط في الماء ورأوا هاري مورغان، قبل أن يدخلوا، يحمل على نقّالة إلى «المستشفى البحري». وحين أمرهم المأمور بالخروج من حوض اليخوت فقد خرجوا بسعادة وهدوء. كانوا يعرفون كم هم محظوظون.

في هذه الأثناء وفي «المستشفى البحري» كانت زوجة هاري مورغان، ماري، وبناتها الثلاث، ينتظرن على مقعد في غرفة الاستقبال. كانت الفتيات الثلاث يبكين بينما راحت ماري تعضّ على منديل. لم تكن قادرة على البكاء منذ الظهيرة.

قالت إحدى الفتيات لأختها:

- بابا مصاب في معدته.

قالت الأخت:

- هذا رهيب.

قالت الأخت الأكبر:

– صمتاً. أنا أصلي من أجله. لا تقاطعاني.

لم تقل ماري شيئاً، ولكنها جلست هناك فحسب، وهي تعضّ على المنديل وعلى شفتها السفلى.

بعد فترة خرج الطبيب. ونظرت إليه فهزّ هو رأسه. سألته:

– هل أستطيع الدخول؟

قال:

– ليس بعد.

ذهبت إليه وسألته:

– هل مات؟

– أخشى أن يكون الامر كذلك يا سيدة مورغان.

– هل أستطيع أن أدخل لأراه؟

– ليس بعد. إنه في حجرة العمليات.

قالت ماري:

– أوه يا للمسيح. أوه يا للمسيح. سأصطحب البنات إلى البيت. ثم سأعود.

كانت حنجرتها قد تورمت الآن وانغلقت حتى ما عادت تستطيع أن تبلع ريقها.

قالت:

– هيا أيتها البنات.

لحقت بها البنات الثلاث إلى الخارج حيث السيارة العتيقة فدخلت وجلست في مقعد السائق وشغّلت المحرك.

قالت إحدى البنات:

– كيف هو بابا؟

لم تجب ماري.

– كيف هو بابا يا أماه؟

قالت ماري:

– لا تكلمنني. لا تكلمنني أبداً.

– ولكن...

قالت ماري:

– اللعنة. لا تبكين هكذا. طلبت منكن أن تصلين له.

قالت إحدى البنات:

– سنفعل. لم أتوقف عن البكاء منذ كنا في المستشفى.

وحين انعطفت بهن السيارة إلى الحجر المرجاني الأبيض المهترئ لـ «الطريق الصخرية» أضاءت أنوار السيارة رجلاً يمشي متثاقلاً على امتداد الطريق أمامهن.

فكرت ماري: «لا شك أنه سكّير مسكين. سكير مسكين لعين ما.»

مررن بالرجل الذي كان وجهه مدمّى والذي تابع طريقه بتثاقل في الظلام بعد أن تابعت أنوار السيارة إضاءة الطريق إلى الأمام. كان ذلك هو ريتشارد غوردون في طريقه إلى المنزل.

* * *

عند باب المنزل أوقفت ماري السيارة. قالت للفتيات:

– هيا إلى الفراش. اذهبن إلى الفراش.

سألت إحدى الفتيات:

- وماذا عن بابا؟

قالت ماري:

- لا تكلمنني. بحق المسيح لا تكلمنني.

انعطفت بالسيارة إلى الطريق وعادت أدراجها إلى المستشفى.

* * *

في المستشفى صعدت ماري مورغان الدرج بسرعة. قابلها الطبيب عند الرواق وهو خارج من الباب المنخلي. كان متعباً وفي طريقه إلى البيت. قال:

- لقد رحل يا سيدة مورغان.

- هل مات؟

- مات على طاولة العمليات.

- هل يمكن لي أن أراه؟

قال الطبيب:

- أجل. لقد رحل بهدوء يا سيدة مورغان. لم يتألّم.

قالت ماري:

- يا للجحيم.

بدأت الدموع تجري على خديها. قالت:

- أوه، أوه، أوه.

وضع الطبيب يده على كتفها.

قالت ماري:

- لا تلمسني. أريد أن أراه.

قال الطبيب:

- هيّا.

سار معها في دهليز حتى وصلا إلى غرفة كان هاري مورغان ممدداً فيها على طاولة ذات عجلات، وشرشف يغطي جسده الهائل. كان النور لامعاً جداً ولا يعطي ظلالاً على الإطلاق. وقفت ماري عند الباب ونظرت برعب إلى النور.

قال الطبيب:

- لم يتألم قط يا سيدة مورغان.

لم يبد على ماري أنها كانت تسمعه. قالت:

- يا للمسيح.

وبدأت تبكي مجدداً.

- انظر إلى وجهه اللعين.

* * *

الفصل الثامن عشر

كانت ماري مورغان تفكر وهي جالسة إلى مائدة غرفة الطعام: أعرف. أستطيع احتمال ذلك لنهار واحد في المرة الواحدة ولليلة واحدة في المرة الواحدة، وربما سيختلف الأمر. إنها الليالي اللعينة. لو كنت أكترث بأولئك البنات لاختلف الأمر. ولكني لا أكترث بأولئك البنات. عليّ أن أفعل شيئاً من أجلهن على أي حال. يجب أن أبدأ بشيء ما. ربما يستطيع المرء التغلّب على كونه ميتاً في الداخل. أعتقد أنه لن يكون هناك أي فرق. ولكن عليّ أن أبدأ بفعل شيء ما على أي حال. لقد مرّ أسبوع حتى الآن. وأخشى لو فكرت فيه عمداً، ألاّ أستطيع تذكّر وجهه. عليّ أن أبدأ بفعل شيء ما مهما يكن شعوري. لو كان قد ترك بعض النقود أو لو كانت هناك مكافآت لكن الأمر أفضل ولكن ما كنت سأشعر أني أفضل. أول شيء عليّ أن أفعله هو محاولة بيع المنزل. أولئك الأنغال الذين قتلوه. يا للأنغال القذرين. هذا هو الشعور الوحيد الذي لديّ. الحقد والشعور الفارغ. أنا فارغة كمنزل فارغ، حسناً، عليّ أن أبدأ بفعل شيء ما. كان عليّ أن أذهب إلى الجنازة. ولكني لم أستطع الذهاب. عليّ أن أبدأ بفعل شيء ما على أي حال. لا أحد يعود بعد أن يموت.

هو، لقد كان معتداً بنفسه وقوياً وسريعاً، وكأنه نوع من الحيوانات الثمينة. كان مجرد مراقبتي له وهو يتحرك تثيرني. كنت محظوظة بأنه كان لي طوال تلك الفترة. لقد ساء حظه أوّلاً في كوبا ثم ساء الأمر وازداد سوءاً حتى قتله أحد الكوبيين.

الكوبيون يجلبون الفأل السيئ للفقراء. الكوبيون يجلبون الفأل السيئ لأي شخص. ولديهم الكثير من الزنوج هناك أيضاً. أتذكر تلك المرة التي اصطحبني بها إلى هافانا حين كان يكسب الكثير من النقود وكنا نسير في منتزه وأسمعني زنجي شيئاً ما فضربه هاري، وأمسك بقبعته المصنوعة من القش التي سقطت عن رأسه ورمى بها بعيداً ودهستها سيارة عابرة. لقد ضحكت كثيراً حتى أصبت بوجع في المعدة.

كانت تلك أول مرة صبغت بها شعري باللون الأشقر في صالون التجميل في شارع «برادو». لقد اشتغلوا بصبغه طوال فترة ما بعد الظهر، وكان بطبيعته شديد السواد إلى حد أنهم لم يكونوا راغبين في صبغه باللون لأشقر، وكنت أخشى أن أبدو قبيحة، ولكني واظبت على الطلب إليهم بأن يجعلوه أكثر شقرة، والرجل يعود إلى صبغه وفي يده ذلك العود الخشبي برتقالي اللون وله قطن على أحد طرفيه، وكان يغمسه في ذلك الوعاء الذي كانت فيه مادة تنفث دخاناً كأنها تتبخر، وكان يستعمل المشط أيضاً. فكان يفرق الجدائل بإحدى نهايتي العود والمشط ويصبغها ثم يتركها لتجف وكنت جالسة هناك والخوف في صدري ممّا قد أكون وكان كل ما أستطيع قوله هو أن أطلب منهم جعله أكثر شقرة أيضاً.

وأخيراً قال إنه أصبح أشقر إلى آخر حد ممكن ودون أن يسبب أي ضرر، يا سيدتي، ثم غسله بالشامبو وموّجه وكنت أخشى من النظر (إلى المرآة) خشية أن يكون قبيحاً، وقد موّجه مفروقاً إلى جانب واحد وعالياً خلف أذني مع تجعيدات صغيرة في الخلف، وكان لا زال رطباً جداً إلى حد أني لم أكن قادرة على معرفة إن كان جيداً. إلا أنه كان يبدو متغيراً كله وبدوت لنفسي كامرأة غريبة. ثم وضع شبكة عليه وهو رطب ووضعني تحت المجفف وكنت خائفة طوال الوقت من ذلك كله. ثم وحين خرجت من تحت المجفف رفع الشبكة والدبابيس ومشطه لي فبدا كالذهب.

ثم خرجت من الصالون ورأيت نفسي في المرآة وقد كان يلتمع تحت

الشمس وكان ناعماً وحريرياً جداً حين وضعت يدي عليه ولمسته، و لم أستطع أن أصدق أن هذه المرأة هي أنا وكنت مستثارة جداً إلى حد أني شعرت بالاختناق.

سرت في شارع «برادو» إلى المقهى حيث كان هاري في الانتظار وكنت مستثارة جداً في داخلي بشعور مضحك، ويكاد يغمى عليّ، وقد نهض هو واقفاً حين رآني قادمة و لم يستطع أن يرفع عينيه عني وبحّ صوته وأصبح مضحكاً حين قال: «يا للمسيح يا ماري، أنت جميلة».

وقلت:

– هل تحبني شقراء؟

قال:

– لا تتكلمي عن هذا. لنذهب إلى الفندق.

وقلت:

– حسناً إذن. لنذهب.

وكنت في السادسة والعشرين آنذاك.

هكذا كان معي دائماً وهكذا كنت معه. كان يقول إنه لم يعرف أي امرأة مثلي وأعرف أنه لم يكن هناك أي رجال مثله. أعرف ذلك جيداً والآن هو ميت.

والآن عليّ أن أبدأ بشيء ما. أعرف أن عليّ ذلك. ولكن حين يكون لديك رجل كهذا ويقتله كوبيّ قذر لا يمكنك أن تبدئي على الفور، لأن كل شيء في داخلك لم يعد موجوداً لا أعرف ما أفعله. ليس الأمر الآن كما كان حين يغيب في رحلات طويلة. عندها كان يعود إليّ دائماً، ولكن عليّ الآن أن أستمر بقية حياتي دونه. وأنا بدينة وقبيحة وعجوز الآن وهو ليس هنا ليقول لي إني لست كذلك. سأضطر الآن إلى استئجار رجل ليقول لي ذلك على ما أعتقد ولكني لن أرضى به. هكذا هي الأمور إذن. هكذا هي الأمور بالفعل.

وقد كان طيباً جداً معي وشخصاً يمكن الاعتماد عليه أيضاً. وكان يكسب النقود باستمرار بطريقة ما أو بأخرى وما كنت مضطرة إلى أن أشغل فكري بمسألة النقود، ولكن به هو. والآن ذهب كل شيء.

ليس هذا ما يحدث للذي يُقتل. ما كنت سأكترث لو كنت أنا من قُتل. كان هاري متعباً في النهاية، كما قال الطبيب. إنه حتى لم يفق من غيبوبته. كنت سعيدة أنه مات دون عذاب لأنه قد عانى وحق المسيح عيسى بما فيه الكفاية على ذلك القارب. أتساءل إن كان قد فكّر بي يا ترى. أعتقد أنه في مثل تلك الحالة لا يفكّر المرء بأي شخص. أعتقد أنه لم يتألّم كثيراً. ولكنه كان متعباً جداً في النهاية. أتمنى وحق المسيح أن أكون أنا من مات. ولكن هذه ليست أمنية طيبة. لا شيء جيد على التمنّي.

لم أستطع الذهاب إلى الجنازة. ولكن الناس لا يفهمون ذلك. لا يعرفون كيف تشعرين. لأن الرجال الحقيقيين نادرون. أنهم لا يعرفونهم. لا أحد يعرف كيف تشعرين لأنهم لا يعرفون حقيقة الأمور. أنا أعرف. أعرف جيداً. وإذا عشت الآن عشرين عاماً فما الذي سأفعله؟

لن يقول لي أحد ذلك ولا شيء هناك الآن سوى أن أعيش كل يوم كما يأتيني وأن أبدأ الآن مباشرة بفعل شيء ما. هذا ما عليّ فعله. ولكن يا للمسيح عيسى، ما الذي ستفعلينه في الليالي؟ هذا ما أريد معرفته.

كيف ستقضين الليالي إذا لم تستطيعي النوم؟ أعتقد أنك ستكتشفين ما يعنيه خسارة الزوج. أعتقد أنك ستكتشفين كل شيء في هذه الحياة اللعينة. أعتقد أنك ستفعلين ذلك حقاً. أعتقد أنك ستكتشفين ذلك حقاً الآن. ستموتين من الداخل وكل شيء سهل. ستموتين من الداخل كمعظم الناس معظم الوقت. أعتقد أن الأمور ستكون كذلك فعلاً. أعتقد أن هذا ما سيحدث لك. حسناً، عليّ أن أبدأ بداية جيدة. ستكون لدي بداية جيدة إن كان هذا ما عليّ فعله. أعتقد أن هذا ما عليك أن تفعليه حقاً.

أعتقد أن الأمر هكذا. أعتقد أن الأمور ستصل إلى ذلك. حسناً. سأبدأ بداية جيدة. أنا متقدمة على كثيرين الآن.

* * *

في الخارج كان يوماً شتائياً جميلاً بارداً شبه استوائي وكانت أغصان النخيل تتأرجح تحت ريح الشمال الخفيفة. كان بعض السواح الشتويين الأغنياء يمرون عبر المنزل على دراجات. كانوا يضحكون. في الفناء الكبير للمنزل الواقع على الجهة المقابلة للشارع كان طاووس يزعق عالياً.

عبر النافذة كان بإمكانك أن ترى البحر يبدو قاسياً وجديداً وأزرق تحت النور الشتائي.

كان يخت أبيض كبير يدخل الميناء وعلى مسافة سبعة أميال نحو الأفق كان ممكناً لك أن ترى ناقلة نفط، صورتها الجانبية تبدو صغيرة ورشيقة قبالة البحر الأزرق، وهي تعانق الحيد البحري كأنها اتجهت إلى الغرب لتتجنب إهدار الوقود في الإبحار ضد التيار.

الفهرس

ارنست همنغواي Ernest Miller Hemingway

كاتب أمريكي ولد عام ١٨٩٩ وتوفي عام ١٩٦١، يعدّ من أهم الروائيين وكتّاب القصة. غلبت عليه النظرة السوداويّة للعالم في البداية، إلّا أنّه عاد ليجدّد أفكاره فعمل على تمجيد القوّة النفسيّة لعقل الإنسان في رواياته. شارك في الحرب العالميّة الأولى والثانيّة، وحصل في كل منهما على أوسمة.

عاش همنغواي حياة اجتماعيّة مشاغبة، تزوّج أربع مرات وكانت له عدّة علاقات عاطفيّة، وولع غريب بمصارعة الثيران.

تميّز أسلوبه بالبساطة والجمل القصيرة. ترك بصمة كبيرة على الأدب الأمريكي. شخصيات همنغواي دائماً أفراد أبطال يتحمّلون المصاعب دونما شكوى أو ألم، وتعكس هذه الشخصيّات طبيعة همنغواي الشخصيّة. تلقّى جائزة Pulitzer في الصّحافة عام ١٩٥٣. وحصل على جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٥٤.

في آخر حياته إنتقل للعيش في منزل بكوبا.

وضع همنغواي حدّاً لحياته بإطلاق الرصاص على رأسه من بندقيّته سنة ١٩٦١ في منزله. واليوم تحوّل منزله في كوبا إلى متحف يضمّ مقتنياته وصوره.

«يملكون ولا يملكون» هي الرواية الثانية لهمنغواي التي تدور أحداثها في الولايات المتحدة الأميركية بعد رواية «سيول الربيع» وكتبها في شكل متقطع بين ١٩٣٥ - ١٩٣٧ ونقّحها أثناء سفره وتنقلاته خلال الحرب الأهلية الإسبانية. تتحدث الرواية عن مكابدات ربّان بحري "هاري مورغان" الذي يعمل على قارب في تهريب البضائع بين كوبا وفلوريدا. تُقدّم الرواية هاري رجلاً خيّراً أرغمته ظروف اقتصادية قاسية للعمل في السوق السوداء، فيفقد يده وقاربه خلال عملية تهريب جرى فيها تبادل لإطلاق النار.

تظهر في الرواية آثار مرحلة الكساد الكبير في فترة الثلاثينات بما فيها من الفقر والانحلال اللذان يثقلان كواهل سكان «كي ويست» الفقراء الذين يشار إليهم في الرواية بلقب (الكونكس)، وهذه الرواية متأثرة بسيناريوهات السينما فهي مغامرات بوليسية ومطاردات في بعض جوانبها.

يظهر تأثير الفكر الماركسي على العمل جلياً إذ كان همنغواي يناصر الجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية وقت كتابة الرواية.

مكتبة نوبل

١٩٥٤

لوحة الغلاف: الحياة في كل مكان
الرسـام: نيقولاي ياروشنكو


ISBN 284306222-5
9 782843 062223